فلسفة الأخلاق

تأليف

محمد جواد مغنية

موضوع علم الاخلاق

قصة هذا الكتاب

الأخلاق وهذه التيارات

فلاسفة اللا أخلاق

الوجود فلسفة إباحية

هل الأخلاق ذاتية

الماركسية والطبيعة البشرية

بين الإسلام والوجودية

بين العقل والوجدان

علم الأخلاق منه نظري ومنه عملي

القانون الأخلاق فوق الجميع

الدين وتفتح الشباب

أورع الناس من وقف عند الشبهة

الظروف الطارئة

حرية الطغاة في هذا العصر

المسؤولية

أنواع الجزاء

المسؤوليات الثلاث

النية

الثواب استحقاق أو تفضل

أخلاق العسر والشدة

بين النية والعمل

كف الأذى أصل لا فرع

جهاد النفس

الحكمة ضالة المؤمن

علم الأخلاق محك الخطأ والثواب

اصبر ولا تستعجل

وظيفة الإنسان في هذه الكواكب

حول العدل

تعريف العلم

اضبط النفس

الإنسان روحي ومادي

من أصول المناظرة

الصراحة شيمة الأقويات

كل الناس أحرار

من أخلاق أهل البيت

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء وآله الأتقياء.

حلاوة العلم

كل من ذاق حلاوة العلم يصبر على المشاق في سبيله، ويسهر الليالي الطوال في تحصيله، لأن العلم لا يُلتقط بسرعة وعلى عجل، ومن نال منه شيئاً اهتز من أعماقه غبطة وفرحاً، وتصور تلقائياً وعاطفياً أنه هو الذي أوجد وخلق علم ما لم يكن يعلم. وما هذا بعجيب وغريب، فإن الإنسان يحقق ذاته وشخصيته بالعلم، وبه يكون شيئاً مذكوراً.

والعلم شكل من أشكال العمل بشرط واحد، وهو الاستمرار والمتابعة في البحث والمطالعة حيث يزداد الباحث الدؤوب وعياً وعلماً وإلاّ ذبل ما كان بالإهمال والنسيان، وترك صاحبه يتيه في الظلمات.

كتبت وكتبت

طلبت العلم سنة ١٩٢٥م.، وما زلت أجدّ في طلبه حتى اليوم(١) مطالعة وتدريساً ومذاكرة وتسجيلاً، وطبعت وأذعت أكثر مما كتبت.. ولدي الآن ثلاثة كتب مرشحة للطبع، منها هذا الكتاب(٢) وله قصة، أعرضها بإيجاز بعد سطور.

كتبت أول ما كتبت مؤلفاً محلياً وإقليمياً (الوضع الحاضر في جبل عامل) تحدثت فيه عن بؤس هذا الجبل وحرمانه، وملأت بكلامي آذان الزعماء والعلماء من سكانه، عسى أن يشعروا بالمسؤلية عنه، وكان أول صيحة من أهل العلم الديني في هذا العصر ضد الإهمال والخطر الرابض على شيعة لبنان. وتوالت صيحاتي لهذه الغاية في الصحف وعلى المنابر.

وبعد (الوضع الحاضر) كتبت في الفقه وأصوله، وفي الدفاع عن المذهب والعقيدة، وفي الفلسفة والتصوف والفضائل، وفي التفسير، وشرحت نهج البلاغة، وأيضاً كتبت عن الوهابية وعن علماء النجف الأشرف.. إلى "من هنا وهناك. ومن ذا وذاك" إلى ما شاء ربك، إنه فعال لما يريد.

الإنسان مخير ظاهراً مسير واقعاً

كل إنسان يلتحم ببيئته وظروفه الاجتماعية، شاء أم أبى إلا أن يهيم على وجهه.. هذا إن توافرت لديه أسباب الفرار.. فكيفيكون الإنسان حراً، وهذي هي حاله؟ وصدق أرسطو حيث يقول: «الإنسان مخير ظاهراً، مسير واقعاً».. أبداً ما مر بخاطري في أية لحظة أن أكتب في الأخلاق حتى نزلت النازلة على لبنان، وجاءت الطامة الكبرى في شهر نيسان سنة ١٩٧٥ وما تزال تهدّم وتدمدم.. وعشت في جحيمها وسمومها ستة أشهر، ونشرت في جريدة السفير أكثر من نداء، ولكن من يسمع وقوى الشر والبغي تملأ الأجواء.

وأخيراً، ما وجدت سبيلاً إلا الفرار، فارتحلت إلى النجف الأشرف، وإذا بكتاب مجيد ومفيد لولا الغموض والتعقيد، فطُلب مني أن أجدد صياغته، وأوضح عبارته، فاستخرت الله في كتابه الأعظم عند الرأس الشريف في الحائر الحسيني، فأمر، جلت حكته، فترجمت الكتاب إلى الفصحى، واستفدت كثيراً حيث كان من أقوى الدوافع لي على مراجعة العبادات بالكامل ــ ما عدا الحج ــ في كتاب الجواهر والحدائق ومفتاح الكرامة، وذلك ما حملني أن أعكف عليه بكلي مواصلاً المطالعة والكتابة ليل نهار طوال أربعة أشهر، وكنت أصل أحياناً إلى طريق مسدود لأن الصياغة الأولى ليست غامضة وحسب، بل قاصرة الدلالة على المعنى المقصود.

بين الكاتب والقارئ

سؤال كان وما يزال يوجه اليّ من الهواة، وهو كيف يصير الإنسان كاتباً؟ وكان جوابي وما زال، أن لا يتعجل الكاتب في تسجيل كل ما يمر بخاطره، ويراه حسناً غير عابئ ولا مكترث بالقارىء وإلا قابله بالمثل.. وقديماً قال الشاعر العربي: «وكما تراني يا جميل أراكا». والمعيار الحاسم الصارم لنجاح الكاتب أن يكون صادقاً في قوله، مخلصاً في قصده، واضحاً في سره وعلنه، عالماً بالموضوع الذي تصدى له.

أما الايجاز فنقطة ايجابية وأساسية.. وحدث أكثر من مرة أني حذفت العديد من الصفحات حين طبع الكتاب لا لشيء إلا لهاجس من الخوف أن يمل القارئ فيترك الكتاب إلى غير رجعة، ولو خيرت أن يكون كتابي ٢٠٠ صفحة وله ألف قارئ ــ مثلاً ــ أو يكون ٣٠٠ صفحة ويقرأه ٩٩٠ لآثرت الحجم الأصغر. وكتابي هذا على غرار ما ألفت من قبل لا تعقيد فيه ولا تطويل.

قصة هذا الكتاب

تركت النجف إلى إيران بقصد الزيارة، وكان قد بقي من السنة الدراسية ثلاثة أشهر فرغب اليّ سماحة المرجع الكبير آية الله شريعتمداري أن أدرّس في دار التبليغ، فتوقفت وترددت لأن التدريس بالنسبة إلى علة القلب والتقدم في السن مسئولية شاقة وصعبة، بل وجادة أيضاً حيث أهتم كثيراً في التفهيم وطريقته، والشرط الأساسي عندي لكفاءة الأستاذ قدرته على تيسير وتسهيل أساليب البحث والدرس.. ولما عاودني السيد دام ظله مؤكداً استخرت في الكتاب العزيز، وإذا بهذه الآية: **(ونقرّ في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمّى)** (٥ ــ الحج) فشرعت بتدريس الإرث على المذاهب الخمسة وعلم الأخلاق، وكان هذا الكتاب ثمرة لدرس هذا العلم.

ولا خلاف في شيء من مبادئ الأخلاق وقيم الخير والشر بين سابق ولاحق من علماء المسلمين على العكس من المسائل الفقهية، وإنما الاختلاف في طريقة العرض والتحليل والتدليل تبعاً لاختلاف الأيام والاتجاهات، وفي نقاش الفلسفات الحديثة التي تنصب العداء الصارخ للدين والأخلاق.. ويجد القارئ عرضاً موجزاً للوجودية والبرجماتية والوضعية المنطقية ورأي الماركسيين في الطبيعة البشرية، ولما يمكن أن يقال حولها باعتبار أن هذه الفلسفات أو النزعات هي الأكثر شيوعاً والأقوى تأثيراً من غيرها.

وأخيراً، أشير إلى كتاب دستور الأخلاق في القرآن للدكتور الشيخ محمد عبد الله دراز الذي ترجمه الأستاذ عبد الصبور شاهين من الفرنسية إلى عربية القرون الحالية!.. ولا أدري هل يتعمد هذا الكاتب الغموض والتعقيد أو هو معقد بالذات والطبع!.

وفي شتى الأحوال فقد صبرت على هذا الكتاب المطلسم، وانتفعت به، وسرت على تخطيطه في الأخلاق النظرية والحديث عن عناصر الخير الخمسة: الإلزام والمسئولية والجزاء والنية والجهد. أما الأخلاق العملية فما قيدت الحديث عنها بتخطيط جديد أو قديم لأنها مجموعة من القيم الإنسانية لا يخرج عن حدودها إلا شاذ عن طبيعة الإنسان وشريعته.. وأيّ إنسان لا يريد أن يحيا ويعيش حياة الأمن والاستقرار والتحرر من الظلم والاستغلال، وأن تكون علاقته مع كل الناس علاقة الحب والصفاء والإخلاص والوفاء؟.

وأكتفي بهذه الإشارة إلى قصة الكتاب تاركاً الحديث عن جميع بحوثه ومحتوياته ومزاياه وصفاته، إليه وحده، فانه أصدق في التعبير عن نفسه من كل واصف وناطق.. هذا، إلى أن

علاقة المقدمة بالكتاب لا تحدد وتنحصر بالحديث عنه من كل جهاته أو بواحدة منها على سبيل التعيين، بل يترك ذلك لميول المؤلف ومشاعره وظروفه وأحواله، والأهم من كل شيء أن يستأثر الكتاب بالقارئ، ويشده إليه، وهو يتجه به إلى حياة أفضل وأكمل.

وفي سائر الأحوال فإن العلم، أيّ علم كان، ما هو بخليق وجدير بهذا الاسم إلا أن يلتحم مع الحياة ويؤثر فيها أثره، فيحل مشكلة من مشكلاتها، ويسهل عسيراً من أمرها. وأكثر العلوم التصاقاً بهذا المبدأ هو علم الأخلاق لأن موضوعه ينحصر في سلوك الإنسان بحدود الفضيلة وقيودها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وحاولت أن أعرض في هذا الكتاب المعيار السليم لهذا السلوك بكل ما أملك من جهد، ولا أدري: هل بلغت ما أريد؟ أدع الحكم لي أم عليّ للقراء.

والله سبحانه المسؤول أن يهب لنا من لدنه رحمة وفرجاً ومغفرة ومخرجاً بالنبي وآله الأبرار. عليه وعليهم أفضل الصلوات.

حول الأخلاق

لمجرد التمهيد

كل إنسان يستشعر في ظروف معينة نداء الضمير الحي والفطرة النقية حتى ولو كان أشد الناس إلحاداً وأكثرهم جهلاً، ومن الذي لا تتحرك انسانيته وتثور عاطفته إذا رأى طفلة تلتهمها النيران، وهي تصرخ وتستغيث؟ وكل فعل يصدر عن هذا الإحساس الإنساني النبيل وينبعث من القلب لا من خارجه فهو من الأخلاق في الصميم، فالشرط الأساسي في الفعل الخلقي أن يصدر عن باعث خلقي صرف أو يصدر عن باعث ديني بحت، فإن طاعة الدين لله وللدين تماماً كفعل الخير لوجه الخير.

وإذا تحركت العاطفة واتجهت نحو الخير ومحاسن الأخلاق في بعض المواقف فانها تثور وتتحرك نحو الشر ومساوئ الأخلاق في كثير من المواقف كالذي ينساق مع حسده وحقده وغضبه ومآربه بلا روية وتفكير.

وفي يقيني وعقيدتي أنه لا خلق أسوأ وأضرّ من خلق الذين يرفعون شعارات الخير وهم أعدى أعدائه!. ينادون بالحرية ويبطشون بالأحرار، ويتبجحون بالعدالة، ويقتلونها غيلة وغدراً، ويتباكون على الإلفة والوحدة وهم الذين فرقوا ومزقوا الصفوف: ﴿يخادعون الله

والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون. في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليهم بما كانوا يكذبون ــ ١٠ البقرة)).

وإلى مزيد من التوضيح في الصفحات الآتية.

موضوع علم الأخلاق

موضوع الأخلاق: سلوك الإنسان وأفعاله الصادرة عنه بإرادة مباشرة أو بالواسطة، ومرادنا بالواسطة هنا أن علم الأخلاق يدين المخطئ إذا قصر وأهمل الاحتياط والتحفظ. طبعاً مع قدرته عليه حيث لا تقصير مع العجز.

تعريفه

وعلم الأخلاق مجموعة من المبادئ المعيارية التي ينبغي أن يجري السلوك البشري على مقتضاها، والياء في المعيارية(٣) نسبة إلى المعيار الذي يقاس به غيره (أي أن مبادئ الأخلاق ترسم طريق السلوك الحميد وتحدد أهدافه وبواعثه).

الغاية

إذا كانت الغاية من علم النحو صون اللسان عن الخطأ في المقال، ومن علم المنطق صون الفكر عن الخطأ في الأحكام، فإن الغاية من علم الأخلاق صون الإنسان عن الخطأ في سلوكه بحيث يكون مستقيماً في قصده وفعله وغرضه بعيداً عن الهوى والتقليد الأعمى، وبكلمة فإن الغاية من كل علم ما عدا علم الأخلاق أن نبتعد عن الخطأ في مسائله وقضاياه. أما الغاية من علم الأخلاق فهي ان يوجد مجتمع يسود فيه العدل والأمن والتعاون على صيانة الحياة من الفساد والمظالم، ومن كل ما يشقيها ويرهقها، والسير بها إلى الاكمل والأفضل.

ومعنى هذا أن علم الأخلاق يتوخى اصلاح الفرد والجماعة بملازمة الصراط المستقيم في السلوك.

مصدره

ومصدر علم الأخلاق كتاب الله وسنة نبيه وآله الأطهار والعقل والمشاهدة والفطرة. وبعض

الكتّاب يعبر عنها بالجهاز الدقيق الموجود في داخل الإنسان يدرك تلقائياً الكثير مما يصلحه ويسعده ولا يُشقيه ويفسده كحبه للحرية والمساواة وكراهيته للعبودية والمحاباة، ورغبته في كل ما يوفر له الحياة الفضلى ويجعله شيئاً مذكوراً. وبعض المؤلفين يسمي هذا الجهاز بقانون القلب الذي يدرك الشيء تلقائياً. في مقابل قانون العقل الذي ينتقل من مجهول إلى معلوم، من شاهد إلى غائب.

بين علم الطبيعة وعلم الأخلاق

قطب الرحى في علم الطبيعة الكشف عن أسرارها وعناصرها كما يدركها علماء الطبيعة بالتجربة والمشاهدة، ويصوغونها في قواعد مضبوطة يستعينون بها على تطويع الطبيعة لمصلحة الإنسان ومساعدته فيما يواجه من مشكلات العيش والحياة، ومن شأن هذا العلم أن يتطور ويتقدم تبعاً لتطور قوى الانتاج ووسائله، وقد تعاظم شأن هذا العلم في أيامنا بصورة هي فوق الوهم والخيال!. وعلماء الطبيعة هم الذين يصنعون الحضارات، ويغيرون الحياة المادية، ويهدمون العديد من التقاليد والعادات، وأي إنسان في هذا الكوكب من أدناه إلى أقصاه تخلو حياته اليومية من آثار العلوم الطبيعية الحديثة؟. وقال كاتب معاصر: «العلم الحديث موضوعه الطبيعة والمادة حية وميتة وما يخرج عنها من طاقات، أما ما لا يرى فليس لهذا العلم إليه من سبيل.. فإن أنكر عالم طبيعي وجود الروح ونحوها فهو انما يفعل ذلك خارج مهمته كالمحامي يقضي في موضوع طبي، أو كالطبيب يقضي في شؤون الجن وأمراضها.!

وقطب الرحى في علم الأخلاق هو: كيف ينبغي أن يكون عليه سلوك الإنسان، كما سبقت إليه الإشارة، وما من أحد يستطيع العيش بلا سلوك أو بسلوك بلا منهج ونظام، وعلماء الأخلاق يرسمون ويرسون هذا المنهج والنظام الذي يسترشد به الإنسان إلى الغاية المثلى.

ومعنى هذا أن حياة الإنسان بحاجة ماسة إلى جهود علماء الطبيعة وفلاسفة الأخلاق معاً، وإلى التنسيق والتوازن بين المصالح المادية والحاجات الروحية، ولكن طغت المادة وأشياؤها في أيامنا هذه على الأخلاق وقيمها، وانقلبت المفاهيم، وأصبحت الفضيلة هي المصلحة الذاتية، وتحوّلت أكثر العقول أو الكثير منها إلى آلة حاسبة لأرقام الأرباح والفوائد!. وعسى أن يكتب الله لعباده الإنابة والهداية.

بين الدين والأخلاق

الوحي عندنا مصدر من مصادر الأخلاق، ويكفي في الدلالة على ذلك أن الأخلاق كلها سلوك وعمل حتى ضبط النفس فإنه نوع من العمل، ونحن نهتدي بكتاب الله وسنة نبيه في سلوكنا معه سبحانه ومع الأسرة والمجتمع وسائر الكائنات، وأيضا كل من دعوة الإسلام وعلم الأخلاق إنسانية عالمية لا تتقيد بزمان أو مكان ولا بأمة أو طائفة.

وإن كان هناك من فرق فهو أن مفهوم الأخلاق لا يدخل فيه فكر مجرد ونظر محض في حال من الأحوال. أما مفهوم الدين فانه يعمّ ويشمل الفكر والإيمان الذي لا يستدعي أي شعار أو جهد وأثر تراه الأبصار وتمسه الأيدي كالاعتقاد بوجود الجن والملائكة حيث ورد ذكرهما في القرآن الكريم.

هذا أولاً، وثانياً أن مبادئ الدين وتعاليمه لا تكون ولن تكون إلا بوحي من السماء، أما مبادئ الأخلاق وقيمها فتكون بوحي من الله سبحانه، وبوحي من الفطرة النقية وجوهر الإنسانية، بل إن كثيراً من الفلاسفة ربط الأخلاق بالطبيعة البشرية وحدها، واعتبرها ظاهرة إنسانية لا صلة لها بالدين على الإطلاق، وإن التقت معه على صعيد واحد في كثير من المبادئ والأحكام.

أما نحن ــ فكما أشرنا ــ نؤمن ونعتقد بأن الأخلاقي يحتكم إلى دينه وضميره معاً، وأن العلاقة بين محكمة الدين ومحكمة الضمير هي علاقة التعاضد والتأزر وان حكم احداهما يزيد حكم الثانية قوة وإبراماً وثباتاً وإحكاماً. ويأتي في فصل المسؤولية أن المسؤولية الدينية تتحول حتماً إلى المسئولية الأخلاقية الطبيعية في نفس المؤمن لأن الإيمان والضمير كلاهما من الحقائق الكامنة في ذات الإنسان وأعماقه لا في خارجه.

بين عالم الدين وعالم الضمير

ولا شيء أصدق في الدلالة على الصلة القوية الوثيقة بين أخلاقية الدين وأخلاقية الضمير، من قوله تعالى: **(يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم)** (٨٩ ــ الشعراء).. **(إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى)** (١٣ ــ الكهف).. **(في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً)** (١٠ ــ البقرة). وقال سيد الكونين(ص): «إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه»، وقال الإمام أمير المؤمنين(ع): «من لم يعن على نفسه حتى يكون له منها واعظ وزاجر لم يكن له من غيرها زاجر وواعظ». والمراد بالواعظ هنا وهناك الضمير الاخلاقي الذي يضبط النفس عن الهوى.

والآن تعال معي لنستمع إلى انشودة الأناشيد، إلى نشوة الروح من عطر هذا الإمام العابد ((المعبود)): زين العابدين(ع) حيث يقول بقلب واجف خافق:

((اللهم خذ لنفسك من نفسي ما يخلصها، وابق))

((لنفسي من نفسي ما يصلحها، فان نفسي هالكة أو تعصمها)).

معضلة مشكلة تأخذ بالخناق: كيف ينتشل الإنسان عدوه من ذاته، ويطهرها منه والمفروض أن عدوه هو ذاته لا غيرها؟ وهل من سبيل إلى الفرار إذا كان الحصار من الداخل؟.. أبداً لا مناص ولا خلاص إلا أن يغيّر هذا الإنسان ذاته، فيهدمها من الأساس ويبنيها من جديد، كما جاء في الآية ١١ من الرعد: **(ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)** بحيث يصبح الإنسان جديداً وضميراً رشيداً يسير على هديه، ويعيش في ظل الله وظله.

إلى الله تُرجع الأمور

سبقت الإشارة أن بين أخلاقية الدين وأخلاقية الضمير صلة وثيقة وقوية، ويمكن القول بأنهما شيء واحد بالنظر إلى المصدر، ان الله سبحانه هو الذي شرع الدين وانزل الوحي، وأيضاً هو الذي خلق الضمير والعقل، وأودع فيه ملكة التمييز بين الخير والشر ((وهديناه النجدين)).

ومن جهة ثانية فان العقل يأمر بطاعة الله ويوجب ما أوجب ويحرم ما حرم، ومن هنا اتفق الشيعة على أن كل ما حكم به الشرع يحكم به العقل، وكل ما حكم به العقل يحكم به الشرع، وقالوا: إن العقل بيان من الداخل، والشرع بيان من الخارج، وأيضاً قالوا: ((السمعيات ألطاف في العقليات)).

وأرادوا بهذه الجملة أن الأحكام العقلية بمجردها لا تبعث على فعل الخير وترك الشر، فجاء الوحي مؤازراً لها ومناصراً بالتأكيد والتأييد تارة، وبالوعد والوعيد تارة أخرى، وسموا هذه المؤازرة والمناصرة بقاعدة اللطف.

ونستخلص من كل ما تقدم أن من فعل الخير وهو مؤمن بالله، كان فعله هذا دينياً وأخلاقياً في آن واحد، وإن يك من الجاحدين نظرنا: فإن كان من الذين يعترفون ويؤمنون بالأخلاق وواقعها وقيمها وأصولها كان فعله للخير أخلاقياً لا دينياً، وأن كان لا يؤمن بشيء على الإطلاق فعمله لا ديني ولا أخلاقي، بل هباء وهواء لأنه حالة من حالات الفوضى

واللامبالاة حيث لا قياس ومنهج ولا نظام ومبدأ.

والخلاصة أن الدين يعتبر العمل بمبدأ العدالة الإنسانية والأحكام العقلية الفطرية نوعاً من طاعة الله وشريعته، كما أن العقل والضمير الحي يرى العمل بأحكام الله وشريعته نوعاً من العمل بمبادئ الأخلاق وقيمها.

فلاسفة اللاأخلاق

قال لفيف من الفلاسفة: لا أصول وجذور في طبيعة البشر للأخلاق. ولا وحي نزل فيها على الإطلاق إلا عند الذين آمنوا به وتواصوا بالصبر والمرحمة، وعليه فأية عبارة أخلاقية مثل الوفاء والاحسان إن هي إلا تعبير عما في نفس قائلها من شعور ذاتي تسرب إليه من عادات قومه وتقاليد بيئته.

الجواب:

أولاً: ان انكار الأخلاق جحود بالإنسانية وجوهرها وسموها وأسرارها من الأساس، وكفر بالتضحية والاستشهاد، وبالمحبة والحنان، والعفو والصفح واللطف والحنان والتراحم والتعاون، والإباء والعفة، وبراحة الضمير لفعل الخير وتأنيبه وندمه على فعل الشر، وغير ذلك من العالم الأكبر الذي انطوت عليه نفس الإنسان، وشارك به السبع الشداد على حد ما قال الإمام أمير المؤمنين(ع).

وأخيراً من أنكر الأخلاق فقد حكم بنفسه بأنه مجرد عن الإنسانية بكل ما فيها من معنى، وان الكلام معه تماماً كالكلام مع جامد أو حيوان ((من فمك ادينك)).

ثانياً: بأي شيء نفسر ونفرق بين عالمين تخرجا من مدرسة واحدة، وعاشا في مجتمع واحد، وظروفهما واحدة، وكل منهما يؤمن ويعتقد بأن على العالم أن يعمل بدينه وعلمه، فعمل أحدهما بما يعلم ويعتقد ابتغاء وجه الله ومرضاته، واتخذ الآخر من العلم والدين أداة للصوصية!. أبداً لا تفسير لهذا التفاوت والشتات إلا أن ذاك استجاب لدعوة الله ونداء الضمير، ونكص الآخر وتمرد.

ثالثاً: ما من شك أن الطفل يولد ولا معاني في ذهنه كلية أو جزئية، ثم ينمو جسماً وعقلاً من خلال تربيته وتفاعله مع مجتمعه وبيئته حتى يصل إلى مرحلة يستقل فيها بصفاته وخصائصه التي تميزه عن غيره، وبشعوره وتفكيره حراً طليقاً في أفكاره وقراراته وآرائه

ومعتقداته.

وقد يزداد عقله وذكاؤه قوة ونمواً بمضي الزمن فيحاكم البيئة والمجتمع فضلاً عما يقرأ ويسمع، وقد يتبنى اتجاها يضاد ويعارض الاتجاه السائد عند العموم. بل قد يهدم بعبقريته وعظمته تقاليد الجماعة من الأساس، ويقلب حياة الأمة أو الأمم رأساً على عقب كما فعل رسول الله(ص) الذي أخرج الناس من الظلمات إلى النور، وصحح الوضع السائد الفاسد في عالم الشرك والجاهلية..

واليوم نقرأ الكثير في الصحف والكتب، عن الصراع بين الأفراد والجماعات، يكشف عن أسواء النظم السياسية والتقاليد الاجتماعية.. ولو كانت جميع الأفكار والتعاليم والصفات والخصائص، بإيحاء البيئة وآثارها والمجتمع وعاداته لما كان في الدنيا نبي وعبقري، ولا مصلح وناجح.

بين الأخلاق والعادات

كان سفسطائيو اليونان القدامى يعلمون الشباب الجدل الفارغ وفن المغالطة والتلاعب بالألفاظ، ويتقاضون أجراً معلوماً على هذا التشكيك والتضليل. وقد شمل نقاش السفسطة فيما شمل الطعن بالأخلاق حيث قال السفسطائيون: إن الأخلاق تختلف من مجتمع إلى مجتمع، ومن زمن إلى زمن، فالخير عند أناس في الشرق هو شر عند آخرين في الغرب،والعدل في زمن كان، هو ظلم في هذا الزمن، ولو كانت الأخلاق تصدر من الوحي والعقل ــ كما سبق ــ لكانت بكاملها على نسق واحد ومن نوعية واحدة شرقاً وغرباً وفي كل حين.

وحفظ هذه السفسطة من حفظها في هذا العصر، واخذ يشيعها ويروجها.

وهذا جهل وخلط بين علم الأخلاق المستقل في موضوعه ومنهجه وقواعده كغيره من العلوم وبين العادات والتقاليد التي توجد وتنشأ من الظروف والمناسبات ولا ترتكز على أساس من العلم والحق. وفيما يلي نشير إلى الفروق بين مبادئ الأخلاق والعادات:

١ ــ إن المبدأ الخلقي كالصدق والعدل عام وثابت يصلح لكل مجتمع في كل زمان ومكان لا يتعدد أو يتجزأ، وإنما التعدد في الفهم وكيفية التطبيق، أما العادة فقد تختص بالفرد كالتدخين أو بشعب أو قبيلة أو طائفة أو دولة تبعاً لظروفها، وعلى سبيل المثال: ما جاء في

كتاب دراسات إسلامية للدكتور دراز: أن قانون الرومان القديم كان يُخوّل ربَّ الأسرة أن يقتل زوجته وأولاده، وأن قانون أسبارطة كان يبيح النهب والاختلاس في بعض المواسم، وأن الأمهات في الصين كانت ترمي أطفالها إلى الحيوانات المفترسة تخلصاً من أثقالهم.. وكلنا يحفظ قوله تعالى: **(وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت)** (٨ ــ التكوير).

ومن أغرب ما قرأت في هذا الباب ما جاء في مجلة عالم الفكر الكويتية، العدد الرابع من المجلد الأول: أن جريحاً من البيض في الولايات المتحدة احتاج إلى عملية نقل الدم، ولم تتفق فصيلة دمه إلا مع فصيلة دم السود، وقد تبرع هذا المسكين إلى الجريح بدمه لوجه الله والإنسانية، ولكن الممرضة أخذت الزجاجة التي فيها دم الإنسان الاسود وكسرتها، وتركت الجريح يموت كيلا يختلط دم العبيد بدم السادات!.

فهل هذا إنسانية أو وحشية؟ وهل قتل الأولاد من أملاق دليل على ضغط الفقر وكفره أو على قسوة الأمومة والأبوة؟ وهل قانون القتل والنهب وأباحتهما من وحي الله والضمير أو من الخطأ والجهل بالمقاييس والمعايير؟.

٢ ــ ان العادة مصدرها الشعور والانفعال أو العرف، أما الأخلاق فمصدرها الوحي والعقل، كما سبقت الإشارة إليه.

٣ ــ ان أحكام الأخلاق كلها صالحة نافعة للفرد والجماعة، أما التقاليد والعادات فمنها الضار والنافع، ومنها وجوده كعدمه.

وبعد، فإن القاعدة الأخلاقية تقوم على معيار إلهي وعقلي وتنطلق منه إلى التطبيق والعمل، أما العادة فهي وليدة الظروف والمصادفات، فقياسها على الأخلاق أشبه بقياس اللامعقول على المعقول، واللاقيم وعدم الالتزام على الالتزام والقيم الجاهزة.

بين الأقوياء والضعفاء

قال الفيلسوف الألماني نيتشه: خُلق الأقوياء ليحكموا الضعفاء، ووُلد الضعفاء ليخدموا الأقوياء، ولما ضاقت الأرض على المعذبين والبائسين لجأوا إلى الحيلة وابتدعوا كلمة الأخلاق وحسن السلوك بالعدل والمساواة، وأن يحب الإنسان لأخيه ما يحب لنفسه.. عسى أن يتعظ الأقوياء ويكفوا أيديهم عن اخوانهم الذين لا حول لهم ولا قوة. ومعنى هذا أن الأخلاق لا أساس لها من الواقع، وان مصدرها الأول والأخير حيلة المغلوبين تماماً كرفعهم

المصاحف يوم صفين.

وقال ماركس: أجل لا عين ولا أثر للأخلاق في الواقع، وإن هي إلا حيلة وغيلة ولكن من الأقوياء لا من الضعفاء وقد ابتدع الطغاة كلمة الوداعة والمسالمة والصبر والزهد والبعد عن المشاكل والقلاقل كيلا يتحول المستضعفون إلى مكافحين ثائرين على الرق والعبودية.

ويلاحظ بأن كلا من نيتشه وماركس قد أثبت وجود الأخلاق في الواقع من حيث يريد نفيها وإنكارها دون أن يحس ويشعر، فنيتشه يمجد القوة في الأقوياء، والإنسان القوي خير من الإنسان الضعيف، ما في ذلك ريب، شريطة أن لا يتولد من قوته ضعف الآخرين، وماركس يندد باستغلال الأقوياء للضعفاء، وهذا التنديد كلمة حق شريطة أن يراد بها تحقق الحرية للجميع(٤).

والذي يؤكد اعتراف ماركس بالإنسانية والقيم الاخلاقية، قوله: «إذا كانت الظروف هي تصنع الإنسان فيجب أن نصنع ظروفاً إنسانية». وإذن فالخلاف في تفسير الإنسانية وتطبيقها العملي، وهل هي نفس الماركسية اللينينية أو هي العدالة الاجتماعية وضمان الحرية لكل الناس بلا تمييز سواء أكانت دينية أم سياسية أم اقتصادية، لا فرق بين واحدة وواحدة؟.

نظرية الوسط

تحدث اليونانيون عن الأخلاق وأكثروا خاصة سقراط حيث اتفق مؤرخو الفلسفة أنه المؤسس الأول لفلسفة الأخلاق، وأنه انزل الفلسفة من السماء إلى الأرض لأن الفلاسفة من قبله كانوا يهتمون في أصل الكون ومصدره وكواكبه وعناصره ابتغاء الوصول إلى معرفة قوانين الطبيعة وعلومها، فحوّل سقراط هذا البحث إلى نفس الإنسان وسلوكه وسعادته وشقائه وفنائه وخلوده ونشاطه وفاعليته، ابتغاء الوصول إلى معرفة الفضيلة والقيم العليا.

والغريب أن بعض الباحثين يرى هذا التحول دليلاً على أن سقراط موضوعي تقدمي، وقد رأى آخر أنه دليل على رجعية سقراط وجموده لأن اهتمام الفلسفة بالأخلاق معناه التدهور والانهيار تماماً كما قال فلاسفة اللاأخلاق الذين سبق الحديث عنهم قبل قليل.

وقال فيلسوف معاصر: لا نخطىء إذا قلنا عن الفلسفة اليونانية: إنها بصفة عامة كانت تخدم الأخلاق، وبعد أن انتشرت المسيحية في أوربا والإسلام في الشرق تحولت الفلسفة من

خدمة الأخلاق إلى خدمة الدين ودعمه. واليوم وقد جاء عصرنا بالعلم الطبعي يحاول علماء الطبيعة أن تكون الفلسفة وصيفة تخدم هذا العلم تماماً كما خدمت الأخلاق في عصر الاخلاق والدين في عصر الدين.

وعلى أية حال، فقد انتهى اليونانيون بفلسفتهم الأخلاقية التي قادها ارسطو إلى أن الفضيلة وسط بين رذيلتين، فالشجاعة ــ مثلا ــ فضيلة لأنها وسط بين الجبن والتهور، والكرم فضيلة لأنه وسط بين الإسراف والتقتير الخ(٥).

وبقليل من التأمل يظهر الخطأ والقصور في هذه النظرية كمنهج كامل ومطرد، وذلك بأن هناك فضائل كثيرة باعتراف اليونانيين أنفسهم، ليست وسطاً بين رذيلتين، منها الصدق فانه فضيلة وتقابله رذيلة الكذب ولا ثالث، ومنها العفو عن المعتدي فأنه رحمة وفضيلة في بعض الأحيان، ويقابله القصاص، وهو عدل وانصاف ولا رذيلة إلا الاعتداء، فأين الرذيلتان؟ بل هنا رذيلة بين فضيلتين وليس فضيلة بين رذيلتين، ومنها الأمانة.

الأخلاق وهذه التيارات

العلماء القدامى

كان العلماء القدامى يتحدثون عن أحكام الدين ومبادئ الأخلاق، على أنهما حق لا ريب فيه، وما كان من أحد يجرؤ على القول والسؤال عن السبب الموجب للالتزام بالدين والأخلاق، وعن المبرر لهما ووجوب الاعتقاد بهما لأن مثل هذا السؤال كان آنذاك في نظر الناس، كل الناس أو جلهم تماماً كالسؤال: لماذا يرى ينظر الإنسان بعينيه، ويسمع بأذنيه، ويمشي على رجليه.. حتى الرؤساء والملوك كانوا يتقربون إلى الرعية بالظهور في لباس المؤمن المتدين، ويبنون المعابد والمعاهد الدينية، ويقدسون العلماء، ويخضعون لأمرهم. وينفذون أحكامهم لا لشيء إلا لقوة الدين وعظيم منزلته في نفوس الجماهير.

ومن هنا انصرف العلماء القدامى إلى الجدال والنقاش فيما بينهم في مسائل جانبية أو اجتهادية لتحقيق مسألة فقهية أو قاعدة أصولية، فاعترض الشيخ الخراساني على الشيخ الانصاري، ونقض هذا قول القمي حيث لا دروين ولاماركس مثلا.

مهمة الدعاة في هذا العصر

أما اليوم، وقد اجتاحت المادية الجامحة كل شيء، وطغت على عقول أكثر الناس وقلوبهم، خاصة شباب الكليات والمعاهد بل والرجل العادي أيضاً، ليس كما كان من قبل في عقيدته وعبادته وإقباله على التضحية والموعظة الدينية، أما اليوم، وقد كاد الإسلام يعود غريباً كما بدأ، فعلى حماته الغيورين أن يسلكوا طريقاً جديداً في الدعوة إليه يتفق مع روح العصر والعقول التي يخاطبونها، فيلمّون أولاّ بالمذاهب المادية وفلسفتها، ويعرفون عيوبها ومساوئها كي يكون الحوار مع أنصارها الواثقين بها مجدياً وعلمياً لدى من يسمعه من أهل الوعي، يهدف إلى تمحيص الحقيقة ومعرفتها.

الأخلاق والتيارات المادية

ومن المؤسف أن الكثرة الكاثرة من أبناء الحوزة العلمية الدينية لا يعرفون شيئاً عن هذه التيارات، والبعض منهم لم يسمع بها على الإطلاق، وأهمها من حيث التأثير في الفكر المعاصر أربع فلسفات: الوجودية، والماركسية، والبرجماتية، والوضعية المنطقية، ولكل منها أساس تبتني عليه، وتنطلق منه، وهي على ما بينها من تفاوت تتفق على انه لا واقع ولا أصل ثابت للأخلاق والقيم.

لقد أعلنت هذه الفلسفات أو النزعات الحرب على الدين والأخلاق وكل ما يمتّ إلى الروح بسبب ــ لا لشيء إلا لأن إنسان هذا العصر أصبح قوياً في اسلحة الدمار الشامل ومصادر الإنتاج والثراء الهائل، ومن قبل قال المترفون الأغنياء: «من أشد منا قوة ــ ١٥ فصلت»، وقال سبحانه: **(ان الإنسان ليطغى أن رآه استغنى)** (٦ ــ العلق). أما قول أمير المؤمنين(ع): «إذا قويت فاقو على الحق، وإذا ضعفت فاضعف عن معصية الله» ــ فهو ــ على زعمهم ــ كلام فارغ.. وفيما يلي نثبت أن الأخلاق واقعية لا ذاتية، وبعد ذلك نشير إلى طائفة من تلك الفلسفات ونذكر حولها ما نراه من الملاحظات.

هل الأخلاق ذاتية؟

تقول هذه الفلسفات أو التيارات: أن الأخلاق ليست ذاتية، لأنها مجرد شعور يتسرب إلى الإنسان من التربية والمحيط دون أن يعتمد على شيء من الواقع، ومن هنا تنوعت القيم الأخلاقية تبعاً لاختلاف الأمم والشعوب والأزمنة والأمكنة، فما تراه أمة خيراً تراه ثانية شراً، وما يُعد في هذا الزمان مباحاً كان بالأمس مخطوراً.

الجواب:

ان الوجود من حيث هو نوعان: وجود عيني محسوس ومستقل في وجوده كالنيل والفرات، ووجود معنوي قائم في الأشياء الخارجية كالأبوة في الأبوين، والزوجية في الزوجين، والظلم في العدوان، والعدل في الحكم، ونحو ذلك.

والقيم الأخلاقية بكاملها هي من نوع الموجود المعنوي لا المادي العيني. وتوصف الأشياء الخارجية بالقيم الأخلاقية لأنها قائمة بها فعلاً وحقاً وواقعاً، فإذا قيل: الصدق خير، والكذب شر، والوفاء بالعهد واجب، والنكث به محرم ــ فالمعنى أن الخير كامن في الصدق والشر في الكذب، والوجوب قائم بالوفاء، والتحريم بالنكث تماماً كقيام العلم بالعالم والجهل بالجاهل والجود بالجواد والحرص بالبخيل، إلى غير ذلك من الصفات الثابتة الراسخة رسوخ الجبال.

وهذا الوجود الذي سميناه بالمعنوي يسميه المعلم الأول أرسطو بالقانون الطبيعي باعتباره ضرورياً لا مفر منه، وضرب له مثلاً بتعاون أفراد المجتمع حيث لا يستطيع واحد منهم أن يستقل بنفسه مستغنياً عن الخباز والقصاب والحذّاء وبائع أنواع السلع الضرورية، وقال ما نصه بالحرف الواحد: «وأي شخص لا يحتاج إلى غيره من الناس فهو إما إله وأما وحش». (انظر مجلة عالم الفكر المجلد الرابع العدد الثالث ص ١٦٣).

وأخذ النائيني هذا المعنى من أرسطو ــ فيما نظن ــ وطبقه على بعض الأحكام الوضعية كالملكية والزوجية المسببة عن العقد، وسمى ذلك بالأمور الاعتبارية ولكن أعطاها صفة الأحكام الطبيعية، وقال ما نصه بالحرف الواحد: «ما المانع ان تكون هذه الأمور في وعاء الاعتبار ويكون وجودها التكويني عين وجودها الاعتباري». (انظر فوائد الأصول للكاظمي ج ٤ ص ١٤١).

وجاء في الموسوعة الفلسفية المختصرة ص ١٢٦: أن الفيلسوف الهولندي جروتيوس قال ما معناه: إن المبادئ الأخلاقية طبيعية وحتمية بذاتها، والله سبحانه يأمر بها لأنها كذلك، ولا يمكن أن يجعل الله ما هو شر بذاته ليس شراً تماماً كما لا يمكن أن يجعل ضعف الاثنين ثلاثاً أو خمساً.

وفي كتاب المنطق الحديث للدكتور محمود قاسم ص ٣٣١: «قال دور كايم: ان المرء إذا أدى واجبه كأخ أو زوج أو مواطن، وانجز مواثيقه فانه يؤدي واجبات لا تنبع من شعوره الذاتي، بل تأتي من الخارج».

وفي ص ٣٠٩: «كانت الفكرة السائدة منذ عهد السفسطائيين ان القوانين الإنسانية نسبية تختلف باختلاف الشعوب حتى جاء منتسكيو وبيّن في كتابه روح القوانين أن الظواهر الإنسانية تشريعية كانت أم سياسية أم اقتصادية ــ تخضع لقوانين وقواعد ثابتة تقتضيها طبائع الأشياء».

ولا شيء أدل على أن المبادئ والقيم الإنسانية حقائق واقعية من أن الناس يتخذون منها مقاييس لأفعالهم ومعاملاتهم والتزاماتهم، ولفصل الخصومات والمنازعات فيما بينهم، بل الإيمان بها متغلغل في كل نفس حتى نفوس الجاحدين بها تقدس القيم الإنسانية من حيث لا يحس صاحبها ويشعر.

فقد جاء في موسوعة الفلسفة المختصرة ص ٤١١: «أن البير كامي ــ وهو وجوديّ ملحد ورفيق سارتر ــ ألف رواية الطاعون وتشع في هذه الرواية نغمات دينية خافتة لا مراء فيها، وإن يكن في ذلك من الغرابة ما فيه».

وأغرب منه أن يقول (كامي) وأضرابه: إن أحكام الأخلاق لا تعبر إلا عن عواطف المتكلم وشعوره، ثم يذهلون أن قولهم هذا بالذات اعترفا ــ بطريق أو بآخر ــ أنه لا واقع له، وإنما هو تعبير عن شعورهم وعواطفهم ولا يسوغ الحكم بالعاطفة على عاطفة ولا غيرها!. وهكذا يتخبط في الجهالة والضلالة كل من عاند الحق، ويناقض بنفسه من حيث لا يحس ويشعر، وصدق الله العلي العظيم: **(وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم)** (١٤ ــ النمل).

ولنفترض أنهم جحدوا بالقيم قلباً ولساناً، وأنه لا عين ولا أثر في أعماقهم للإيمان بها فإن عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود. أما اختلاف الأمم والشعوب في نظرتها إلى الخير والشر فقد تحدثنا عنه في فصل حول الأخلاق في فقرة بين الأخلاق والعادات، والآن نعطف على ما تقدم: أن الاخلاق في الوقائع والحقائق لا يغير منها شيئاً، فقد مضى على الناس حين من الدهر وهم يؤمنون بأن الأرض مسطحة، وأن الشمس تدور حولها ولا عكس وأيضاً كانوا يعتقدون أن العالم بكامله: العلوي منه والسفلي والقريب والبعيد مسخر للإنسان(٦) حتى جاء العلم وحررهم من هذا الجهل.

وما يدرينا أن يأتي يوم يتفق فيه الناس، كل الناس، على القيم الأخلاقية وغيرها من الحقائق تماماً كما اهتدوا إلى شكل الأرض وحركتها وكثير مما كشف عنه العلم الحديث.

وبعد الإجابة عن الإشكال الأول نعرض الإشكال الثاني، ويتلخص بأن الأخلاق يستحيل أن

تكون علماً بين العلوم لأن صفة العلم لا تصدق وتنطبق عليها بحال، وذلك لأن القضية العلمية لا تخلو من أحد فرضين: إما أن تكون رياضية تستمد صدقها ويقينها من لفظها الدال عليها بالذات ومن صلب تركيبها وتكوينها بحيث لا تحتاج إطلاقاً إلى الاختبار والتجربة لأنها ضرورية الصدق ولا يمكن أن تكون كاذبة مثل (٢×٢=٤) حيث يكون القول (٤) تكراراً للقول (٢×٢) تماماً كالأرض أرض والسماء سماء، ومن هنا سميت القضية الرياضية قبلية لأن العلم بها سابق وليس بلاحق وتحصيلٌ للحاصل، ولا جديد مفيد.

وإما أن تكون القضية العلمية إخبارية تحتمل الصدق والكذب، ويستحيل أن تكون ضرورية الصدق وإلا لم تكن اخبارية مثل الماء مركب من عنصرين هما الأوكسيجين والهيدروجين، وهنا يمكن التحقّق والتثبت من صدق الخبر أو كذبه، بالخبرة والتجربة، ولذا سميت هذه القضية وأمثالها بالبعدية (أي أن العلم بصدقها أو كذبها يحصل بعد الاختبار والامتحان لا قبله).

وأية قضية لا تكون إخبارية بعدية أو رياضية قبلية فما هي من المعرفة العلمية في شيء، وإنما هي كلام مهمل وفارغ من المعنى، لا يوصف بكذب ولا خطأ حيث لا موضوع اطلاقاً يقبل الامتحان والتحقق من الكذب أو الصدق مثل جنية البحر سمراء والعنقاء طائر طويل بعد الفرض بانهما مجهولان بالعين والأثر.

والقضايا الأخلاقية ليست إخبارية يمكن التحقق من صدقها أو كذبها كالقضايا الطبيعية، وأيضاً بناؤها وتكوينها اللفظي لا يدل على صدقها بالضرورة كما هو الشأن في القضية الرياضية، وإنما هي (أي القضايا الأخلاقية) معيارية محض، تضع للناس ما ينبغي أن يفعلوا ويتركوا، وترسم لهم طريق السلوك في المستقبل القريب والبعيد، وبهذا تخرج عن نطاق العلم الموضوعي، وتدخل في عالم الشعور الذاتي والرغبات والآمال التي لا ضابط لها ولا مقياس، فكيف تكون علماً؟.

وأجاب عن ذلك الفيلسوف الشهير «كانت» بأنه لا فرق بين القضية الرياضية القبلية والقضية الطبيعية الإخبارية من حيث أن كلا منهما مضمونها الإخبار، فمن قال: ٢×٢=٤ فهو يخبر بأن ضم عدد ٢ إلى مثله ينتج (٤) والفارق أن القضية الرياضية ضرورية الصدق ومعرفتنا بها قبلية لا تفتقر إلى الاختبار والامتحان على العكس من القضية الطبيعية البعدية التي تستدعي مراجعة الواقع الخارجي في صدقها أو كذبها. (انظر كتاب نحو فلسفة علمية لزكي نجيب ص ١٧).

وعلى فرض صحة هذا الجواب في نفسه فانه لا يصدق على مبادئ الأخلاق بكاملها لأنها ليست كقضايا الرياضيات في البداهة والوضوح وإلا كانت من المسلمات الأولية عند الجميع لا شك فيها ولا نزاع مع العلم بأن الخلاف حولها قائم ولم يقعد.

والحق في الجواب ــ كما نرى ــ أن القيم الأخلاقية ثابتة ومستقرة في الفعل والسلوك الخارجي كما بينا في الجواب عن الإشكال الأول، فالدفاع عن الوطن وخدمته لذات الوطن، والانتصار للمظلوم لأنه مظلوم ــ كل ذلك مما لا تتم الحياة ولا تستقيم إلا به ــ يحتوي على الخير والفضيلة حقاً وواقعاً تماماً كما تحتوي حياة الأمن والصحة والدعة على السعادة والهناء، قال سبحانه: ((فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ــ ((الزلزلة)). ومعنى هذا أن الشر والخير قائمان في قلب الفعل وصميمه لا في ذات الفاعل وعاطفته أو في تفكيره وعقيدته، وأنهما ثابتان حتى ولو ذهل الناس عنهما، أو رأوا الخير شراً والشر خيراً تماماً كما لو رأوا العلم جهلاً، والجهل علماً.

وعلى ثبوت المبادئ الأخلاقية ورسوخها في دنيا الواقع، قام النظام الاخلاقي الذي يوجب على المرء أن يوافق بين سلوكه وافعاله من جهة وبين النظام الأخلاقي من جهة ثانية حيث لا يكمل الإنسان إلا بهذا التوافق والتطابق، وعليه فإذا أردنا أن نعرف أن هذا السلوك هل هو خير أو شر، أخلاقي أو غير اخلاقي؟ اختبرناه وقسناه بتلك المبادئ المقررة في النظام فإن تم الاتساق والانسجام بينهما فهو اخلاقي وإلا فما هو من الأخلاق في شيء.

وبهذا يتبين معنا أن القضايا الاخلاقية إخبارية تركيبية بعدية لا رياضية تحليلية قبلية، وزيادةً في التوضيح نذكر هذه العبارة التي جاءت في كتاب الفلسفة بنظرة عملية لرسل ص ١٩٦: ((وألخص مذهبي في الأخلاق بعبارة واحدة هي أن الحياة الخيرية هي حياة يوحي بها الحب، وتهديها المعرفة)).

ومعنى هذا أن الحب موجود، والمعرفة ثابتة تماماً كوجود الأعيان الطبيعية وثبوتها، وأن أفعالنا إن انسجمت مع الحب والمعرفة وجاءت على وفقهما فهي خير، وإلا فشر.. وهذا عين الذي نؤمن ونلتزم به، وندعو إليه، وإياه عنى نبي الرحمة والإنسانية(ص) بقوله: (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

وبعد التمهيد بما أسلفنا نعرض فيما يأتي على وجه العموم كلاً من الوجودية والوضعية المنطقية والبرجماتية وطبيعة الإنسان في الماركسية ــ في فقرة خاصة ونردها بالعقل والمنطق، ونبدأ بالوجودية لأنها الأكثر سيطرة على أفكار الناشئة ــ كما لاحظنا ــ ونذكر

اولاً جملة من أقوال روادها واقطابها بقصد التيسير والتسهيل على الفهم والعلم بالوجودية على حقيقتها.

جاء في كتاب سارتر مفكراً وإنساناً ص ١٨ أنه قال: «أنا لست معنياً بالله، أنا معنيّ بالإنسان» لأن الناس بزعمه هم الذين خلقوا (فكرة) الله وليس هو الذي خلقهم كما جاء في مسرحية الله والشيطان (أنظر مجلة عالم الفكر العدد الأول من المجلد الأول) بل الناس خلعوا أيضاً المعنى والنظام على العالم والكون وإلا فهو لغو وعبث كما جاء في الموسوعة الفلسفية المختصرة ص ١٧٦، وعلى مبدأ سارتر ومنطقه هذا يسوغ لنا أن نقول له: وايضاً انت وأمثالك خلقتم الوجودية وابتدعتموها وإلا لم يكن لها عين ولا أثر.

وفي ص ٣٣ من الكتاب المذكور قال سارتر: «الإنسان ليس سوى ما يصنعه من نفسه.. لقد كتب ديستوفسكي: إذا كان الله غير موجود فإن كل شيء سيكون مباحاً، وهذا بالنسبة إلى الوجودية هو نقطة الانطلاق» أي أن الوجودية تؤمن بأن كل شيء مباح، وترفض كل القيم سماوية كانت أم أرضية، ولا شيء على الاطلاق إلا حرية الفرد!. وهذه العبارة تدل دلالة واضحة على أساس الوجودية واخلاقها.

ونشرت مجلة عالم الفكر في أول عدد صدر منها مقالاً مطولاً عن الوجودية بعنوان أمراض الفكر في القرن العشرين، جاء فيه أن البير كامي، وهو قطب وجودي قال: إن الحياة لا معنى لها ولا تستحق أن تُعاش، وعليه فالانتحار أمر طبيعي معقول ومقبول.

بين ديكارت وسارتر

بين ديكارت وسارتر بُعد المشرقين، فالأول فيلسوف كبير. وكثيراً ما يطلقون عليه لقب أبي الفلسفة الحديثة، وعالم طبيعي ورياضي أيضاً، والثاني أديب ناقد ومجدد في عالمه، وأيضاً ألف كتاب الوجود والعدم في الفلسفة، وإذن فلا قاسم مشترك يبرر المقارنة بين الاثنين، وأي عاقل يقول: هذا في الطب أفضل من ذاك في الهندسة؟. ويُعرف الهدف من ذكرنا للاسمين معاً مما يلي:

جاء في كتاب سارتر مفكراً وإنساناً ص ٣٠ وما بعدها أنه قال: «نقطة انطلاقنا هي ذاتية الفرد.. ولا توجد حقيقة أخرى سوى هذه الحقيقة: «أنا أفكر إذن أنا موجود». وتسمى هذه الصيغة عادة بالكوجيتو، ومن المعلوم ان هذه الكلمة لديكارت، وقد استعارها سارتر للتعبير بها عن مذهبه، مع الفارق البعيد بين الهدف الذي رمى إليه ديكارت أنه يستطيع أن يشك

في الحس وان له بدناً، لكنه لا يستطيع أن يشك في بديهية العقل وانه موجود طالما هو يفكر، وعلى هذا النحو أثبت وجوده باعتباره مفكراً لا باعتباره جسماً، ثم انتقل ديكارت من هذه النقطة إلى ثانية، إلى وجود الله تعالى.

ويتفق هذا تماماً مع قول الإمام أمير المؤمنين(ع) في الحكمة ٢٨١ من حكم النهج: «ليست الرؤية كالمعاينة مع الأبصار، فقد تكذب العيون، ولا يغش العقل من استنصحه».

أما سارتر فقد أراد من هذه الصيغة أن يحدد بها مذهبه وفلسفته، وأنها أنانية أحدية، وغنية في سلطانها وجبروتها عن المبدع والخالق، تنفذ مشيئتها في نفسها، ولا تنفذ فيها أية مشيئة عقيدة كانت أو نظاما أو شريعة سماوية أو أرضية.. أبداً لا شيء إلا (الأنا) وحدها لا شريك لها!. وقال قطب آخر من الطائفة الوجودية ما نصه بالحرف الواحد: «إنك تلغيني إذا وضعتني في نظام أو مذهب».

الهوامش:

(١) نحن الآن في سنة ١٩٧٧.

(٢) والثاني تجارب محمد جواد مغنيه بقلمه والثالث صفحات لوقت الفراغ.

(٣) قالوا: العلوم المعيارة ثلاثة: الاخلاق وتبحث عن قيمة الخير، والجمال ويبحث عن قيمة الجميل، والمنطق ويبحث في قيمة الحق.

(٤) يقول نيتشه: العالم ضرورة حمقاء لأنه بلا عقل وضمير!. أما ماركس فيعترف بالعقل والضمير، ولكن يعتبرهما من ثمرات المادة وافرازها، وهو بالنتيجة يلتقي مع نيتشه.

وأخيراً فإن فلاسفة المادة والإلحاد حاولوا هدم الدين بكل سبيل حتى بلغت بهم الحال أن يجحدوا عقلية العقل ونداء الضمير، وهما جوهر إنسانية الإنسان وركنها الركين. وانهم بهذا التفكير والتصرف يريدون القضاء على وجود الإنسان لا على الدين وكفى، وأي عاقل يصغي لهذه الفلسفة الواهية؟ كيف وهو مطبوع على حب الحياة وجمالها بالخير والأخوة والإنسانية، وكمالها بالحق والعدل والحرية؟.

(٥) أما سقراط فقد أخضع الأخلاق لنظرية المعرفة، وربط بين العلم بالفضيلة والعمل بها، وبين العلم بالرذيلة وتركها، وهذا الربط يخالف البديهة والعيان، فكم من عالم اتخذ من علمه أداة للصوصية.!

(٦) قال سبحانه: (وسخر لكم ما في السموات والأرض جميعاً) الجاثية: ١٥ وجميعاً هنا تشمل ما تناله قدر الإنسان وطاقاته دون غيره بحكم الواقع والبديهة.

الوجوديون وكلمة الوجود

إذا أردنا معرفة الوجودية الملحدة(١) على وجهها وفي صورتها الكاملة ــ فلا بد أن نعرف أولاً ماذا أراد الوجوديون بكلمة الوجود التي هي المصدر لكلمة الوجودية.

ومن الواضح أن الوجود في اللغة خلاف العدم، والوجودي خلاف العدمي، ولكن هذا المعنى على عمومه غير مراد لهذه الطائفة الوجودية، وأنما أرادوا بالوجود خصوص الوجود الإنساني و (الأنا) وأيضاً ليس المراد بالوجود الإنساني عندهم وجود هذا الجسم كما نراه وكفى، بل المراد وجود ما يفعله الإنسان عن وعي منه وحرية وإرادة، وغير مفروض عليه من الخارج تكويناً ولا تشريعاً بحيث يكون الإنسان بنفسه فاعل الفعل والواضع والمشرع لحكمه في آن واحد.

وبأسلوب آخر أن الإنسان لا يكون ولن يكون موجوداً بحق إلا أن يعرف ويفكر، وتفيض أفعاله من ذاته، من وعيه وحريته وارادته وحده لا شريك له منسلخاً عن كل عرف ودين وعقل ــ غير عقله ــ وبهذا دون سواه يحقق وجوده وماهيته وصفاته كإنسان وإلا فهو بالحشرة أشبه حتى ولو ملأ الدنيا بناءً وأفعالاً طالما كان ذلك بدافع من خارجه لا من اعماقه (انظر كتاب سارتر مفكراً وإنساناً ص ٤٥ ومجلة عالم الفكر العدد الأول من المجلد الأول مقال أمراض الفكر في القرن العشرين).

معنى الوجودية

والآن، وبعد أن مهدنا بطائفة من أقوال الوجوديين، واستضأنا بها على ما يدينون، نعرض ما ترتكز وتقوم عليه فلسفتهم فيما يلي:

١ ــ ان كل فرد من الإنسان هو أمة في نفسه وعالم برأسه.. ولماذا؟ لأن الصدف قذفت به في هذا الوجود، وتركته في خضم من الطوفان أو كريشة في مهب الريح، لا شيء ينجده ويهديه إلا نفسه وحدها.. وكل ما حوله ويحيط به من أديان ومذاهب وأنظمة وشرائع وآداب وفلسفات ــ إن هي إلا وهم وخيال وعدم وفراغ، وعليه ــ وهذي هي الحال ــ أن يصنع نفسه من خلال فعله كمشرع ومنفذ غني عن كل نصح وهداية متحرر من كل تبعة ومسئولية.. أبداً لا يُسأل عما يفعل لأنه هو المالك لذاته والرقيب عليها وحده لا شريك له.

وبكلمة أن الفرد لا يكون إنساناً بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة إلا إذا انطلق في أفعاله من

أصل وجوده وأنانيته لا يستوحي ولا يستعين بشيء من خارجه على الاطلاق، فإذا عمل بدافع من الخارج فقد انتقل من وجوده الواقعي إلى عالم الوهم والخيال.

٢ ــ يرفض الوجوديون فكرة الماهية والطبيعة القبلية للإنسان، وهي التي أشار إليها ابن سينا بقوله: ((هبطت اليك من المحل الأرفع)) وديكارت بكلمته الشهيرة: ((أنا أفكر إذن أنا موجود)) حيث اعتبر التفكير ممكناً من غير أداة وجعله أصلاً والجسم فرعاً، والكثير من مؤمني الفلاسفة يشاركون الوجوديين في هذا الرفض، ولكن يختلفون معهم في تحديد ماهية الإنسان، فغير الوجوديين من الفلاسفة يرون الحرية صفة للنفس ومظهراً من مظاهرها، أما الوجوديون ــ كما يبدو من ظاهر كلامهم ــ فيحصرون الماهية بالحرية المطلقة من كل قيد إلا الحرص على حرية الآخرين لأن اطلاق الحرية واستبداد الإرادة يؤدي حتماً في النهاية إلى تحطيم حرية الجميع من الأساس.. اللهم إلا حرية الأقوياء وارادتهم، وعندئذ تسود شريعة نيتشه والغاب.

والشاهد على حصر ماهية الإنسان بحريته ما جاء في كتاب سارتر مفكراً وإنساناً ص ٢٢٥ بلسان أحد أقطاب الوجوديين: ((إن وجودنا يسبق ماهيتنا، وماهيتنا هي ذاتنا، وذاتنا هي ما نصنعه بمحض حريتنا، وحريتنا ملتزمة، والتزامنا يتحدد في أن حريتنا حين تختار انما تختار أيضاً حرية الآخرين)). ونحن نفهم من هذا الكلام وسياقه بقرينة (هي) أن ماهية الإنسان تنحصر بحريته في أن يفعل ما يشاء غير مسئول عن شيء إلى عن الاعتداء على غيره!.

وفي ص ١٧٢ من الكتاب المذكور (ليس الإنسان عند سارتر حراً فحسب. بل هو أيضاً الحرية). وفي مجلة عالم الفكر العدد الأول من المجلد الأول ص ٩ قال سارتر: ((ان الحرية هي تعريف الإنسان)).

ولسارتر كلمة هتف لها وهنأه عليه العديد من الكتّاب وهي ((لسنا أحراراً في أن لا نكون أحراراً)) وعلى أساسها بنى سارتر حكمه بأن الوجودية فلسفة إنسانية.

الوجودية فلسفة إباحية

ونحن لا نشك في أن لا إنسانية بلا حرية، ولكن نتساءل: هل الهدف من الحرية أن يكون للإنسان القدرة على تنفيذ ما يراه أحسن وأصلح له ولغيره، ويتحمل المسئولية كإنسان مستقل وعاقل، أو أن الهدف من الحرية أن يسترسل المرء مع سفهه وأهوائه يُفسد ويفجر،

ويخون ويمكر، ثم يبرر مفاسده وآثامه بقوله: (أنا حر) ويكون قوله هذا حجة كافية ومعذرة وافية؟ ثم هل وجد الإنسان ليعيش ويحيا فوضوياً بلا تنظيم ونظام ولا إلزام والتزام؟ وإذن ما الفرق بينه وبين وحش الغاب؟ وهل في الكون مجتمع بغير قانون؟ وإذا كان الشيوعيون قد أمموا وسائل الانتاج جبراً لفقر البائسين كما يزعمون، فهل أمّم الوجوديون الأديان والشرائع والآداب والأخلاق ليبرروا فوضى (الخنافس والهيبيين) وشذوذهم وفساد الأشقياء وإجرامهم؟.

وليس هذا التساؤل تحاملاً أو تهكماً أو خيالاً، بل تفسيراً لقول سارتر: «ان خير الإنسانية هو ما يراه الإنسان أنه خيرها، فإذا رأى أن الخير الإنساني يكمن في الانضمام إلى الكاثوليكية فهو صحيح من الناحية الوجودية المنطقية، وإذا رأى العكس فهو صحيح كذلك». إن كل ما تطلبه منا الأخلاق الوجودية عند سارتر هو أن نقرر فحسب ــ أنظر كتاب سارتر مفكراً وإنساناً ص ٢٢٥ وما بعدها.

والذي نفهمه من هذا الكلام أنه لا حق ولا عدل ولا خير على الإطلاق إلا ما يراه الإنسان الفرد ويريده، فإن أراد هذا الشيء بالذات فهو صحيح، وإن كرهه فهو فاسد لا لشيء إلا لأنه أحب أو كره، فإن عدل عما كان قد أحب بالأمس وكرهه الآن يصبح الصحيح فاسداً، أو ما كره يصير الطالح صالحاً!. فالمقياس هو المشيئة والإرادة ولا شيء سواها حتى ولو كانت بلا عقل وعلم!. هذا هو الابتكار والإبداع!.

ولا كلام بعد هذا الكلام إلا أن يقال: أن الوجودية فلسفة إباحية شيطانية لأن الشيطان قد تعهد بتزيينها وترويجها، فتقتحم قلوب الشباب المتفسخ المتمزق بلا استئذان ومن غير عسر وحرج حيث الجاذبية في الشهوات والملذات أقوى منها في أي شيء آخر، قال الإمام أمير المؤمنين(ع): «الحق ثقيل مريء، والباطل خفيف وبيء».

وأيضاً قال سارتر في كتاب الوجود والعدم ما معناه أن الإنسان يبرر كل فعل يقدم عليه، أو يحجم عنه، فإذا أراد الانتحار صاغ كلاماً منمقاً يحتمه ويوجبه، ونفس الشيء إذا حرص على حياته.. وقد يدمن على الخمر والقمار فيخلق لنفسه الأعذار، فإذا أقلع عنهما جمع عشرات الأدلة على خير ما صنع، وإذا عاد اليهما كما كان وزيادة ألبس الأدلة ثوباً جديداً يبرر العودة والأوبة!.

ونحن نقول لسارتر: فمن فمك ندينك. فإذا كانت أفعال الناس وأقوالهم مجرد تصورات ذهنية وايحاءات ذاتية لا تمتّ بسبب إلى الواقع فكذا فلسفة الوجودية ضلال وخيال لا أصل

لها في الواقع ولا اساس.. والحق أن الوجودية ليست فلسفة أو علماً أو مجموعة من المبادئ تهدف إلى معقول، وانما هي شطحة أو غلطة أو نزعة أو حيرة وما أشبه، والوصف الأخير بها أجدر وأليق لأنها ترى الكون بما فيه ومن فيه غربة وغثياناً ولغواً وعبثاً لا معقولاً!.

بين الإسلام والوجودية

والإسلام يلتقي مع الوجوديين في قولهم: ليس للإنسان إلا ما سعى كما نصت الآية ٤١ من النجم، وفي تحرره من التقليد الأعمى كما جاء في الآية ١٧٠ من البقرة، وفي أنه حر مخير حتى في الدين والمذهب، ويقول القرآن في ذلك: **(لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي)** (٢٥٦ ــ البقرة).. (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ــ ٢٩) أي أن الله، تقدست حكمته، لا يلجئ أحداً ويقهره على الإيمان به أو الكفر، بل يهديه النجدين، ويترك الخيار له. وأيضاً يُحتّم الإسلام على كل امرئ أن يحرص على حرية الآخرين تماماً كما يحرص على حريته بالذات: **(ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين)** (١٩٠ البقرة).

ويبتعد الإسلام عن الوجودية كل البعد في الفوضى والاباحية، وعدم الاكتراث بالخير والحق، وفي ترك الإنسان يسترسل مع أهوائه يعيث شراً وفساداً في الأرض كما يشاء بلا رادع وزاجر، ولا سؤال وجواب.

قال سبحانه: **(أيحسب الإنسان أن يترك سدى)** (٢٦ ــ القيامة). وقال: **(وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يُرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى)** (٤١ ــ النجم) وفي هذه الآية على ايجازها ثلاثة مبادئ أساسية في الشرع والنظام الإسلامي: الأول أن الإنسان رهن

بأعماله. الثاني أن عليه رقيب وحفيظ لا يغفل عنه. الثالث أنه مجزي بما أسلف وقادم على ما قدم لا محالة.

الوضعية المنطقية

المراد بالوضعية النظرة العلمية آخذاً من الموضوع المستقل في وجوده عن شعور الإنسان، أما المنطقية فنسبة إلى المنطق، ومعنى الكلمتين مجتمعتين النظرة العلمية في المنطق، ويكون المراد المنطق التطبيقي دون الصوري(٢). قال الدكتور زكي نجيب محمود في (كتاب نحو فلسفة عملية ص ٣٠): «لما كان وضع الأمور في عالم الواقع هو وحده مجال

البحث العلمي، أطلق على النظرة العلمية اسم الوضعية، فإن كان الوضع القائم الذي يشغل الباحث عبارة من عبارات اللغة أو لفظة من ألفاظها كانت الوضعية في هذه الحال وضعية منطقية، ومن ثم كان هذا الإسم: الوضعية المنطقية مميزاً لطائفة من أصحاب يصوغ فيها سائر العلماء علومهم على اختلاف موضوعاتها)).

ومعنى هذا الكلام أن العلم، أي علم، لا بد وأن يكون موضوعه شيئاً يمكن أن يدرك إدراكاً حسياً بحيث يُرى بالعين، ويُلمس باليد، وعليه فكلمة نظرية علمية لا تطلق إلا على قضية

تُعبر عن شيء مشاهد ومحسوس في العالم الخارجي وإلا فهي عبث لا طائل تحته، ولا شأن للمنطق والعلم به من قريب أو بعيد.

أما كلمة الوضعية المنطقية فتطلق على المنطق الصحيح السليم الذي يقسم الكلام إلى نوعين: أحدهما يوصف بالخطأ أو الكذب، أو بالصواب والصدق، وهو ما كان له معنى في الخارج يمكن التثبت من صدقه أو كذبه بالحس كقول القائل: الشمس طالعة حيث ينظر فإن رأيناها فالقول صادق وإلا فهو كاذب.

وثاني النوعين من الكلام يوصف بالكلام الفارغ الهاذر حيث لا يحمل أي معنى على الإطلاق مثل النفس خالدة، ومثل الماهية الكلية، فأين النفس والماهية والخلود حتى نتثبت من صواب هذا الكلام أو خطئه، وهل من المستطاع أن نشاهد معناه؟ ومن هنا لا يوصف بالكذب حيث لا يمكن أن يوصف بالصدق تماماً كما لا يوصف الحجر بعدم النطق، وبكلمة لا يكون الكلام كاذباً إلا حيث يمكن أن يكون صادقاً. وبأسلوب آخر إن علماء الطبيعة يكتفون بتسجيل ما يرون فيها ويشاهدون، وهكذا الفلسفة الوضعية ينبغي أن تحلل الألفاظ، ثم تُسجل وتُعلن أن أية عبارة لا تحكي عن معنى في عالم المادة فهي لغو وعبث.

والقيم الأخلاقية من هذا النوع لأنها ليست مادية يمكن أن تدرك بالحس، وكذلك القيم الدينية.

الجواب:

١ ــ لا هدف للوضعية المنطقية أو الفلسفة التحليلية إلا القضاء على الدين والأخلاق واعلان الحرب على كل ما يمتّ إلى الإنسانية بسبب حيث لا شيء من قيمها كالعدل والاحسان يدرك بالحس. ولا أدري كيف يعيش الناس بلا وجدان وإنسانية في سلوكهم!. وهل بديل عن الأخلاق تستقيم معه الحياة؟ وما هو هذا البديل؟ واين نجده؟ في الصهيونية

أو الرأسمالية الفاشية أو الانبريالية أو الاشتراكية التي تحاسب الفرد وتعاقبه على حريته في التعبير عن نفسه وآرائه، أو غير ذلك من الفلسفات والنزعات الحديثة التي تبث السموم في النفوس، وتغرس فيها أخطر العادات وأقبحها؟.

٢ ــ ان حقائق الكون بما فيه ومن فيه على أنواع في طبائعها وصفاتها، وليست كلها من نوع واحد نستطيع إدراكه بالحس وإلا كان الإنسان في غنى عن العقل والحقائق العقلية، والبحث عن الحق والباطل والخير والشر والكامل والناقص، ومعنى هذا ــ لو تم ــ أن أي جهد يبذله الإنسان لمعرفة شيء من العالم المجهول فهو سفه وحماقة لأن جهده لا يؤدي به إلى شيء!. وأيضاً معنى هذا أن الإنسان والحيوان بمنزلة سواء.

ان الموجود على نوعين: ظاهر وباطن، والأول يدرك بالحس مباشرة كالحجر والشجر، والثاني يدرك بأفعاله وآثاره كالجاذبية والمغناطيس والعقل وغيره من ملكات النفس، وهذا تماماً كالأول في وجوده ورسوخه. قال اينشتين: «من الخطأ أن نعطي الأولية للتجربة الحسية.. فهناك عالم موضوعي وحقيقي وراء حواسنا»(٣) وفي كتاب المنطق للدكتور صليبا ص ٣٩٥ ما نصه:

«من الخطأ الظن أن ما لا يقع تحت الحس الظاهر لا حقيقة له. قال (جوفروا): ان نجاح العلوم الطبيعية في هذه السنوات جعلنا نعتمد على الرأي القائل: أن لا وجود للحوادث إلا إذا وقعت

تحت حواسنا.. ولكننا لا نسلم أبداً بأن الحقيقة محصورة فيما يقع تحت الحواس من الحوادث. إننا نعتقد أن هناك حوادث من طبيعة أخرى لا تُرى بالعين، ولا تلمس باليد، ولا يكشف عنها المجهر والمبضع، ولا تدرك بالشم أو بالذوق، ولا تسمع بالأذن، بل نشعر بها مع ذلك شعوراً يقينياً، وهذه الحوادث هي الحوادث النفسية من احساسات وفكر وذكريات وعواطف وتهيجات ورغبات وأحكام».

ونعطف على قول هذا الفيلسوف فنقول لو حصرنا المعرفة بالمادة فقط لحجرنا على العقل أن يفكر في أي شيء سواها، ولم يكن للعلوم النفسية والإنسانية ومؤلفات العقل أيّ شأن ووزن مع أن المعرفة أوسع نطاقاً من العلم بمعناه الجديد، بل من صميم العلم أن يفكر الإنسان في مصدر وجوده وفي مصيره، وماذا ينبغي أن يغفل ويترك، وأن يمهد الطريق لتغيير ما يجب تغييره من نفسه ومحيطه.

٣ ــ إن أخص خصائص العلم الغاء كل ما هو جزئي وخاص. وابقاء ما هو عام، ومعنى هذا أن قضايا العلوم تتجاوز حدود الحس إلى العقل لأن الحس مقصور على ما هو خاص فقط، فإذا حصرنا طريق المعرفة بالحس وحده انسد باب العلوم بالكامل، وكان طلب أي علم كان، محاولة للمحال! ومن هنا قال كل العلماء مع أرسطو: العلم بالفرد ليس علماً، ولا علم إلا بالكليات.

وبعد، فإن الكون يزخر بالحقائق الخفية التي لا تُرى بالعين ذات الطاقة المحدودة، وما من عاقل على وجه الأرض إلا ويؤمن بالعديد من الحقائق، بل ويرى الإيمان بها من الضرورات والمسلمات الأولية.

وكلمة أخيرة نرد بها على الوضعيين المناطقة القائلين بأن الأخلاق نسبية لا واقعية، وهي يجب ــ على منطقهم ــ أن لا يوجد في الدنيا صالح وفاضل حقاً وواقعاً حتى ولو ملأ الأرض قسطا وعدلاً، وخيراً وأمناً، وجعل الناس كلهم قلباً واحداً ويداً واحدة، وقضى على الجهل والمرض والفقر، وأيضاً يجب أن لا يوجد شرير وفاسد حتى ولو سعى في الأرض فساداً، وأهلك الحرث والنسل، لأن الخير والفضيلة والشر والرذيلة كلام فارغ من المعنى!. ولا كلام إطلاقاً بعد هذه الثرثرة والغرغرة.

البرجماتية

البرجماتية في أساسها مذهب أو نزعة عملية تقيس كل فكرة وعقيدة بالمنفعة الشخصية وبخاصة المال، فلا علم وصواب ولا دين وأخلاق ولا خير وعدل إلا ما يجلب للإنسان نفعاً خاصاً أو يدفع عنه ضراً. وزعماء هذه النزعة ثلاثة: شيلر وديوي ووليم جيمس، كما في كتاب مدخل جديد إلى الفلسفة لعبد الرحمن بدوي والموسوعة الفلسفية المختصرة، وفي ص ٣٠٥ من هذه الموسوعة ما نصه:

((فالأفكار عند البرجماتيين ما هي إلا أدوات تحاول البشرية بواسطتها أن تنجز ما تصبو إليه من غايات، كما أنه يجب أن يحكم عليها بمدى كفايتها في خدمة هذه الغايات، وعلى ذلك فالعقائد بمثابة أدوات نعالج بها الخبرة، ويجب أن نحكم عليها على هذا الأساس، ومن ثم فقد أصبحت البرجماتية اسماً لأي موقف يؤكد أهمية النتائج من حيث أنها اختيار لصلاحية الأفكار)).

ومعنى هذه العبارة أن الفكرة أو العقيدة مهما كانت أو تكون، لا تُعبر عن الحق والواقع إلا

إذا أدت إلى المنفعة التي يتوخاها ويهدف اليها المفكر والمعتقد وإلا فهي سراب ويباب تماماً كالخريطة التي لا تهدي السائل الضال عن الطريق ــ إلى مقصده وغايته لأن خطوطها رسمت عبثاً وعلى غير هداية وبصيرة.

وفي كتاب منطق البرهان ص ٣٣٧ نقلاً عن كتاب إرادة الاعتقاد لوليم جيمس: ((ان الحق في مذهب البرجماتيين ليس إلا ما أعتقده أنا أنه حق، والمعتقد عندهم إرادة تحقق الرغبات الشخصية)).

الجواب:

١ ــ لو ربطنا الحق بالرغبة والإرادة لكان الحق يدور مدار الأهواء الشخصية والمنافع الذاتية وجوداً وعدماً، ومعنى هذا أن كل إنسان يمثل معياراً خاصاً للحق، وأيضاً معنى هذا أن تسود الفوضى وشريعة الغاب، وأنه لا منطق وعدل ولا نظام وحرام.

٢ ــ ان العالم حقاً وواقعاً يتجه أولاً ــ وقبل كل شيء ــ إلى الكشف عن الواقع ومعرفة الحقيقة، أما البرجماتي فكل همه واهتمامه الغنيمة والمنفعة الذاتية ولو على حساب الآخرين تماماً كاللص وقاطع الطريق.

٣ ــ وأخيراً ينبغي ــ على منطق البرجماتيين ــ أن لا نطلق كلمة علم على من درس وأتقن علماً من العلوم إلا إذا ظهر له أثر محسوس وملموس.. وإن قال قائل: إن البرجماتية لا تربط معنى الافكار بالنتائج العملية، بل تربط صدق القضية بما تحققه من نتائج ــ قلنا في جوابه : إن الإشكال ما زال قائماً لأن كل القضايا العلمية المدونة في الكتب هي نظرية لا عملية، وقد لا يكون لها نتائج عملية على الإطلاق.

وبعد، فنحن لا نشك أن العلم وسيلة للعمل، وكذلك الإيمان وسيلة لصالح الأعمال، ومن هنا قرن سبحانه الإيمان بالعمل الصالح في العديد من الآيات معطوفة على قوله تعالى: **(فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض)** (١٧ ــ الرعد) وقوله: (فاستبقوا الخيرات.. وسارعوا في الخيرات) إلى عشرات الآيات. فليس المراد بالنفع والخير هنا مجرد اللذة ودفع الألم ولا الجاه والمال، بل المراد كل ما فيه صلاح بجهة من الجهات سواء أكان الصلاح عاماً أم خاصاً، شريطة أن لا يكون على حساب الآخرين.

الماركسية والطبيعة البشرية

تناولت الماركسية في بحوثها الطبيعة وما وراءها، وعالجت مشكلات الاقتصاد والسياسة والتاريخ والفلسفة، وتحدثت عن ماهية الإنسان وغيرها.. ونشير هنا إلى تعريف الإنسان ومفهومه عند الماركسيين مقتصرين على هذه الإشارة، لأن الإنسان هو المنظور إليه بالأخلاق، والمقصود الوحيد فيما ينبغي أن يفعل أو يترك بإرادته واختياره.

والمشهور عن الماركسية القول ــ على وجه العموم ــ بأنه لا واقع إلا المادة، وأنه لا خير إلا الإنتاج، وأنه لا عدل، إلا في دكتاتورية البروليتاريا الثورية، أما الإنسان فهو من نتاج الطبيعة وجزء لا يتجزأ منها، ويصدق على طبيعته ما يصدق على الأشياء المادية التي تتبدل من حال إلى حال آخر.. حتى عقل الإنسان واراته وجميع ما فيه من غرائز وملكات هي من عوارض المادة وظواهرها.. وإذا كان الإنسان بالكامل مادة في مادة فقيمه بكاملها مادية أيضاً، ولا مكان فيه للمثل والقيمة الدينية والأخلاقية. وجاء في الموسوعة الفلسفية المختصرة ص ٢٨٩ ما نصه بالحرف:

«يعتقد ماركس أن الإنسان شيء في الطبيعة وكتلة ذات ثلاثة أبعاد من لحم ودم وعظم... تنطبق عليها قوانين الطبيعة التي اكتشفتها العلوم كما تنطبق على غيره من الأشياء المادية الأخرى، وقد أنكر ماركس وجود روح لا مادية ووجود جواهر روحية من أي نوع، وبالتالي أنكر وجود الله، واعتبر اللاهوت والميتافيزيقا أنسجة من الأكاذيب».

وحول هذا الكلام نتساءل: إذا كان عقل الإنسان وفهمه ومشيئته مادة أو من ثمارها، وكان حبه للحق والخير وعفته ونزاهته وتواضعه وتسامحه واخلاصه وتعاونه مادة، وأيضاً إذا كان الإبداع والاختراع والمبادئ والنظريات والصعود إلى القمر ووضع السفينة على المريخ تتحدث عنه وعن صفاته مع أهل الأرض، إذا كان كل ذلك وفوق ذلك من صنع المادة في الإنسان وكفى، فكيف؟ ومن أين جاءته هذه الخصائص والمميزات عن غيره من الكائنات المادية؟ وهل في الإنسان عناصر مادية لا توجد في غيره؟. لقد حلل علماء الطبيعة جسم الإنسان وقلبه ودماغه حتى دماغ اينشتين بعد موته، فلم يجدوا فيه أية مادة تفرد بها عن سواه.. ألا يدل هذا بمنطق العقل والبديهة أن هناك سراً يكمن وراء لحم الإنسان ودمه وعظمه؟ وإلا فبأي شيء نفرق بينه وبين غيره من الأجسام وبين العالم الاجتماعي والعالم الطبيعي طالما الجميع من فصيلة واحدة؟ ثم هل من أحد أساء إلى نفسه وإلى الإنسانية جمعاء أكثر ممن يقول: ليس الإنسان سوى كتلة من لحم ودم وعظم؟ أليست هذه الأبعاد بكاملها موجودة في الحيوان؟. وصدق الله العلي العظيم: (ولقد كرمنا بني آدم ــ ٧٠ الإسراء.. من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ــ ٣٢

المائدة).

وأجاب الماركسيون «بأن بعض الفلاسفة قد ذهب إلى القول: إن ما يميز الإنسان عن الحيوان هو الوعي والشعور، والحق أن الإنسان لم ينفصل عن الحيوان إلا في أن الإنسان هو الذي ينتج مقومات حياته، ومعنى هذا أن ماهية الإنسان تتوقف على انتاجه. لأن العلم هو الذي ميز الجماعة البشرية عن طوائف القردة التي تتسلق الأشجار ــ مجلة عالم الفكر العدد الأول من المجلد الثاني ٢٥٧ وما بعدها». وفي العدد الرابع من هذا المجلد ص ٢٦٦: «ان الإنسان عند ماركس يظل دائماً العامل المنتج.. أما الإنسان بغرائزه وارادته ونزوعه إلى الحب فلا مكان له في فكر ماركس».

وهذا اعتراف صريح بأن الإنسان يفترق عن الحيوان في العلم والعمل الدائب على إخضاع الطبيعة لسيطرته وتطويعها تبعاً لأغراضه وحاجاته، وعليه يأتي الكلام والسؤال: كيف وجد هذا الفارق العميق السحيق بين شيئين هما من فئة واحدة مادة وعنصراً؟ ولا أدري كيف التأم المفرق والموحد في شيء واحد؟

وأيضاً قال الماركسيون: ان طبيعة الإنسان ليست مستقرة ولا مستقلة، بل تتغير وتختلف تبعاً لبيئته ومستواه المادي.. وعن كتاب بؤس الفلسفة لماركس: «ان التاريخ بأجمعه ليس سوى تغيير مستمر للطبيعة الإنسانية». وأيضاً اشتهر عن الماركسيين أن «الاشتراكية هي الكفيلة بتغيير الطبيعة البشرية».

(أنظر مقالاً بعنوان الطبيعة البشرية في فلسفة كارل ماركس في مجلة عالم الفكر العدد الأول من المجلد الثاني).

١ ــ نحن لا نشك في أن الدخل والإنتاج يلعب دوراً خطيراً في حياة الإنسان وعاداته، ويؤثر تأثيراً جسمياً في العلاقات الاجتماعية.. وفي القرآن الكريم آيات تشير إلى ذلك بوضوح منها قوله تعالى: **(ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم واياكم)** (٣١ ــ الإسراء).. **(ان الإنسان ليطغى أن رآه استغنى)** (٧ ــ العلق) ولكن هذا التأثير والتفاعل تبعاً لمستوى المعيشة، يرجع إلى الظواهر الاجتماعية والصفات الطارئة على طبيعة الإنسان لا إلى طبيعته بالذات، وبديهي أن تغيير الصفة والمحمول لا يستدعي تغيير الموصوف والموضوع، ولا يبدّل ويحوّل شيئاً من عناصره ومقوماته إلى شيء آخر تماماً كالأرض تبقى على هويتها وحقيقتها سواء أزرعت فيها شوكاً أم ورداً، وبنيت فيها قصراً أم كوخاً.. ولكن الماركسيين يخلطون بين الطوارئ والصفات من جهة وبين الطبيعة

والموصوف من جهة ثانية.

٢ ــ إن فكرة الإشتراكية انبثقت وانطلقت من وجود هذا النظام الرأسمالي الجائر حيث تضع الدولة نفسها أساساً في خدمة الأثرياء ومن يملكون وسائل الانتاج، ومن أجلهم وحدهم تدمر القيم الإنسانية وتغرق البشرية في حروب وحشية طاحنة، وتحول بين الشعوب المستضعفة وبين أقواتها ومصدر حياتها، فقامت الاشتراكية على اساس أن تكون الدولة في خدمة الفقراء وتحريرهم من استغلال الأغنياء والأقوياء كثورة على الرأسمالية الطاغية، وراجت هذه الفكرة في العديد من الأوساط، وتوجد الآن ١٤ دولة اشتراكية(٤) ولكنها تُجند شعوبها، وتُعبئ الجماهير لخدمة أهداف الدولة ورجالها خلافاً للأساس والهدف الذي قامت عليه الإشتراكية(٥)

ونترك هذا الموضوع إلى سؤال نوجهه للماركسيين حيث زعموا بأن الاشتراكية كفيلة بتغيير الطبيعة البشرية!. وهذا هو السؤال: هل طبيعة الإنسان بعناصرها ومقوماتها في البلد الاشتراكي غيرها في البلد الرأسمالي؟ ثم هل جميع أبناء البلد الاشتراكي وأفراده على مستوى واحد مقدرة وامكاناً، وعقلاً ووجداناً وميولاً وأحلاماً، وعقيدة وإيماناً؟.

ان نوع الإنسان واحد اينما كان ويكون.. تجد بين أفراده الطيب والخبيث، والشجاع والجبان والكريم والبخيل هنا وهناك، وأيضاً تجد الإبداع والإختراع والعلوم والفنون، كل ذلك وما إليه من نوع واحد وطبيعة واحدة في الكتلة الشرقية والغربية. فقد جاء في العدد الرابع من المجلد الرابع لمجلة عالم الفكر ص ١٥٠: «ان النظرة إلى تقسيم الفن نوعين، برجوازي واشتراكي ، تقسيماً حاداً متعسفاً قد عُدل عنها في جميع أنحاء العالم بما في ذلك النقاد الماركسيين أنفسهم».

وخلاصة الفلسفات الأربع المتقدمة أن لكل فرد من الإنسان أن يفعل ما يحلو له عند الوجوديين الملحدين حيث لا حلال ولا حرام إلا ما يحلله أو يحرمه على نفسه بنفسه، شريطة أن يحرص على حرية الآخرين.. ولا خير وفضيلة عند البرجماتيين إلا ما يعود على الإنسان بالمنفعة الشخصية ولو على حساب الناس أجمعين، وخاصة المال باعتباره القوة السحرية.. والقيم الدينية والإنسانية عند أنصار الوضعية المنطقية أسطورة وكلام فارغ.. ولا يمكن بحال أن نتصور الطبيعة البشرية إلا في مجتمع عند الماركسيين، أما الاقتصاد والإنتاج فهو المعبود الوحيد.

ونسأل ونجيب بالاجمال لا بالتفصيل والمتن لا بالشرح حيث تقدم الشرح والتفصيل..

أولاً هل من أحد على وجه الأرض يستطيع العيش والحياة بلا دين وأخلاق، ولا قيود وحدود على الإطلاق؟. أبداً حتى من ينكر الأخلاق يحرص كل الحرص على حريته وكرامته، ويكره الإعتداء عليه، ويجب أن يفي له من عاهده بعهده، ومن حياه أن يرد عليه بالمثل أو بالأحسن، وأن لا يستعلي عليه مخلوق، وأن يكون ولده باراً، وحاكمه عادلاً، وجاره صالحاً.. وكل ذلك وما إليه من صميم الدين القويم والخلق الكريم.

ثانياً هل المادة هي الموجود الوحيد، وكل لفظ لا يدل عليها فهو كلام فارغ من المعنى؟. كلا وألف كلا، إن في العالم الغائب عن الحواس الظاهرة طاقات لا عدّ لها ولا حد، وفي الإنسان ملكات وغرائز تمكنه أن يضيف إلى العالم أشياء جديدة ومفيدة ــ كما حدث ــ وهذه الغرائز والملكات موجودة في الإنسان بما هو وخبيئة في نفسه وعقله سواء أعاش وحده أم في مجتمع، انخفض دخله أم ارتفع، ويستحيل أن تتحول إلى شيء آخر حتى ولو تحول من بيئة إلى بيئة ومن مجتمع إلى مجتمع.

وأخيراً هل من أحد يشك أن النزعة الإنساينة والأخلاقية لو سادت وتوطدت أركانها ــ لعاش الناس، كل الناس، في أمن ورخاء، وسعادة وهناء؟ وإذن علام الخلاف في وجود الأخلاق؟.

علم الأخلاق منه نظري ومنه عملي

هناك أمور قد يسميها بعض الناس (علماً) وما هي بشيء كمعرفة الانساب، وطول سفينة نوح وعرضها، واسم نملة سليمان وهل هي ذكر أو أنثى؟ وغير ذلك مما لا خير في معرفته، وموسع على العباد في جهله. وفي أصول الكافي عن الإمام الصادق(ع): «لا معرفة إلا بعمل، فمن عرف دلته المعرفة على العمل، ومن لم يعمل فلا معرفة له». وفي سفينة البحار عن الإمام الكاظم(ع): «أولى العلم بك ما لا يصلح لك العمل إلا به، وأوجبه عليك ما أنت مسئول عن العمل به، وألزمه لك ما دلك على صلاح قلبك، وأظهر لك فساده».

وكل هذه الأوصاف تصدق وتنطبق على علم الأخلاق، فهو بقواعده ومبادئه يهدي للتي هي أقوم وأسلم من السلوك والأفعال بحيث لا يسوغ الفصل بينهما بحال، لأن العلم والعمل لا يصلحان إلا على أساس الخلق الكريم، ومن عرف هذا الخلق لزمته الحجة، وأصبح عنه مسئولاً، ومن هنا قسموا علم الأخلاق إلى نظري وعملي.

والنظري هو الذي يبحث عن أسس الخير المطلق وفكرة الفضيلة من حيث هي بغضّ النظر عن المصاديق والأفراد تماماً كالبحث عن العبادة من حيث هي عبادة لا من حيث هي صوم أو صلاة فقط. وأيضاً يسمى العلم النظري للأخلاق بفلسفة الأخلاق، أما علم الأخلاق العملي فلا يبحث عن الخير المطلق والفضيلة كفكرة ومبدأ، بل يبحث عن مصاديق الخير التي تقع تحت الحواس والفضائل الخارجية كالوفاء بالأمانة والإحسان إلى المعوزين تماماً كما يقول الفقيه: يجب رد التحية، وتحرم السرقة، وعليه يكون موضوع علم الأخلاق النظري بمنزلة الجنس الذي لا يوجد في الخارج إلا بوجود أفراده، وموضوع علم الأخلاق العملي نفس المصاديق التي تحس وتظهر للعيان كالكرم والشجاعة.

مثلاً ــ إذا قلنا: كل ما أمر به الوحي والعقل فيه خير أو كل ما فهي نفع وصلاح للناس في جهة من الجهات فهو حسن، كانت هذه القضية أخلاقية نظرية بحتة وفكرة مجردة، وإذا قلنا: هذا الميتم أو المستشفى المجاني خير تكون القضية عملية مع العلم بأن الأخلاق النظرية ليست غاية في ذاتها، بل خطوة مرحلية ينتقل منها الباحث إلى التطبيق والعمل، وهذه المرحلة التطبيقية العملية هي الهدف الأسمى لعلم الاخلاق بل لكل علم على الاطلاق.

أما مجرد الحفظ والفهم لما دونّه العلماء في كتبهم أو دار في رءوسهم فهو كلام في كلام تماماً كالحرف المسطور في كتاب مقبور، والفرق ان الذي في هذا الكتاب حبر على ورق، أما الحفظ فصورة في مرآة الذهن.

والخلاصة ان العلم النظري للأخلاق مجرد معرفة، والعلم العملي سلوك، والصلة بينهما تماماً كالصلة بين اليد والعمل بها، وبين العين ورؤية الطريق. وكما ان كلا من اليد والعين ليست لمجرد الجمال والتناسب بين الأعضاء. كذلك المعرفة ليست لمجرد الترف وتراكم الصور

الذهنية، بل للعمل من أجل الحياة الطيبة الخيرة التي يوحي بها الحب والعدل، ويهدي إليها الوحي والعقل.

موضوع البحث

ونبحث أول ما نبحث في الصفحات الآتية النظرية الأخلاقية، أو العلم النظري للأخلاق أو فلسفة الأخلاق أو التخطيط للعمل والتطبيق، قل ما شئت. وتفصيل هذا الإجمال أن البيت ــ مثلاً ــ يتألف من عناصر ومواد أولية كالحديد والأخشاب والأحجار والتراب، ونحن نبحث

هنا عن العناصر والمواد الأولية لحقيقة الخير والفضيلة بوجه عام من غير تقييد وتخصيص بخير دون خير وفضيلة دون فضيلة كالعدل أو الإحسان أو إيتاء ذوي القربى أو غير ذلك من الفضائل والخيرات التي يبحث عنها في علم الأخلاق العملي.

واكرر مؤكداً أن علم الأخلاق النظري وسيلة وأداة للعمل بما تقتضيه قواعد الاخلاق ومبادئها تماماً كالإيمان بالنسبة إلى عمل الصالحات، فالإيمان (معرفة بالقلب، واقرار باللسان، وعمل بالأركان)، وكذلك الأخلاق، علم وعمل، قول وفعل ايمان وصالح الأعمال تماماً كما قال الإمام أمير المؤمنين(ع) في وصف أخ له في الله: (كان يفعل ما يقول، ولا يقول ما لا يفعل).(٦)

وعناصر الخير والفضيلة على العموم خمسة(١) الإلزام الخلقي الذي يأمر بالخير وينهى عن الشر(٢) المسئولية المنبثقة من هذا الإلزام والمتفرعة عنه(٣) الجزاء بالثواب على طاعة هذا الإلزام والعقاب على معصيته(٤) النية الخاصة المخلصة لوجه الله والخير(٥) الجهد الروحي بضبط النفس عن الهوى، والجهد البدني بالصبر والثبات على مواجهة الصعاب والعوائق من أجل عمل الخير وترك الشر.

ونتحدث عن كل واحد من العناصر الخمسة في فصل مستقل، وبديهي أن وجود اللاإلزام الخلقي الداخلي يفترض وجود العلم به حتماً، ولذا لم نذكر هذا العلم مع عناصر الخير والفضيلة.

الهوامش:

(١) الوجودية متنوعة متعددة، فزعماؤها الأولون كانوا من المؤمنين، ومنهم كيركجارد ويسبرز ومارسل، ونحن هنا لا نؤرخ للوجودية لأن تاريخها يحتاج إلى كتاب ضخم، وإنما نتحدث عن الوجودية الشائعة المعاصرة لأنها ترتكز على الإلحاد والتحرر من الدين والأخلاق، ومن زعمائها هيديجر وسارتر والبير كامي وسيمون دي بوفوار.

(٢) موضوع المنطق الفكر الإنساني، وتعريفه فن التفكير، وغايته الوصول إلى معرفة الحقيقة، وينقسم إلى صوري وتطبيقي، والأول هو منطق ارسطو القديم، ويبحث عن الصور الذهنية وانسجام الفكر مع نفسه بغض النظر عن الأشياء الخارجية، أما المنطق التطبيقي فيبحث عن اتفاق الفكر وانسجامه مع الأشياء الخارجية، وليس من شك أن الأصول تستدعي أن يتفق الفكر مع الخارج لأن النظرية يجب أن تؤدي إلى العمل، كما أن العمل يجب أن يهتدي بالنظرية الحقة.

(٣) مجلة عالم الفكر العدد الثاني من المجلد الثاني، مقال بعنوان ماخ وانيشتين.

(٤) هي روسيا والصين ويوغوسلافيا والبانيا وفيتنام وكوبا وكوريا الشمالية وبولند وبلغاريا ورومانيا

وتشكسلوفاكيا والمجر ومنقوليا والمانيا الشرقية.

(٥) اقرأ قصة ذوبان الجليد للأديب الروسي الشهير ايليا اهر نبورج وغيرها مما يصور الرعب والقلق والضغط خلال عهد ستالين.

(٦) قال فيلسوف كبير ومعاصر: يهتم الغربيون بالعمل وأحكام العقل، ومن أجل هذا يقدمون: الاسم على الفعل ويقولون زيد جاء لأن الاسم يومىء إلى العلم والعقل، أما العرب فيهتمون: بالفعل وقيم السلوك، ولذا يقدمون الفعل على الاسم، ويقولون: جاء زيد، ولا بأس بهذا النوع من التفنن في الأسلوب والتعبير والتفلسف في التأمل والتفكير.

الإلزام

بين الإلزام والالتزام

الفرق بين الالزام والالتزام أن الإلزام يكون من سلطة عليا تأمر وتنهى، ولا رادّ لأمرها ونهيها لأنه حق وعدل، وهي أيضاً تمدح وتوبخ، تراقب وتحاسب المنحرفين في سلوكهم عن الصراع القويم، أما الالتزام فهو التقيد والتعبد بهذا الواجب والإلزام حتى ولو خالف ميول الملتزم وتقاليد أهله ومجتمعه، وبكلمة أن الالتزام يشبه إلى حد بعيد السير على قضبان من حديد تُعين للملتزم الطريق الذي يسير عليه تماماً كسير القطار، ومن الإلزام والالتزام يتألف مفهوم النظام، ومن تمرد على الإلزام والواجب فقد خرج عن النظام العادل.

ولا غنى عن مبدأ الإلزام والالتزام لأية أسرة أو جماعة تعيش حياة مشتركة، فهو العهد والميثاق الذي يضمن بقاءها، ويصونها من الفوضى والانحلال، بل هو الأساس الاول للأديان والشرائع والقوانين والمذاهب الأخلاقية وغير الأخلاقية. وقرأت في الصحف من جملة ما قرأت، كلمة تغني عن كتاب في هذا الباب، وهي:

((الشر كل الشر ينبع من اللامبالاة والسلبية، والتخلي عن التبعة، والشعور بالمسئولية. ان جحود الإلزام والالتزام قضاء على وجود الإنسان، بل هو بمثابة الجحود لأصل الوجود)).

والسر الأول والأخير لذلك أن الحياة المشتركة لن تستقيم بحال إلا إذا عاش جميع أفرادها على مستوى واحد في الحقوق والواجبات وإلا اختفى النظام، وشاعت الفوضى والاضطراب والانحلال، وسادت شريعة الغاب والفساد والضلال.

وايضاً قرأت في بعض الصحف أن لصوصاً سطوا واغتنموا، وعند القسمة أجحف رئيسهم واستأثر، فثاروا عليه وطالبوه بالالتزام بالحق والعدل في قسمة الحرام!.. وان دل هذا التناقض على شيء فانه يدل أن واجب الحق والالتزام به يحمل طابع فطرة الله التي فطر الناس عليها، كل الناس، حتى المعتدين على ما هو الحق والعدل وإلا فبأي شيء نفسر مطالبة اللصوص بقسمة الحرام بالعدل؟. ثم هل من أحد يقبل عن رضا وطيب نفس أن يوصم باللصوصية والخيانة؟ اللهم إلا أن يكون وحشاً ضارياً في جسم إنسان.

بين العقل والوجدان

الدين ــ من حيث هو ــ انقياد والتزام باشياء مفروضة من سلطة عليا، والعقل النظري انتقالٌ من معلوم إلى مجهول، ومن شاهد إلى غائب، أما الضمير الحيّ فهو أن تحب الخير والفضيلة من حيث هما أي حتى من عدوك، وأن تكره الشر والرذيلة حتى من نفسك، وأن تشارك الناس في مشاعرهم وآلامهم، فيخفق قلبك لكل مظلوم وبائس في شرق الأرض وغربها على أن ينبغ هذا الشعور من اعماقك لا من خطبة حماسية أو في غمرة جماهيرية. وبكلمة أن الضمير الخالص

نور فطري يريك الحقيقة مباشرة بلا أقيسة ومقدمات. وكثيراً ما تطلق على الضمير والوجدان كلمة الذات الخلقية والأخلاق الإنسانية أو الأدبية، وقانون القلب وما أشبه.

ولا يعيش الضمير في عزلة عن العقل، بل هناك تشابك عضوي بينهما ولونٌ من الوحدة والاتساق، وبهما معاً تكمل وتتم شخصية الإنسان ويمتاز عن الحيوان وسائر المخلوقات. أجل قد يخفق قلب الحيوان بالعاطفة كالأنثى تحافظ على وليدها، ولكن الحيوان يقف عند هذا الحد، ولا يتجاوزه إلى التراحم والتعاون والمحبة والتسامح، وما إلى ذلك من المثالية والمشاركة الوجدانية.. وإذا كان الإنسان اجتماعياً بالطبع فهو مضطر لأن يكون غيرياً بالطبع لأن المفهوم الاجتماعي لا ينفصل عن الغيرية بحال.

ومما لا شك فيه أن الناس على مستويات مختلفة في العقل ودرجات متفاوتة، ومثله تماماً الوجدان، ويتفاوت بين إنسان وإنسان: هذا يرى الحب والأخوة والعدل والمساواة خيراً وأفضل ما في الوجود، وذاك لا يعرف من الحب والعدل إلا بمقدار ما يتصل بنفسه وذويه، وثالث يحقد على الإنسانية جمعاء، وينبح على كل فاضل وكامل!. وينشأ هذا الحقد والعواء ــ في الغالب ــ عند العاجز عن مواجهة الحياة. وإلى هذه الحقيقة أومأ الإمام أمير المؤمنين(ع) بقوله: «العجز آفة.. الغيبة جهد العاجز».

مصدر الإلزام

وبعد التمهيد بما تقدم نشير أن العنصر الأول والأساس من العناصر الخمسة للخير والفضيلة هو الواجب والإلزام بالمعنى الذي أوضحناه في فقرة بين الالزام والالتزام من هذا الفصل، أما المصدر الذي يشتق منه هذا الإلزام فهو عبارة عن منظومة من نداءات ثلاثة(١): نداء العقل الخالص الكلي الذي لا يُنسب إلى أي فرد كان أو أية جماعة تكون لأن هذا العقل يتلون ويتأثر بما يحيط به والمراد العقل الكلي كما خلقه الله، وخاطبه بقوله: ما

خلقت خلقاً أشرف منك(٢)، نداء الفطرة النقية(٣)، نداء الوحي الإلهي، فالعقل المتحرر من كل ضغط وقيد يميز بين الخير والشر، ويوجه إلى الإنسان أوامره بأن يفعل أو لا يفعل، والفطرة الإنسانية بما هي وكما خلقها الله سبحانه تحب الخير وتأمر به، وتكره الشر وتنهى عنه، وكثيراً ما يعبر عنها بالضمير الوازع الذي يردع الإنسان عن ممارسة السوء، وبأسلوب آخر أن الفطرة هي التي تصدر عنها ميول إنسانية محض منزهة عن كل شائبة ومنفعة ومجردة عن كل تأثير وتقليد بحيث لا يمكن تعليل هذه الميول إلا بالوجدان الخالص والفطرة الصافية، ومثاله أن يسمع الإنسان كلاماً فيتجاوب معه بقلبه ونفسه وعقله.

أما دين الله القيم فأحكامه وبيانه لطف ورفق بعباده، وتأييد وتسديد لمنطق العقل ومحكمة الضمير، ومعنى هذا أنه بحكم العقل والضمير يُستدل على حكم الوحي، وبحكم الوحي يستدل على حكم العقل والضمير.

وكل هذه القوى الهادية الكامنة في داخل الإنسان من العقل والضمير والإيمان تزيد من احساسه بالخير والعدل وشتى انواع الفضيلة، وتنمي فيه روح الاستقامة على النهج القويم، وتدفع به إلى العمل لدُنياً أفضل حتى كأنه يعيش أبداً ولآخرة أكمل كأنه يموت غداً.

وبعد، فان تركيز الواجب الإلهي الإنساني والإلزام الأدبي الخلقي على هذه الأثافي الثلاث نداء الله والعقل والضمير(١) هو تمكين وتأصيل لحياة وادعة عادلة ومعيشة راضية عالية دنيا وآخرة.. ولا أدري هل عرفت الإنسانية ديناً أو شرعاً أو نظاماً ــ غير الإسلام ــ جمع بين هذه الدعائم الثلاث كأصل وأساس لكل قاعدة أخلاقية وحكمة واعظة نافعة؟. ومن المؤلم والمؤسف أن يجهل الكثير منا هذا الجانب من عظمة الإسلام في منهجه وشريعته وشتى تعاليمه.

ولو أن جماعة من أهل الفكر والاختصاص قارنوا بين ما عليه المسلمون اليوم وبين جوهر الاسلام وأهدافه ــ لنصحوا وقرروا أن نعتنق الإسلام من جديد.. وكفى دليلاً على هذه الحقيقة قوله تعالى: **(وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)** (٤٧ ــ الروم) وقوله: **(ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)** (٨ ــ المنافقون). ومن المعلوم بالعيان والبديهة أنه لا عز ولا نصر اليوم للمسلمين في أية بقعة من هذا الكوكب، ولو كانوا مؤمنين حقاً وصدقاً لوفى سبحانه بعهده ووعده تماماً كما فعل من قبل مع الذين آمنوا وعملوا الصالحات: **(ومن أوفى بعهده من الله)** (١١١ ــ التوبة).

الإلزام وسيلة لا غاية

ولا بد من الإشارة إلى أن نظرية الإلزام هي معيار مطلق يعم ويشمل الالزام بكل خير دون استثناء، ويخاطب جميع الناس في كل زمان ومكان، وعليه فمن يفعل الخير لوجه الخير بفطرته دون أن يتنبه إلى هذا الالزام ــ فقد أدى إليه طاعته، لأن الإلزام هنا وسيلة للعمل وليس غاية في نفسه. وتوصلي لا تعبدي على حد قول الفقهاء وعلماء الأصول. وبكلام آخر أن الإلزام قانون، ومن شأن القانون أن يضع القيود، ويرسم الحدود، فإذا التزم الإنسان تلقائياً بكل حد وقيد مع جهله أو غفلته عن القانون، فقد خرج عن العهدة والمسئولية، بل هو الأفضل والأكمل لأنه قد وضع القيود والحدود بنفسه لنفسه.

الإلزام الخلقي قانون طبيعي

في فقرة (بين علم الطبيعة وعلم الأخلاق) من فصل حول الأخلاق، أشرنا إلى التفرقة بين العلمين، ونشير هنا أولاً إلى التفرقة بين المراد بكلمة القوانين الطبيعية المادية وبين المراد بكلمة القانون الطبيعي بصورة عامة، ثم نشير إلى التفرقة بين هذا القانون والقانون الوضعي، ونثبت أن الإلزام الخلقي قانون طبيعي لا وضعي، والمراد بقوانين الطبيعة والمادة النظريات التي تُقرر وتُعبر عن شيء مرئي يمكن أن يكال أو يوزن أو يقاس بالشبر والمتر، وتناله يد الخبرة والتحليل في المختبرات، ويد الصناعة والزراعة في الحقول والمصانع.

أما القانون الطبيعي فيعم ويشمل كل ما هو حتمي الوجود ولا غنى عنه بحال مادياً كان كالطعام والشراب أم معنوياً كالحرية والعدالة وغيرهما مما تفرضه جبلة الإنسان وطبيعة العيش والحياة، وعليه فكل قانون ينطق بالعدل ويأمر به فهو قانون طبيعي(٢) وإلهى وعقلي في آن واحد، هو طبيعي لأن العدل ثابت في ذاته وموجود في عالمه، ولا غنى عنه. قال أرسطو: العدل يشمل الفضائل بكاملها لأنه الخير العام للمجموع، والخير الخاص لكل فرد، وقال الإمام أمير المؤمنين(ع): «العدل يضع الأمور موضعها، وهو سائس عام» أي لا يستقيم شيء من الحياة إلا به، بل لا يستقيم الكون بما فيه ومن فيه إلا بالعدالة الإلهية.

وهو (أي القانون العادل) عقلي لأن العقل الخالص من العواطف والضغوط والمآرب، يأمر بالعدل والإحسان، وهو إلهي لأن الله سبحانه هو الحق والعدل وخالق الطبيعة والوجدان

والعقل.

أما القانون الوضعي فهو الذي يصدر عن إرادة إنسانية سواء أكانت إرادة فرد واحد أم هيئة عامة أم سلطة دولية أم أهل الأرض كلهم أجمعين، أجل إذا كان الحكم الوضعي مستوحى من العدل وخاضعاً له ساغ أن نسميه عقلياً وشرعياً وإلا فهو بدعة وضلالة لأنه ضد الوحي والعقل والطبيعة والوجدان. ومما تقدم يتبين لنا أن الواجب الإنساني والالزام الخلقي هو قانون تكويني طبيعي يهيب بالإنسان إلى علم الخير، ومبدأ إلهي عقلي يُنذر ويحذر من الأنحراف إلى الشر.. وما أنكر من أنكر هذا الإلزام إلا لكي يتحرر من الخير والفضيلة، ويفلت من القيود والحدود وإلاّ رغبةً في الضياع والفوضى واشباع الغرائز الحيوانية.

ولكن الشيء الذي يُذهل ويحير: هل على وجه الأرض عاقل واحد لا يعير اهتماماً للصدق والأخلاص والعدل والمحبة والجود والأمانة والتعاطف والتراحم؟ وهل من إنسان بمعنى الكلمة لا يخفق قلبه لأنين الملهوفين ودموع المظلومين؟ وإذا كان كل ذلك وما إليه عبثاً وحماقة فبأي شيء نفسر خلجات النفس الإنسانية من أجل المستضعفين. والمشاريع الخيرية، والثورات ضد الظلم طلباً للعدل والحرية؟.

واخيراً هل كل إنسان يميل بفطرته إلى إطلاق العنان لأهوائه وفي سلوكه دون أي اهتمام واكتراث بالآخرين ودون أن يتحمل ما تجنيه يداه؟ وإذن ما الفرق بين الإنسان العاقل ووحش الغاب؟.

الدين والمرض النفسي

نشرت مجلة العربي الكويتية عدد آب ١٩٧٤ مقالاً بعنوان المرض النفسي جاء فيه أن جماعة من كبار العلماء الغربيين وأهل الاختصاص بعلم النفس، درسوا ما ورد في الرسالات السماوية من حقائق وأفكار عن طبيعة الإنسان وتحليلها، فوجدوا فئة من الناس قد مات فيها الاحساس الإنساني والضمير الخلقي، فلا تشعر بذنب، ولا تؤوب إلى رشد مهما اقترفت من كبائر وجرائم، وفئة ثانية لديها ضمير خلقي، ولكنه ضعيف مريض لا يقوى على مقاومة الرذيلة والارتداع عنها في صورة ناجحة مثمرة، فيرتكب صاحبه الخطيئة، ثم يندم، وقد يكفّر عن جرمه وجريرته ببعض الصالحات.

وانتهى هؤلاء العلماء إلى أن الدين هو العلاج الشافي لأمراض النفس لأنه الطريق الوحيد إلى القلب والعقل، وأنه يحدث نوعاً من غسل الدماغ للفرد (فقد ساعد الدين مدى العصور

والأزمنة على مواجهة قوى الظلم والاستبداد، ومن أجل ذلك ظهرت محاولات عدة لصياغة الكثير من القواعد الدينية في قوالب نظريات في علم النفس، ونستطيع ان نعبر عن ذلك بالعبارة المشهورة التي ذكرها (مورر): إن هذه المحاولات النفسية ذات الأصول الدينية سوف تنقذ البشرية في وقت قريب).

الدين وتفسخ الشباب

ونعطف على ما قاله علماء النفس أن جماعة من كبار الفلاسفة حاولوا أيضا أن يداووا بالدين وتعاليمه أمراض الشباب وانحرافاتهم، فقد نشر فيلسوف كبير ومعاصر مقالاً في مجلة العربي عدد كانون الثاني ١٩٧٢ جاء فيه: أن عصرنا أدى بشبابه إلى حالة من التمزيق والتفسخ والضياع لأن القيم والفلسفات التي ينطوي علينا هذا العصر متنافرة مضاربة، بعضها يغري بالعلم وحده، وبعضها يغري باشباع الغريزة والشهوة، ولو أننا نحن الفلاسفة نشرنا القيم الدينية عن طريق التربية والتعليم في المدارس والمعاهد وغيرها، وجعلنا منها قواعد ومعايير حية نابضة نترسمها ونهتدي بهديها بدل أن نجعلها مجرد ألفاظ نرددها على حبات المسابح، إذن لكانت بين ايدينا منظومة منسقة كاملة من القيم، فتخرج الإنسان المتكامل من وجهة نظر إسلامية.

وإذا تدبرنا قول هذا الفيلسوف المعاصر وعلماء النفس، أدركنا السر في قوله تعالى: (ان في ذلك لذكرى لأولي الألباب... إنما يتذكّر أولو الألباب.. فاتقوا الله يا أولي الألباب) فانكم تشخصون الأدواء وتعرفون العلاج والدواء، وما عليكم إلا أن تتقوا الله وتعلنوا كلمة الحق والصدق وان الإيمان بالله مع الطاعة والعمل بتعاليمه وأحكامه لا يغني عنه شيء في حل المشكلات والخروج من الأزمات، ذلك أن الإيمان بالله إيمان بالحق والخير والعدل.

أين العقول من وضع الشريعة؟

قلنا ونكرر إن أهم الأسس التي يقوم عليها صرح الأخلاق هو الإلزام، وان مصادر هذا الإلزام الوحي من الله سبحانه: **(ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)** (١٤ ــ الملك) والعقل القوي الخالص من كل شائبة الذي يؤثّر ولا يتأثر، والضمير الذي يطمئن للخير ويباركه، وينفر من الشر ويشمئز لذكره، وإليه أشار الرسول الأعظم(ص) بقوله: «البر ما اطمأن اليه القلب، والإثم ماحاك في القلب وتردد في الصدر». وما من شك أن هذه المصادر الثلاثة تنتهي إلى مبدئ الخلق ومعيده، إلى الاول بلا أول كان قبله، ومعنى هذا أن

الوحي هو الأصل الأصيل لكل واجب وإلزام سواء سميته خلقياً أم شرعياً، بل ان المصدر الحق الذي نقر به عن إيمان ونستند إليه عن يقين، ولا نقبل حوله أي نقد واعتراض أو شبهة وتشكك أو فلسفة وتحليل ــ فهو الوحي وحده لا شريك له، ويمكن أن نمنح ثقتنا هذه للعقل الذي قال له سبحانه: ما خلقت خلقاً أحب إليّ منك، ولكن أين هو هذا العقل المحبوب لله؟ ونفس الشيء نقوله في فطرة الله التي فطر الناس عليها.

أما العادة والتقاليد المعروفة عرفاً والمسلم بها عند الجماعة والمجتمع ــ فما هي من مصادر الإلزام في شيء.. وقال الاستاذ مقداد يالجن في كتابه الاتجاه الأخلاقي في الإسلام: «أما الإسلام فيعتبر الله مصدر الإلزام في الدرجة الأولى.. والجماعة في الدرجة الثانية لأن المجتمع مسئولٌ عن انحراف الأفراد».

وهذا اشتباه وغفلة لأن المجتمع ــ في عاداته وتقاليده ــ إن وافق نصاً أو أصلاً من الوحي كان هو المصدر وليس المجتمع، وان خالف الوحي نصاً وأصلاً فهو بدعة وضلالة(٣) أما مسؤولية الجماعة فهي من باب النهي عن المنكر، قال سبحانه: **(كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون)** (٧٩ ــ المائدة) ومن البديهة أن النهي والتناهي عن المنكرات شيء، ومصدر الأحكام والإلزام شيء آخر.

وقد يقول قائل: لماذا لا يُكتفى بالعقل يمده ويعاضده إلهام الضمير ووحيه كمصدر للإلزام، ويُستغنى به عن الوحي؟ أليس العقل دليل المؤمن على خالقه وحجة الله على عباده، وبه يُثيب ويُعاقب؟.

الجواب:

إن العقل لا يحيط بكل شيء علماً، والعقلاء لا يكتشفون كل مجهول بالفراسة والروية وإلا كانوا في غنى عن المدرسة والدراسة والتعلم والتجربة، وحلوا جميع مشكلاتهم بالتأمل العقلي المجرد، وصعدوا إلى المريخ بمجرد التخيل والصور الذهنية والمشاعر النفسية!.

أجل، ان العقل ينتقل من معلوم إلى مجهول كالانتقال من المقدمات إلى نتائجها ومن الأسباب إلى مسبباتها، ما في ذلك ريب، وأيضاً يدرك العقل تلقائياً أو بمشاركة الفطرة النقية أشياء معنوية كقبح الظلم والعدوان والنفاق والبهتان وما إلى ذلك من قسوة ولصوصية. وأيضاً يدرك الإنسان من داخله لا من خارجه حسن العدل والوفاء والنجدة والإباء، ونحو ذلك من ظاهرة إنسانية وفضيلة أخلاقية.

ولكن أين ذلك من شريعة تنظم وتشمل البشرية بكاملها، وتخطط لحياة سليمة وكريمة في شتى الجهات وعلى جميع المستويات في هذه الدار، وفي الآخرة خير وأبقى؟. وأثبت في العديد من مؤلفاتي أن هذه الشريعة العالمية لا تبلغها العقول، وأن خالق الطبيعة هو وحده واضع الشريعة، والآن أعود إلى هذا الموضوع بمقالة أهدى وأجدى، وإليك البيان:

إله التكوين والتشريع واحد

إذا أراد أفقه الفقهاء وأقوى العلماء اجتهاداً وإحاطة بالشرع والشرائع، أن يقرر حكماً واحداً لشيء خاص ومعين ــ بحث وحقق ، وتأمل ودقق، ثم قال كلمته بتحفظ متوقعاً الخطأ من نفسه، ومرحباً بالنقد والمناقشة، هذا إن كان من أهل الدين والتقوى مع الفرض بأنه يقول عن حس ويعتمد على الكتاب أو السنة أو عقل منير، ولا يحكم بمجرد الحدس والتخمين.

فكيف بمن يضع نظاماً وشريعة لحياة مستقيمة وكريمة لا شر فيها وأزمات، ولعيش وادع ومطمئن لا جور فيه ومحاباة، شريعة تدرأ الأخطار، وتجلب المنافع، وتنشر العلم والأمن والعدل، وتحفظ التوازن بين مطالب الروح والجسد، وبين الأفراد والفئات، ولا تدع منفذاً للاستغلال والاحتكار ولا للصراع والتنافس على السلب والنهب، ولا تغادر كبيرة ولا صغيرة من شئون الناس ما وُجد منها وما سوف يوجد إلا أحصتها ونصت على حكمها بالخصوص او العموم، شريعة تُغني عن كل شرع ومشرّع، ولا يُغني عنها أي تشريع ونظام، إن هذه الشريعة او المعجزة البالغة الماثلة الآن في شريعة الإسلام، لا تكون ولن تكون من صنع مخلوق من طين وتراب، له عواطف ومآرب، ولا من صنع عقل وان خلص من الشوائب لأن العقول مجتمعة تدرك شيئاً وتغيب عنها أشياء، وإذن فلا بد ان تكون هذه الشريعة المعجزة من لدن حكيم عليم، بيده ملكوت كل شيء، وهو على كل شيء قدير.

وايضاً هناك أشياء أخرى يجب أن تتوافر في المشرع منها: أن التشريع سلطة وولاية للأعلى على الأدنى، ومعنى هذا أنه لا يحق لأي كان أن يضع للآخرين نظاماً لسلوكهم وافعالهم وقيودا لحريتهم واختيارهم إلا إذا كان أولى منهم بأنفسهم وأشيائهم وأهلهم واموالهم، أما الند فلا سلطان له وولاية على نده ونظيره، كيف وما فيه الاشتراك والمساواة لا يكون فيه التفضيل والمحاباة، وإذن فلا ولاية على النفس إلا لخالقها وواهبها، ومعنى هذا بالحتم واليقين أن ولاية التشريع والتنظيم لمن له ولاية الخلق والتكوين.

ومنها: أن الذي يفرض للآخرين أو عليهم أحكاماً لا يسوغ بحال أن يكون هو أحدهم لأن هذا في حقيقته وواقعه يرجع إلى أن المشرع يحلل ويحرم لنفسه بنفسه تماماً كالفئة الحاكمة في هذا العصر تضع القوانين لمصلحة الأغنياء ان كانت رأسمالية، ولمنفعة البروليتاريا إن كانت اشتراكية، كما يزعمون او تبعاً للأهواء الساهية الرعناء ان تلك الدولة لشباب النزق والغرور.

هدف العلم والدين واحد

من أهل الدين فئة ورثت مجموعة من التعاليم والعادات عن الآباء والأجداد، ودافعت عنها بكل ما أمكن حتى بالسب والشتم لمن خالف أو ترك شيئاً مما هي عليه!.. وفي الطرف المقابل توجد فئة، أهم ما يشغلها الرد والاعتراض على كل ما يمتّ إلى الدين بسبب، لا لشيء إلا العداوة والبغضاء لهذا الاسم!. وبهذه الروح والدافع قال من قال: لنا في العقل غنى عن الوحي وشريعته، وذهل أو جهل بأن العقل من حيث هو لا يغني عن العلم ومنجزاته التي هي من ضرورات الحياة، وان الهدف الأول من الدين والعلم واحد، وهو السير بالإنسان إلى حياة مثلى من غير فرق سوى أن موضوع علم الطبيعة نفس الطبيعة والسيطرة عليها، وتحويل ما فيها من قوى وعناصر إلى أدوات يستعين بها على قضاء حوائجه، وموضوع الدين وشريعته هو نفس الإنسان والتخطيط لعقيدة هادية، واتجاه سليم ونبيل، وعمل صالح ونافع دنيا وآخرة، ومعنى هذا أن الإنسان في أمسّ الحاجة إلى العلم والدين معاً، وان الذين يحسبون أنه بالخبز أو العلم وحده يحيا الإنسان هم مخطئون تماماً كالذي يحاول المشي والسير على ساق واحدة.

ونتساءل لو تركنا لعقول الناس أن تضع لنفسها النظام المناسب والشريعة الصالحة، فماذا يحدث؟. أما بعض الشرائع العصرية الحديثة فقد أباحت اللواط وأقرته علناً في مجلس العموم البريطاني، ولكن بشرط الرضا من الطرفين. وبعض الشرائع أقرت التعذيب والسجن التعسفي، وثالثة أقرت التفرقة العنصرية، ورابعة أباحت الوصية للكلاب الخ.. وألغى النظام الاشتراكي حرية الفرد، وأطلقها النظام الرأسمالي على حساب الجماعة، أما النازية والفاشية فقد أهلكت النسل والحرث، وأودت بحياة الملايين.

ولو مضيت في ضرب الأمثال من الشرائع الوضعية وما فيها من ظلم وقسوة، وفساد وضلال، وما بينها من تضارب وتنافر ــ لسوّدت الوف الصفحات.. كل هذا فوقه كثير يعطينا أصدق الأدلة وأوضحها على أن شريعة الله هي وحدها شريعة الحق والصلاح

والعدل والفلاح دنيا وآخرة، ولو كان لشريعة الله سلطان في هذا العصر لما امتلأت الأرض ظلماً وجوراً وخوفاً ورعباً من أسلحة المتنافسين على تقسيم المستضعفين كفريسة لقوتهم وجبروتهم وتهديدهم ووعيدهم بقنابل الإبادة بالجملة والتدمير بغير حساب.

ودين الله وشريعته عقبة كأداء في طريق هؤلاء وغيرهم من أهل الفسق والفجور، وقد أزالوا هذه العقبة من بلاد الغرب، وانفتح أهله على كل رذيلة وجريمة، واعتادوا عليها كطبيعة ثانية، وسرت هذه العدوى إلى العديد من أبناء الشرق السائرين في ركاب الغرب، وأعلنوا الحرب على الدين عسى أن يزيلوه من طريقهم ويعيشوا في ظل الفساد بسلام آمنين، ذلك هو مقصدهم، ولكن من دونه ألف عقبة وحجاب.

وأخيراً نفترض جدلاً أن في مقدور العقل السليم أن يضع للإنسانية شريعة كاملة من كل وجه وكافية وافية بكل حاجة، وأن هذا العقل موجود بالفعل عند بعض الناس ــ فنقول: إن الدين والوحي قوة ودعامة لهذا العقل، وليس من شك أن هذه الدعامة تجعل أحكام العقل أقوى وأبقى، بالإضافة إلى أن الاعتقاد بالله ينطوي على الخشية منه، ويقيم رقيباً على الإنسان من نفسه في دوافعه وميوله وسلوكه وأعماله.

البُعد الديني والبُعد الأخلاقي

الخير منه واجب كالجهاد والعدل والوفاء بالأمانة، ومنه مستحب كالحلم والعفو والبذل في بعض الأحيان، وعليه يسوغ القول: كل واجب هو خير وحسن وفضيلة، وليس كل خير وحسن بواجب.. هذا من وجهة شرعية فقهية لا مرية فيه، ولكن هل الامر أيضاً كذلك من الوجهة الأخلاقية بحيث إذا تر الإنسان ما هو مندوب شرعاً كالصدقة المستحبة ــ مثلاً ــ لا يحط ذلك من قدره وكرامته من الوجهة الخلقية، أو أن كل خير هو واجب أخلاقي حتى ولو كان مستحباً في الفقه والشرع، ومن تركه فقد اقترف جريمة في نظر الأخلاق؟.

اختلفت الإجابة عن هذا السؤال تبعاً لمشاعر المجيب وميوله ونظره من زاوية معارفه وعقيدته. ونحن لا نفرق بين الأحكام الشرعية والأحكام الأخلاقية واجبة كانت أم مندوبة، وبالتعبير الدارج لا فرق عندنا بين البعد الديني والبعد الأخلاقي، فكل واجب او مستحب شرعاً هو كذلك من وجهة إنسانية وأخلاقية، وبالعكس، وآية ذلك:

أولاً أن الأحكام الشرعية والأحكام الأخلاقية تستقي من معين واحد، فمصادر الأولى: الكتاب والسنة والعقل والاجماع الكاشف عن حكم الله تعالى، ومصادر الإلزام الخلقي:

الوحي والعقل والفطرة النقية كما سبقت الإشارة إليه، وهذي بالذات مصادر للأحكام الشرعية أيضاً، قال سبحانه: **(فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم)** (٣٠ ــ الروم). وفي الحديث (أصل ديني العقل) ولا دين لمن لا عقل له، وكفى دليلاً على ان كل ما هو خلقي فهو إسلامي قول الرسول الأعظم (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) فانه يكشف عن الصلة الوثيقة بين الإسلام والأخلاق ثانياً ان نور العقل والفطرة فيض من صانعهما الذي أودع فيهما الاحساس بالخير والشر والإلزام تركاً لهذا وفعلاً لذاك (انظر فقرة إلى الله ترجع الامور من فصل حول الأخلاق).

ونستخلص من كل ذلك وغير ذلك أيضاً أن الأحكام الأخلاقية تماماً كالأحكام الشرعية، فيها الوجوب والندب، والحرمة والكراهة، أجل إن النفوس النبيلة الفاضلة هي وحدها التي لا تفرق بين واجب ومندوب، ولا بين محرم ومكروه، ولسنا بصدد الكلام عن هذه القلة القليلة، وإنما نتحدث عن أخلاق الكثرة الكاثرة أمثال الذين عناهم الإمام أمير المؤمنين(ع) بقوله: «ألا وان إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه، ألا وانكم لا تقدرون على ذلك ولكن اعينوني بورع واجتهاد، وعفة وسداد» فان في ذلك كفاية المكتفي ديناً وأخلاقاً.

وربما يُفرق بين الحكم الشرعي والحكم الأخلاقي في عبادة من عبد الله سبحانه لا شكراً لأنعمه، بل رهبة من عذابه او رغبة في ثوابه حيث تُقبل عبادته ويخرج بها عن عهدة التكليف الشرعي لأن الفاصل هنا غير أجنبي ــ على حد تعبير النحاة ــ وإن لم تك هذه العبادة من الأخلاق في الأفق الأعلى.. ولكن لنا أن نقول بلا تحفظ إن الدوافع الأخروية كلها أخلاقية مئة بالمئة لأن الخوف منه تعالى بذاته أيضاً عبادة، أما الطمع في فضله فعزة وكرامة. وسنتكلم عن ذلك مفصلاً في فقرة خاصة بعنوان (عبادة الله خوفاً أو طمعاً) من فصل النية. فإلى هناك.

الخير درجات

الواجبات والإلزامات بالخير منها الأهم كالإلزام بالجهاد وانقاذ الغريق، ومنها المهم كالحج بالنسبة إلى الجهاد، قال سبحانه: **(لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين انفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى)** (١٠ ــ الحديد). وفي نهج البلاغة: (درجات متفاضلات، ومنازل متفاوتات) ولا يحتاج هذا إلى دليل وبيان لأن الجزاء على قدر العطاء كماً وكيفاً بحكم البديهة.

وكذلك الشأن في المحرمات، منها كبائر كالعدوان على الأنفس والأموال، قال الأمام أمير المؤمنين(ع): بئس الزاد العدوان على العباد. ومنها صغائر، ومن جملة ما قلنا في التفسير الكاشف عند شرح الآية ٣١ من النساء ج ٢ ص ٣٠٦: «ان الذنوب جميعاً في نفسها كبائر، وإنما تقسم إلى كبائر وصغائر بمقارنة بعضها بعضها إلى بعض ــ مثلا ــ النظر إلى أجنبية بريبة ذنب كبير في نفسه، صغير بالنسبة إلى القبُلة، والقبلة صغيرة بالنسبة إلى الزنا، وكذا الأكل على مائدة الخمر كبير في نفسه صغير بالقياس إلى شرب الخمر، ولكن الصغيرة مع الإصرار عليها تتحول إلى كبيرة كما أن الكبيرة تُمحى من الأساس مع التوبة والاستغفار لحديث (لا صغيرة مع إصرار، ولا كبيرة مع استغفار). وقال سبحانه: **(واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى)** (٨٢ ــ طه).

مضاعفة العذاب

وهنا نشير إلى إشكال مع الإجابة عنه، قال سبحانه: **(ومن جاء بالسيئة فلا يجزي إلا مثلها وهم لا يُظلمون)** (١٦٠ ــ الأنعام). فقد حصر سبحانه في هذه الآية جزاء السيئة بمثلها، وهذا حق وعدل، ولكنه قال تعالى في آية ثانية: **(ومن يفعل ذلك ــ إشارة إلى ما نهى عنه ــ يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة)** (٦٩ ــ الفرقان). وهذا بظاهرة يصطدم ويتعارض مع الجزاء بالمثل لأن معنى المضاعفة الزيادة، فما هو طريق الجمع بين الآيتين؟.

الجواب:

أولاً إن المضاعفة هنا كناية عن هول العذاب وشدته. ثانياً إن المذنب على نوعين: الأول ظالم نفسه وكفى كمن ترك فرضا من عبادة ــ مثلاً ــ وهذا ونحوه هو المقصود بآية (بلا يجزى إلا مثلها).

الثاني يتعدى وزره ويسري إلى الآخرين كمن (سن سنة سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة). وهذا ومن على شاكلته المقصود بمضاعفة العذاب.. هذا، إلى أن من كفر بالله أو أشرك به أو اعتدى على حرية الآخرين وكرامتهم وأشيائهم ــ يقلّ في حقه أيّ عذاب مهما تضاعف وتكاثف.

القانون الأخلاقي فوق الجميع

من أهم خصائص القانون ــ من أي نوع كان ــ أن يشمل ويُطبق على جميع الناس من غير تفرقه وتمييز، لأن القانون هو العقل والعلم والحق والعدل، ولا شيء من ذلك يقبل التقييد التخصيص.. هذا، إلى أن موضوع علم الأخلاق السلوك والنشاط الإنساني على أساس الخير والفضيلة، ومعنى هذا أن قوانينه وقواعده ومبادئه إنسانية وجدانية، وتخصيصها بفئة دون فئة أو فرد دون فرد معناه تجزئة الطبيعة البشرية وانقسامها على نفسها.

وأخيراً فإن مبادىء الأخلاق لا تخضع لأحد، ويخضع لها الكبير والصغير على السواء، بل وبها يكون الإنسان كبيراً وشيئاً مذكوراً.

لا أخلاق بلا حرية

قلنا فيما تقدم: ان مصادر الإلزام الأخلاقي هي الوحي والعقل والضمير، وكل هذه المصادر والبصائر تقرر حرية الإنسان وتؤكدها، لأن أفعاله لن تكون أخلاقية إلا إذا انبثقت من أعماقه، وكانت ثمرة يانعة لنيته وإرادته بلا تكلف والتواء وتصنع ورياء، ولولا الحرية لم يكن للإنسانية عين ولا أثر.

ثم إن الحرية ليست ملكة موروثة عن الآباء والأجداد، ولا صفة مكتسبة من التربية والبيئة، ولا هي ثمرة من ثمرات التطور التاريخي كما يقول الماركسيون، وإنما هي صفة ذاتية للإنسان لا يمكنه التحرر منها، وان حاول واجتهد، وبالقدرة والحرية يسوغ الإلزام والتكليف، قال سبحانه: **(لا يكلف الله نفساً إلا وسعها)** (٢٨٦ البقرة).

ويرى بعض الباحثين أن أية عقيدة يدين بها الإنسان أو أية سيئة يقترفها متأثراً بالوسط الذي يعيش فيه وتبعاً لتقاليد المجتمع وعاداته ــ فهي مقدرّة عليه وغير مقدورة له لأنها من صنع المجتمع وهو الذي فرضها عليه لأن الفرد جزء من مجتمعه وبيئته التي نشأ فيها، وهذه السيئة الاجتماعية صارت بمرور الزمن نظاماً عاماً وطبيعة ثانية ثابتة لأفراد المجتمع.

والحق التفصيل بين فرد وفرد: فإن كان من الذين يملكون الوعي والاستعداد، وقد التفت وشكّ فيما عليه أهله ومجتمعه ــ فعليه أن يبحث بحثاً جاداً عن الحق والحقيقة، ويسأل من يثق به من أهل الفكر والعلم، ويعمل بعد اليأس وافراغ الوسع بما انتهى إليه من بحثه وسؤاله، فإن أهمل ومضى على سنة الآخرين: إما تعصباً وإما لأنه لا يريد أن يكتشف خطأً آمن بصحته عشرات السنين وإما لأنه إباحي متهرطق فالحق والباطل عنده بمنزلة سواء،

إن كان شيء من ذلك استحق التوبيخ والعقاب إن جانب الواقع والصواب في عقيدة أو عمل.. وفقهاء الإسلام يسمون هذا مقصراً لأنه أهمل البحث والفحص ومسيئاً إلى نفسه لأنه ألقاها بالتهلكة عن قصد وعمد.

وان كان عاجزاً لا يملك الاستعداد والوعي، أو لم يلتفت ويشك في صحة ما يتجه إليه ويعتقد به لأنه منذ البداية آمن به إيمان العجائز ــ فهو معذور وغير مسئول تماماً كالحيوان من حيث العجز والقصور، ولذا يسميه الفقهاء بالقاصر والعاجز.

والذي رأيناه بالحس والعيان أن أكثر الذين يملكون الاستعداد يرفضون في مكابرة وعناد الأدلة المعارضة لأفكارهم حتى ولو كانت من المسلمات الأولية التي تثبت نفسها بنفسها.. ومنهم من يعارض الفكرة قبل أن يطلع على مدركها ويستمع إلى دليلها من علمائها والمؤمنين بها! ولا عذر لهؤلاء وشفيع.

لا شيء فوق الإنسان إلى خالق الإنسان

وبعد، فمن الصعب العسير أن نحدد هوية الإنسان بعقائد مجتمعه، ونسجن مواهبه في زنزانة بيئته، كيف؟ ولا معنى لهذا إلا الإلغاء لوجوده وشخصيته، وجعله ريشة في مهب الريح أو كرة تتقاذفها الأقدام، وإلا النفي والجحود بالعبقريات والعباقرة الذين سبقوا زمانهم ومجتمعهم مئات السنين، وأضاءوا الطريق للحضارة، ومهدوا لحياة مثلى، ومن هنا قيل في الإنسان: «ليس فوقه إلا خالقه.. وهو يضاهي السبع الشداد.. وفيه انطوى العالم الأكبر».

حتى الأفراد العاديين يستطيعون الرفض والمعارضة والثورة والمعاكسة. فمنذ سنوات قليلة ثار الشباب في الغرب، وتمردوا على المجتمع والسلطة مطالبين بتغيير الأوضاع التي تسحق المستضعفين، ورفعوا شعار الرفض بكلمة (ممنوع المنع) وكان لثورتهم أبلغ الأثر في كل الأوساط.. أليس معنى هذا أن لكل إنسان حرية وكرامة تفعل فعلها وتؤثر أثرها، وأنه لا أحد يستطيع أن يسلبه اياها إلا أن يتنازل هو عنها بإرادته وسوء اختياره؟.

وقال، عز من قائل: **(ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه)** (١٧٦ ــ الأعراف)... ــ **(فلا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله)** (٢٦ ــ ص).. **(وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون)** (١٧٠ ــ البقرة). والمفهوم من هذه الآية الكريمة أن على العاقل أن يناقش عقائد الأسرة والمجتمع، ولا يخضع لما يعتقدون ويفعلون إلا بهدي من العقل، وإن أذعن واستسلم

بلا بحث وفحص فقد تخلى عن عقله وأساء إلى نفسه.

وقال سبحانه حكاية عن أهل الجحيم: **(وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا من أصحاب السعير)** (١٠ ــ الملك). وهذه الآية من أوضح الأدلة على أنه يجب على الإنسان أن يستعمل عقله فيما يمر به، ويحتكم اليه فيما يعرض له، ومن أهمل وتكاسل فهو في الدرك الأسفل من النار.

والخلاصة أن أثر المجتمع والأسرة والبيئة مهما بلغ من القوة فانه لا يبلغ حد القهر والإلجاء، ولا يزيد عن أثر الجنس وغريزته وحب المال وشهوته، وقد رأينا العديد من الناس يتغلبون على هذين إذا كان في المال والجنس ضرر أو إثم، وكذلك أيضاً يمكن التغلب على ضغط المجتمع وتقاليده إن كانت ضلالاً وفساداً.

الظروف الطارئة

تقدم أن الإلزام الأخلاقي تماماً كالإلزام الشرعي في شرط القدرة والحرية كضمان لطاعته وتنفيذه. ونشير هنا إلى تحديد هذه القدرة، وهي كما في كتاب الله وسنة نبيه أن لا يكون معها ضرر ولا حرج، وبيان ذلك أن القادر على تنفيذ الإلزام قد يقدر عليه بيسر وسهولة، وقد تطرأ عليه أحوال وحوادث تجعل تنفيذ الإلزام مضراً به أو مرهقاً له، وان لم يعجز عن فعله بكل طريق.

والقوانين الوضعية تسمي هذه الحال (نظرية الظروف الطارئة) وفقهاء الإسلام يسمونها بقاعدة الضرر إن كان تنفيذ الإلزام مضراً بالمنفذ والفاعل كالضعف في قوته، أو النقص في أمواله، أو المس من كرامته، ويسمونها بقاعدة الحرج إن نفّذ الفاعل الإلزام بشق النفس وارهاقها من غير أذى ومضرة كضراوة الحر أو البرد مع سلامة الجسم، ومع الحرج يسقط الإلزام والحتم لقوله تعالى: **(وما جعل عليكم في الدين من حرج)** (٧٨ ــ الحج). وبالأولى أن يسقط مع الضرر لأنه أشد من الحرج بالإضافة إلى حديث (لا ضرر ولا ضرار).

لا حرج من قبلُ ومن بعدُ

قال لفيف من الكاتبين: ان الله ــ تعالى علواً كبيراً ــ أحرج الأمم السابقة في أحكامه وشريعته دون أمة محمد(ص) تكريماً له وتعظيماً، وأسندوا هذا الزعم إلى قوله سبحانه:

(ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ــ آخر سورة البقرة). وينطوي هذا الرأي على أن الإلزام الأخلاقي يبقى قائماً مع الحرج والمتاعب.

وفي هذا القول جرأة ومغامرة.. الله يتشدد على عبد من عباده، ويُضيق عليه ويُحرجه فيخرجه إلى التمرد والعصيان؟ وهل تسوغ هذه القسوة من مخلوق لا يسنّ القوانين ولا يُشرّع الشرائع؟ فكيف بمن يطمح المذنبون إلى مغفرته، ووسع كل شيء برحمته، ودبّر الكون بحكمته، ولا حلال وحرام إلا ما حلل وحرم؟.

ثانياً: لقد أوضح القرآن الكريم وصرح في الآية ٧٨ من الحج بأن شريعة إبراهيم(ع) ما كان فيها من حرج، وأن شريعة محمد(ص) تماماً كشريعة أبي الأنبياء والمرسلين والحجازيين وغيرهم كثير، قال سبحانه: (وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة ابراهيم أبيكم) ــ والمراد بالملة هنا الشريعة.

ثالثاً: ولماذا هذا التضييق في رحمة الله، والاحتكار لنعمته؟ وهل في ذلك كمال وجلال لذات الله وصفاته، أو أن المسلمين هم شعب الله المختار، كما زعم الإسرائيليون ذلك لأنفسهم في كتابهم وتوراتهم؟.

ومن يدري أن القول بنفي الحرج عن شريعة محمد(ص) دون الشرائع، ليس من أصابع إسرائيلية خفية كيلا يقال بأن زعم اليهود (شعب الله المختار) وحيد في بابه؟ وكم في كتبنا من إسرائيليات.

أما المراد بالذين من قبلنا في آية الإصر فهم اليهود حيث ملأوا الأرض ضلالاً وفساداً، وقالوا من جملة ما قالوا: يد الله مغلولة.. وانه فقير وهم الأغنياء.. وعبدوا العجل وقتلوا الأنبياء.. وغير ذلك مما لا يتسع له المقام، فاتخذ سبحانه في حقهم بعض الإجراءات العاجلة كما جاء في الآية ١٤٦ من الأنعام: (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم.. ذلك جزيناهم ببغيهم).

فهذا الإصر والتشدد على الذين هادوا تدبير خاص في حادثة معينة، ومثلها لا ينقض القاعدة العامة، بل يزيدها رسوخاً وثباتاً.

وخلاصة القول ان نفي الحرج أصل عام لا يختص بأمة دون أمة، ولا بمجتمع مقبل أو مدبر، فكل تكليف بفعل صعب مستصعب فهو موضوع عن عباد الله من الأولين والآخرين،

وإن كان في حدود طاقتهم ولكن بشق الأنفس.

حول الخير

والآن، وبعد الحديث عن الإلزام بفعل الخير وترك الشر ومصدره وشروطه نشير إلى مناقشات كثيرة وطويلة أثيرت حول مفهوم الخير والمعيار الذي يقاس به، ويمكن ارجاع الأقوال في ذلك والمناقشات إلى ثلاثة معايير:

الأول النظر الى الجانب الموضوعي المادي البحت، وهو نفس الفعل، واهمام شخص الفاعل، والمعيار الثاني بالعكس، نظراً إلى الجانب الذاتي، وهو شخص الفاعل ومقاصده دون الفعل، وجمع المعيار الثالث بينهما معاً، بين الفعل والفاعل والذات والموضوع، وهذا هو المعيار الإسلامي السليم والمنهج المنطقي القويم.

ويندرج في المعيار الأول قول من قال: كل فعل يجلب النفع واللذة والسعادة والصلاح للفرد أو الجماعة فهو خير مهما كان الباعث عليه والسبب الموجب لوجوده، والماركسيون على هذا المبدأ حيث قالوا بأن الأخلاق نتيجة حتمية للاقتصاد، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

واشتهر عن الفيلسوف اليوناني ابيقور (ت ٢٧٠ ق.م) ــ أنه فيلسوف المعدة والملذات حيث قال فيما قال: الحياة الطيبة المباركة خيرٌ أولاً وآخراً. ودافع عنه بعض الباحثين بأن أبيقور كان ممعوداً، وأنه عاش على الخبز، وكان يتلهف على قطعة من جبن، وان فلسفته تقوم على أن دفع المفسدة أولى من جلب المصلحة واللذة، وليس على الشره النهم، وأنا وكل عاقل يفضل حياة بلا ألم ولذة على حياة فيها لذة وألم: (فمن زحزح عن النار) فقد فاز وان لم يدخل الجنة.

ومهما يكن من أبيقور وغيره فان هذا المعيار بعيد عن الصواب لأنه يلغي شخصية الإنسان ويجعله مجرد آلة صماء لا يستحق الشكر على أفضل الأعمال وأجداها مع أن الله سبحانه والناس جميعاً يذكرون ويشكرون من يفعل خيراً ويحسن صنعاً. قال عز من قائل: **(ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم)** (١٥٨ ــ البقرة).

وليس من شك أن كل ما يحمي الحياة من الأسواء، ويأخذ بيد البشرية إلى ما تبغيه من أمن وعدل يصون الحقوق في كل الميادين، ومن عيش وادع وكريم لا أثر فيه لمستأثر ومحتكر ــ فهو خير، وكل ما يمس حياة الناس بأذى فهو شر، ولكن ليس معنى هذا أن فاعل الخير

مجرد آلة لا وزن لحسه وشعوره.. كيف؟ **(ولقد كرمنا بني آدم)** (سورة الإسراء) كما قال من خلق الإنسان في أحسن تقويم؟. وقال الإمام أمير المؤمنين(ع): «فاعل الخير خير منه، وفاعل الشر شر منه» لأن الفاعل علة الفعل، والعلة أقوى من المعلول وأكمل.

وقال هيجل: الخير كل الخير في طاعة الحكومة، والشر كل الشر في معصيتها. وقال آخرون: ما يراه الناس حسناً فهو عند الله حسن، ومثله أو قريب منه قول راسل: كل ما يقضي على ما بين الناس من تعارض فهو خير.

ويلاحظ بأن الحكومات والناس غير منزهين عن الجهل والأخطاء والشهوات والأهواء، ومن يكون كذلك لا يصلح مقياساً لحلال وحرام ولا يميز بين خير وشر، وصدق الله العلي العظيم: إذ يقول: **(ولكن أكثر الناس لا يعلمون)** (٢١ ــ يوسف).. وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله) (١١٦ ــ الأنعام).

ومن المعيار الثاني قول الصوفية بأن الأفعال الأخلاقية تُحدد بالباعث والنية فقط.

ويلاحظ بأن للنية ثقلها وأثرها، ولكنها لا تقلب الموازين والحقائق، فتجعل الحسن قبيحاً والقبيح حسناً، ويأتي الكلام عن النية في فصل مستقل.

وقال من قال: لا يمكن القطع بمقياس واقعي للخير لأن الفعل قد يعتبر خيراً عند قوم، وشراً عند آخرين.

ونجيب بأن هذا الاختلاف نتيجة طبيعية لعوائل بيئية وخارجية، ظروف شخصية أو عائلية، وليس بناشئ ومنبعث عن ضمير متيقظ للخير، ولا عن عقل متفتح على الحق وإلا لاستحال التناقض والاختلاف (أنظر فقرة فلاسفة اللاأخلاق وفقرة بين الأخلاق والعادات من فصل حول الأخلاق).

أما الإسلام فانه يجمع بين الذات والموضوع معاً، ويربط الفاعل بالفعل ويقول: **(إن الذين كفروا من أهل الكتاب في جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية، إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية)** (٧ ــ البينة). وفي آية ثانية: **(إلاّ من أتى الله بقلب سليم)** (٨٩ ــ الشعراء). **(والعمل الصالح يرفعه)** (١٠ ــ فاطر).

وفي الحديث الشريف: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم).

إن القلب يضخ الفعل الاختياري ويبرزه إلى الخارج كما يضخ الدم في الجسم دوّاراً، فكيف نفصل بينهما؟. وعلى هذا الأساس قرن القرآن الكريم الإيمان بالعمل الصالح في العديد من سوره وآياته، وإذن يجب التركيز على الذات والموضوع، الفعل والفاعل معاً.

الهوامش

(١) قيل: ان الأخلاق تنقسم باعتبار مصدرها إلى ثلاثة أقسام: دينية، ويسميها الفقهاء الآداب الشرعية، وعقلية، ويسميها علماء الكلام بالحسن والقبح، وغائية أي أن أخلاقية الفعل تتبع المصلحة سواء كانت هذه المصلحة لذة أم سعادة أم مجرد دعوة اجتماعية (أي عرفية) ونحن نحصر اخلاقية الفعل بما وافق الوحي والعقل السليم، ولا نقيم أي وزن لغيرهما.

(٢) نقلاً عن أرسطو كما جاء في مقال القانون وإلارادة المنشور في مجلة عالم الفكر العدد الثالث من المجلد الرابع بقلم الدكتور تناغو استاذ القانون بكلية الحقوق ــ الاسكندرية.

(٣) المجتمع أو الرأي العام في عصرنا تصنعه السياسة المغرضة، وتروجه وسائل الإعلان من صحافة وإذاعة وسينما وتلفزيون، وجل هذه الوسائل وغيرها يتحكم بها ويستحوذ عليها اليهود والصهيونية، فاحذرهم أن يفتنوك عن هذا الطريق وغيره.

عام وخاصّ

ثم إن الإلزام بالخير منه عام لاّ يختص بفرد دون فرد ولا بفئة دون فئة أو بزمان دون زمان كالايمان بالله والعمل بالحق والعدل والوفاء بالعهد والأمانة، ومنه خاص كواجبات العلماء والحكام والأغنياء، فأول الواجبات على العالم أن يعمل بعلمه، والواجب الأساسي على الحاكم أن يأمن الضعيف من ظلمه، ويخشى القوي من عدله، أما الغني فيجب عليه كفاية أن يسد جوعة المضطر حتى ولو كان الغني قد أدى ما عليه من أخماس وزكوات، قال الإمام أمير المؤمنين(ع): «ما جاع فقير إلا بما متع به غني، والله سائلهم عن ذلك».

بل يجب كفاية على كل قادر أن يدفع الأذى عن العاجز أياً كان نوع العجز. أما قول الفقهاء: يجب انقاذ الحريق والغريق فهو لمجرد التمثيل، وكفى بقوله تعالى حجة ودليلاً: **(ارأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدعّ اليتيم ولا يحضّ على طعام المسكين)** (٣ ــ الماعون). والمراد باليتيم هنا الضعيف صغيراً كان أم كبيراً، وبالمسكين المعوز.

التوازن بين الواجبات

الإنسان روح وجسد، ولكل منهما مطالب وواجبات، وعملية التوازن بين مطالب الاثنين وواجباته تحتاج إلى روية وحكمة، وذلك بأن لا نطلق الحرية والعنان لكل منهما في مطالبه، بل يجب أن نقيد مطالب الجسد بعدم الإضرار والإجحاف بمطالب الروح والباقيات الصالحات، ونقيد مطالب الروح أيضاً بالحرص والمحافظة على مطالب الجسد والطيبات من الرزق، وبكلمة أن لا نؤثر أحدهما على حساب الآخر، وبذلك يتحقق الانسجام والترابط في جامع يضم مطالب الروح والجسد معاً.

ونضرب مثلاً بقصة الإمام أمير المؤمنين(ع) مع عاصم بن زيد الحارثي الذي لبس العباءة وتخلى عن الدنيا، فقال له الإمام(ع): يا عدوَّ نفسه لقد استهان بك الخبيث ــ الشيطان ــ أما رحمت أهلك وولدك؟ أترى أن الله أحلّ لك الطيبات وهو يكره أن تأخذ منها؟ أنت أهون عليه من ذلك».

وقوله (أهون) يتضمن الإنكار على من حرم على نفسه زينة الله والطيبات من الرزق، وماذا يصنع الله بزهد الإنسان ورهبنة الرهبان **(ولكن يناله التقوى منكم)** (٣٧ ــ الحج).

ومن التقوى أن نعطي كل ذي حق حقه، قال الرسول الأعظم(ص): «ان لربك عليكم حقاً،

وأن لنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فاعط لكل ذي حق حقه)). وقال: ((ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته، ولا من ترك آخرته لدنياه، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه.. من طلب الدنيا مكاثراً مفاخراً لقي الله وهو عليه غضبان، ومن طلبها استعفافاً وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر)).

أبداً لا فارق وفاصل في دين الإسلام بين العمل للدنيا والعمل للآخرة ما دام كل منهما من أجل حياة أفضل، وإنما الفصل والحد بين الحلال والحرام، بين الظلم والعدل، بين المحاباة والمساواة، بين أن تعيش بكد اليمين، وأن تعيش على حساب الآخرين: **(تلك حدود الله، فلا تعتدوها، ومن يتعدّ حدود الله فأولئك هم الظالمون)** (٢٢٩ ــ البقرة).

ومثلاً آخر من سنة الرسول الأعظم(ص): رأى الصحابة في ذات يوم شاباً قوياً يسرع إلى عمله، فقال بعضهم: لو كان هذا في سبيل الله، فرد النبي عليهم وقال: لا تقولوا هذا، فان كان خرج يسعى على اولاد صغار فهو في سبيل الله، وان كان خرج يسعى على أبوين شيخين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج رياء ومفاخر فهو في سبيل الشيطان.

هذا السعي للنفس والآباء والأولاد كله لله والآخرة وان كان من المصلحة الخاصة ما دامت حلالا.. أرأيت إلى هذا الالتصاق والوفاق بين دنيا الحلال والآخرة وهل من شيء أقوى في الدلالة وأوضح على ان دين الإسلام هو دين الحياة لا دين المغيبات فقط. (فبأي حديث بعده يؤمنون؟).

بهذا الحديث وبامثاله من كتاب الله وسنة نبيه، وبهذا المنهج السليم في فهم الإسلام ــ يجب أن نخاطب نحن حملة الدين ودعاته، الشاب المثقف الذي يطالب بتغيير الدين وتطويره!.. إن قلوبنا وأدمغتنا نحن المرشدين والمبلغين هي التي يجب أن تتغير وتتطور وليس الدين الذي جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين.

ولا أدع الكلام حتى أذكر مثلاً واحداً على فهم أهل البيت(ع) لدين جدهم رسول الله(ص)، قال رجل للإمام الصادق(ع): إني أحب الدنيا، قال الإمام: تصنع بها ماذا؟ قال: اتزوج منها واحج وانفق على عيالي وانيل اخواني. قال الإمام: ليس هذا من الدنيا، هذا من الآخرة.

وهكذا ارتفع فهم المعصوم لدين الله وجده رسول الله على كل فهم.. فأي شيء يحقق أملاً من آمال الإنسانية، ويخطو بها إلى ما فيه صلاح للناس بجهة من الجهات فهو رضا الله

ومن خير الآخرة وثوابها، وعلى هذا الفهم المعصوم يجب أن يعرض كل تفسير وتأويل لكتاب الله وكل قول أو فعل او تقرير يُنسب إلى رسول الله(ص)، فما صدقه وشهد له فهو من الإسلام وإلا فهو بدعة وزخرف.

أورع الناس من وقف عند الشبهة

كل الحقوق والواجبات تصاغ في أطر عامة وقواعد كلية أخلاقية كانت أم شرعية أم سياسية أم غير ذلك، أما الجزئيات فتُستخرج أحكامها من القوانين حيث لا حصر لها ولا عد، ولا يسوغ أن تترك لضمائر الأفراد فتستخدم في أحامها ما هب ودب، وعن الإمام الصادق(ع) أنه قال: علينا أن نلقي اليكم الأصول، وعليكم أن تفرّعوا.

ومن أمثلة هذا التفريع ما روي عن الإمام الباقر أن رسول الله(ص) نهى عن القيل والقال، وفساد المال وكثرة السؤال، فقيل له: أين هذا من كتاب الله؟ فاستخرج النهي عن القيل والقال من الآية ١١٤ من النساء: (لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس) وأرجع النهي عن فساد المال إلى الآية ٥ من النساء: (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما) أما النهي عن كثرة السؤال فدليله الآية ١٠ من المائدة: (لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم).

وأيضاً عن الإمام الصادق(ع): (أورع الناس من وقف عند الشبهة، وأعبد الناس من أقام الفرائض، وأزهد الناس من ترك الحرام). وعليه يمكن القول بأن أشقى الناس في آخرته من اقتحم الشبهات ناسياً الدين والإيمان وأشد من هذا شقاوة وعداوة لله ورسوله من اخترع المبررات لارتكاب المحرمات تبعاً لأهوائه واهواء أبنائه، وهذا وأمثاله هم السبب الاول لهدم الدين باسم الدين بدليل قول المعصوم: (هم أشد على الإسلام من جيش يزيد بن معاوية).

مهدنا بما تقدم لكي نشير إلى أن أهون شيء على الإنسان أن يحرك لسانه في فمه كيف شاء متى شاء، فيصف الجبن بالوداعة والتواضع، والاستسلام للذل والهوان بالقضاء والقدر، والتقتير بالتدبير، وإثارة الحروب بالحفاظ على السلم، والكذب بالحجة الدامغة، وكثير من الأطفال يحفظون قصة ذاك الذئب مع الحمل المسكين الذي عكّر الماء عليه مع أن الذئب كان في أعلى الماء والحمل في أدناه، ثم دعوى الذئب بأن أبا الحمل قد سبه وشتمه.. ومعلوم أن كل حمل في الدنيا لا يعرف أباه، ولكن هذا الذئب عرف أبا هذا الحمل

الذي يريد أن يفترسه، عرفه باسمه وشخصه!.

وهكذا ضعيف الدين والإيمان يزور الواقع، ويخضع الحق لأهوائه وتبعاً لمطامعه كما فعل الذئب، واليك هذا الشاهد الخالد:

قال ابن خلكان في وفيات الأعيان، وهو يترجم للقاضي أبي يوسف: ان هارون الرشيد أحب جارية عيسى بن جعفر، فسأله هبتها أو بيعها فأبى وقال: حلفت بالطلاق والعتاق وصدقة جميع ما أملك إن بعتها أو وهبتها، فطلب الرشيد من أبي يوسف أن يوجد له حلاً شرعياً لهذه المعضلة. فقال أبو يوسف لعيسى هبه نصفها وبعه نصفها، ولا حنث عليك في ذلك لأنك ما بعتها كلها ولا وهبتها كلها.

ففعل عيسى حيث لا بد مما ليس منه بد، وحملت الجارية إلى الرشيد وهو في مجلسه. فقال الرشيد لأبي يوسف: بقيت واحدة. قال: ما هي؟ قال: إنها جارية ولا بد أن تستبرىء بحيضة، وإذا لم أبت ليلتي معها خرجت نفسي. قال أبو يوسف: اعتقها فتصبح حرة، واعقد عليها بعد العتق، فإن الحرة لا تستبرىء. فاعتقها الرشيد، وعقد له عليها أبو يوسف، وقبض مئتي ألف!.

ولا فرق اطلاقاً بين من يحتال ويحرف دين الله وشرعه تبعاً لهوى خليفة أو قوي، وبين من يحرفه تبعاً لهواه أو هوى أبنائه. ومن جملة ما قرأت أن العالم النفساني الكبير ادوارد ليتين قال: ((إن بعض الآباء يذعنون لرغبة ابنائهم حتى يتصور المرء أن الأبناء هم الكبار، وأن الأب هو الصغير الذي لا يملك إلا أن يسم ويطيع)).

وهذه صورة طبق الأصل لما سمعناه من الناس عن البعض، ويا للأسف!. فأين الاحتياط الذي قرأناه في كتب الفقه وأصوله، والابتعاد عن التهم والشبهات؟ ألا يكفي ما يحيط بنا من الأعداء، وما نحن فيه وما هو قادم علينا؟.

وبعد، فان الله سبحانه يعذر من ينسى جزءاً من أجزاء العبادة أو يخطىء في فهم نص من النصوص إذا كان صادقاً في قصده جاداً في بحثه، قال سبحانه: **(وليس عليكم جناح فيما اخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم)** (٥ ــ الأحزاب) إنما الإثم والجرم على من حرف وزيف، واستبد بأمره دون أمر الله جل وعز.

المسؤولية

لا مسؤولية بلا إلزام

تقدم أن عناصر الخير والفضيلة خمسة: الإلزام، وحدثناك عنه في فصله السابق بلا فاصل، والمسؤولية، وهذا فصلها، ثم الجزاء وبعده النية، وبعدها الجهد، وهكذا ننتقل من فصل إلى فصل حتى ننتهي من بيان الجذور للخير والفضيلة.

والإلزام هو الأصل والشرط الأساسي للمسئولية فإذا انتفى الالزام لجنون أو صغر أو إكراه أو نسيان بلا تقصير ــ فلا مسئولية حيث لا نقش بلا عرش، أو كما قال الإمام(ع): «فما بقاء فرع بعد ذهاب أصله».

وكما ان الإلزام شرط لا غنى عنه لقيام المسؤولية فكذلك الجزاء نتيجة منطقية للمسئولية إذ لا يستقيم مع العدل أن يستوي الخبيث والطيب، وأن يفلت المسيء من العقاب، ويحرم المحسن من الثواب، وبالتالي لا يكون لله عند أحد من نعمة تجزى تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً..

وبهذا يتبين معنا أن الإلزام والمسؤولية والجزاء حلقات متماسكة متشابكة لا انفصام لها ولا انفصال.

تعريف المسؤولية

وخير ما نعرف به المسؤولية المتفرعة عن الإلزام قوله تعالى: **(كل نفس بما كسبت رهينة)** (٣٨ ــ المدثر).. **(لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت)** (٢٨٦ ــ البقرة).. **(أيحسب الإنسان أن يترك سدى)** (٣٦ ــ القيامة).. **(فوربك لنسألنّهم اجمعين عما كانوا يعملون)** (٩٣ ــ الحجر).. فقد ربطت هذه الآيات عمل العامل بالسؤال عنه والحساب عليه والجزاء: ان خيراً فخير، وإن شراً فشر، ومعنى هذا أن حروف المسؤولية تؤدي بذاتها المعنى الذي وضعت له.

أما الشعور بالمسؤولية فيتولد تلقائياً في داخل الإنسان حين يسمع نداء الضمير بالالزام والواجب الأخلاقي ــ طبعاً لا يُسمع هذا النداء إلا مع توافر الحرية الكاملة والقدرة على طاعة الإلزام وامتثاله ــ وفي هذه الحال يكون الضمير هو السائل وصاحبه هو المسئول، لا واسطة بين المرء وضميره فيما يعود إلى الإلزام الأخلاقي. قال الإمام أمير المؤمنين(ع): «حاسب نفسك لنفسك، فان غيرها من الأنفس لها حسيب غيرك».

ربكم ذو رحمة واسعة

أجل، ان الله سبحانه يسأل ويحاسب، ولكنه أيضاً يحلم ويرحم، ويغفر ويصفح، ويمهل ولا يعاجل لأنه ــ جلت عظمته ــ يعلم أن عباده ضعاف قاصرون لا طاقة لهم على عدله، ولا نجاة لهم إلا

بفضله، وان أفعاله بكاملها تجري على الرحمة والتفضّل: **(وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب)** (٥٨ ــ الكهف).

وكان الأنبياء والرسل يضيقون ويتبرمون من تمرد المشركين وعناد الطاغين حتى قال نوح(ع): **(رب انهم عصوني... رب لا تدع على الأرض من الكافرين ديارا)** (٢٦ ــ نوح). وقال موسى(ع): **(رب لو شئت أهلكتهم من قبل واياي)** (١٥٥ ــ الأعراف). وقال سبحانه لنجيه محمد(ص): **(ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون)** (٩٧ ــ الحجر).. **(فان كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة)** (٤٧ ــ الأنعام) وتنطوي هذه الآية الأخيرة على سر عظيم من أسرار الذات القدسية وصفاتها الكريمة السخية.

كذّب المعاندون خاتم النبيين، وجحدوا برب العالمين، وتجاوزوا كل حد وطور، فكادت نفس النبي(ص) تذهب تحسراً وتبرماً فقال سبحانه لرسوله الكريم: مهلاً لا تؤيسهم من الأمل في مغفرتي، وان جحدوا وعاندوا، فاني لا أحب أن يغلب القنوط على قلوبهم من رحمتي، كيف؟ وهي أرحب وأوسع من ذنوب الخلق كلهم أجمعين.. ولا بدع فان الأب يرأف بابنائه وإن لم يسمعوا له ويطيعوا، والله سبحانه أرحم بعباده من الآباء والأمهات بابنائهم، قال الإمام الصادق(ع): «إذا كان يوم القيامة نشر سبحانه رحمته حتى يطمع فيها ابليس» (سفينة البحار). وقال الإمام السجاد وزين العباد(ع): «العجب ممن هلك كيف هلك مع سعة الرحمة الإلهية» وأيضاً قال، وهو يمجد الذات القدسية ويناجيها:

«لم تعاجل العاصي بنقمتك لكي يستبدل بحاله في معصيتك حال الإنابة إلى طاعتك، وقد كان يستحق في أول ما هم بعصيانك كل ما أعددت لجميع خلقك من عقوبتك فجميع ما أخرت من عذابٍ تركٌ من حقك ورضى بدون واجبك، فمن اعظم منك؟. وعفوك أحب اليك من العقوبة.

يمهل سبحانه العاصي في الكبائر حتى كأنه ما أساء ولا عصى، أو كأن الله قد سامح وعفا.. ولو عاجل بالعقوبة لكان ذلك حقاً وعدلاً، ولكن لم يفعل، ولماذا؟ لأن من شأن

الربوبية أن تحلم وترحم، وأن تُؤجل وتمهل، لعل الذي أسرف على نفسه يتداركها بالتوبة والإنابة التي فتح سبحانه أوابها لكل راغب بلا مانع وحاجب بينه وبين خالقه، ولا شيء أبغض إليه تعالى من أن يشقى عبده بعذابه، ولا أحب إليه من أن ينعم بثوابه: **(قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم)** (٤٩ ــ الزمر).

كرر سبحانه في هذه الآية الرحمة والمغفرة تأكيداً لعفوه عن الذين أسرفوا على أنفسهم بالمعاصي والذنوب، وأنه تعالى يبدل بالتوبة سيئاتهم حسنات. وفي الحديث الشريف: (ان الله لا يمل حتى تملوا، فإذا تركتم ترك) أي إذا تركتم التوبة من الذنوب ترك المغفرة.

باب العفو

والإمام السجاد(ع) يسمي التوبة باب العفو، وليست التسمية بالأمر المهم، وإنما المهم أو الأهم ما نقرأه في مناجاة الإمام، وهو يخاطب العلي الأعلى ويقول:

(أنت الذي فتحت لعبادك باب عفوك، وسميته باب التوبة... فما عذر من أغفل دخول ذلك المنزل بعد فتح الباب، وإقامة الدليل؟ وأنت الذي زدت في السوم على نفسك لعبادك تريد ربحهم في متاجرتهم معك، وفوزهم بالوفادة عليك.. فقلت: (اذكروني أذكركم.. وقلت: لئن شكرتم لأزيدنكم.. وقلت: ادعوني استجب لكم.. وقلت: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها.. وقلت: مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة والله يضاعف لمن يشاء.. وقلت: من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة)).

هذا الخطاب من الله تعالى لعباده: اذكروني اذكركم.. الدرهم منكم بسبعمئة مني، الخ، هو خطاب للعاطفة التي ترحب بكل ربح وكسب، والله سبحانه قد دعاها إلى متجره الذي ليس كمثله أي متجر لأن الرابح والسعيد هو المشتري والمستهلك، أما البائع فانه يعطي ولا يأخذ..

ومن عادة التاجر ودأبه أن يعلن عن تجارته، ويتحدث عنها، ويروج لها، والله سبحانه يدعو إلى دين الحق بالرضا والإقناع لا بالجبر والإكراه، وبالتحبب والتشويق، ويقيم الدليل تلو الدليل من القلب والعقل، ولا يدع لأحد حجة ولا عذراً إلا العناد والمكابرة.

قال سيد العابدين وإمام المتقين: «لو دل مخلوق مخلوقاً على مثل الذي دللت عليه عبادك منك كان محموداً» أي لو أن شخصاً ادعى لنفسه دعوة، وأقام عليها حجة من حجج الله سبحانه لاستجبنا له شاكرين حامدين، هذا وهو عبد مخلوق مثلنا، فما بال من كفر بمن فصل الآيات، وبهر البينات، وخلق الكائنات؟.

وبعد، فقد تنوعت الأدلة على وجود الله عند أهل الكلام الأديان والعلماء والفلاسفة، وتتبعت كل تفكير حول هذا الموضوع، وألفت فيه أكثر من كتاب ونشرت عشرات الفصول والمقالات، وما عرفت دليلاً أسهل من هذا الدليل وأيسر على الفهم.

حديث النفس

ما من أحد إلا وتوسوس له نفسه بخير أو بشرّ في كل موضوع حتى المستحيلات كداء فيها مزمن وملازم، ولا حيلة لصاحبها في اسكاتها ومقاومتها، وإذن ينبغي أن لا يسأل ويحاسب على ما تخوض فيه من حديث وخيال مع أن الله تقدست أسماؤه قال **(وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله)** (٢٨٤ البقرة). ويصطدم هذا بظاهره مع العدالة الإلهية حيث لا فرج ولا مخرج للإنسان عما توسوس به نفسه.

الجواب:

ان مصدر القرآن ينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض، وكما قال سبحانه: (وإن تبدو الخ قال أيضاً: **(لا يكلف الله نفساً إلا وسعها)** (٢٨٦ ــ البقرة)... **(وما الله يريد ظلماً للعباد)** (٣١ ــ غافر). إلى غير ذلك من آيات هذا الباب، ومعناها مجتمعة ومعطوفاً بعضها على بعض أن كل وسواس وحديث للنفس يبقي في داخلها ولا يتجاوزها إلى الخارج بقول أو فعل، فلا أثر له، وان المحرم منه ما كان له ثمرة مادية، ونتيجة ملموسة تماماً كما قال الرسول الأعظم(ص): «إذا حسدت فلا تبغي» حيث نهى عن البغي المترتب على الحسد، ولم ينه عن الحسد بالذات لأنه وصف انفعالي بحت لا يمتّ إلى طاقة الإنسان بسبب.

لا مسئولية بلا حرية وبلاغ

كل الحياة تجارب وعظات، ومصائب ومسؤليات لها أول وليس لها آخر إلا بالرد غداً إلى عالم الغيب والشهادة وحكمه الذي لا معقب له، ولا يظلم فيه أحداً لأنه تعالى لا يسأل

ويحاسب إلا بعد قيام الحجة بالبلاغ المبين منه سبحانه والقدرة التامة من العبد، قال، تقدست أسماؤه: (لا يكلف الله نفساً إلا ما أتاها) (٧ ــ الطلاق).. (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً) (١٥ ــ الإسراء). وقال الإمام الصادق(ع): (إن الله احتج على العباد بما آتاهم وعرفهم).

ومن الأمثلة الواضحة على هذه الحقيقة ما رواه صاحب أصول الكافي ج ٢ ص ٢٦٤: ان الفقراء يأتون الجنة يوم القيامة ويضربون بابها، فيقال لهم: من أنتم؟ فيقولون: نحن الفقراء، فيقال لهم: أقبل الحساب تبغون الجزاء؟ فيقولون: ما أعطيتمونا شيئاً تحاسبونا عليه.. فيقول المولى، تقدست أسماؤه: صدقوا، أدخلوا الجنة.

وإن دلت هذه الرواية على شيء فانها تدل على أن مسئولية الإنسان تختلف تبعاً لما يملك من صحة ونشاط وجاه ومال، ومن علم وذكاء، بل وحساسية وانفعال وعمق في النظر وحكمة في التدبير، فالغني مسئول عن الحق المعلوم في أمواله للسائل والمحروم، والعالم مسئول عن بذل العلم والعمل به، وصاحب الجاه مسئول عن السعي في حاجة كل ضعيف وملهوف، بالإضافة إلى تعاونه مع الآخرين على الصالح العام ومطالب الحياة للجميع بلا استثناء، بل يجب هذا التعاون على الكبير والصغير والقوي والضعيف: من كل حسب طاقته.

وقال بعض المؤلفين: «كان في القديم يقال: إن من نعم الله عليكم حاجة الناس اليكم، أما الآن فينبغي أن نناشد الناس جميعاً ونقول لهم: إن من نعم الله عليكم حاجة المجتمع اليكم، بل حاجة الكون اليكم». وقال نبي الرحمة(ص): «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله الصائم نهاره القائم ليله.. الخلق عيال الله، فأحب الخلق اليه أنفعهم لعياله». وقال الإمام الصادق(ع): «معنى قوله واجعلني مباركاً أينما كنت، اجعلني نفاعاً أينما كنت». فافضل الأعمال في كل زمان ومكان طاعة الله، وأفضل طاعاته تعالى ما عاد نفعه على عباده.

ومن الذي لا يحفظ حديث «كلكم راعٍ، وكلكم مسئول عن رعيته، فالرجل في أهله راعٍ، والمرأة في بيت زوجها راعية» الخ. وأهم المسئوليات الآن أن يقوم المسلمون جميعاً بانتفاضة واعية ثائرة ضد القيود التي تربطهم بعجلة الطامعين في أرزاقنا ومقدراتنا، وضد المواطنين الخونة الذين باعوا للشيطان دينهم وضمائرهم وأمتهم وأوطانهم.

حرية الطغاة في هذا العصر

ولمناسبة الإشارة إلى حرية الإنسان نسجل هنا بأسف وايجاز أن هذا العصر الذي نعيش فيه هو أسوأ ألف مرة من العصور الأولى التي كان الناس فيها ينقسمون إلى سادة وعبيد، وأشد قسوة على العدل والحرية من العصور الوسطى التي كان يلقى العلماء فيها اضطهاداً قاسياً من محاكم التفتيش.. أليست العنصرية معترفاً بها الآن في روديسيا وجنوب أفريقيا، ودياناً يدان به في الولايات المتحدة؟. هذا في النظام الرأسمالي (والعالم الحر) أما في البلاد الاشتراكية فالقيود تحدد ما ينطق به الإنسان من كلمات وما يمارس من أعمال وما يحوزه من أشياء.

وهل من الحرية في شيء أن يخير صاحب العمل الضعاف المحتاجين إلى العمل من أجل القوت، بين القبول بما يفرضه هو من أجر وبين البقاء لا عمل حتى الموت جوعاً؟.. وهكذا الشأن في كل ضعيف يحتاج إلى التطبيب والمعالجة وأجرة المسكن وقسط المدرسة لتعليم أولاده وثمن الدواء.. صحيح أن الإنسان لا يمكن أن يكون حراً بلا قيود في جميع مسالك الحياة، ولكن استغلال الفرد للفرد كما في الرأسمالية، والتضحية بالفرد في سبيل الجماعة كما في الاشتراكية ــ يمكن تجاوزهما بالتعاون على الجمع بين المصلحتين. لقد أخضع الإنسان الطبيعة لإرادته واستطاع الوصول إلى القمر، فهو يستطيع أيضاً أن يصنع ظروفاً إنسانية، ويعمل بالعدالة الاجتماعية.

ثم هل يمكن أن تحيا العدالة وتعيش في ظل الدعايات الكاذبة والإعلانات المضللة التي تبثها بمهارة صحافة هذا العصر وغيرها من وسائل الإعلام.. حتى الكثير من المدارس والمعاهد تحولت إلى أفاعي تنفث السموم، وتصب العقول في قوالب جامدة لا عين فيها للحرية ولا أثر.

وقرأت من جملة ما قرأت في هذا الباب مقالاً علمياً بعنوان العلم والحرية الشخصية في مجلة عالم الفكر الكويتية العدد الرابع من المجلد الأول، جاء فيه: «ان الجديد في عصرنا هذا هو أن السيطرة على العقول تتم بأكمل صورة ممكنة على أيدي كثير من الأخصائيين والبارعين بحيث تتوهم العقول نفسها بأنها حرة، وتوقن يقيناً تاماً بأنها تصدر عن ارادتها التامة ورغبتها الواعية».

ثم ضرب الكاتب العديد من الأمثلة على ذلك من ألمانيا النازية التي ضللت شعبها،

واستنزفت منه ومن البشرية جمعاء أرواحاً وأموالاً لا حصر لها، وأيضاً أورد أمثلة من حكومة الولايات المتحدة التي زيفت عقول الأميركيين وأودت بأرواح الألوف من شبابهم وبالمليارات من أموالهم في حرب فيتنام، وأشار الكاتب أيضاً إلى دعايات الصهيونية التي فاقت الجميع في تخدير العقول لدعم قضية باطلة، وادعاء الحق في بلد أقام فيه غيرهم ما يزيد على ألفي عام.

وبعد، فان من أخص خصائص الحضارة في هذا العصر، أنها أماتت الحق والعدل والحرية في كل ميدان من ميادين الحياة، وأحيت الجور والفساد والتضليل والتزييف والرياء والنفاق والنهب والاستغلال والتقتيل والتدمير والفسق والفجور، وأشاعت الشنآن والبغضاء بين الأفراد والفئات.. وهنا يكمن السر لنقمة الكثير من الشباب وغير الشباب وتمردهم على مجتمعاتهم وبيئاتهم، وبالخصوص في أروبا وأمريكا.

طرق المعرفة بالتكليف والالزام

أشرنا فيما سبق أن القدرة شرط في التكليف والإلزام الأخلاقي، ونشير هنا إلى أن معرفة الإلزام شرط أيضاً لا غنى عنه، والفرق أن القدرة شرط في أصل التشريع، أما المعرفة فهي شرط لتنفيذ الإلزام والعمل به، وطرق المعرفة بهذا الإلزام ثلاثة:

١ ــ الفطرة والبديهة، ولا شيء أكثر منها وضوحاً، ولذا تسمى معطياتها أولية حيث يشترك في معرفتها العالم والجاهل كوجوب المحافظة على الحياة والصحة والأمن، وحرمة القتل والاستغلال والعداء حنقاً وحسداً.

٢ ــ العقل النظري الذي ينتقل من معلوم إلى مجهول، من شاهد إلى غائب، قال سبحانه: **(فانظر إلى آثار رحمة الله)** (٥٠ ــ الروم) **(تعرفهم بسيماهم)** (٢٧٣ ــ البقرة) وفي نهج البلاغة: «بالصالحات يستدل على الإيمان.. استدل على ما لم يكن بما قد كان». وكل عقل وضمير يعترف ويوقن بهذه الحقيقة البديهية، وكل العلوم بشتى أنواعها تستدل بالمعلوم على المجهول، وتثبت الشيء المختلف فيه بالشيء المتفق عليه، ولولا هذا الأصل والمبدأ ما وجد علم ودين، ولا قياس للحق والباطل، ولا انقطع خلاف ونزاع أو أتى أحد بفائدة ما دام ينطلق من غير بداية وأساس.

ولا عذر إطلاقاً لمن يجهل أو يذهل عن الطريق الأول بعد الفرض بأنه من البديهات الأولية.. اللهم إلا أن يكون على مستوى البهائم في قصوره وادراكه، أما الجهل بالطريق

الثاني والثالث (أي الوحي والعقل) فإن كان مصدره اعتداد الجاهل بنفسه وأنه قد اتخذ منها مقياساً للحق والصواب، ويأبى أن يرفع رأسه وينظر إلى الحقيقة ودليلها حتى مع الإرشاد والتنبيه، فهو من الهالكين لا المعذورين، وإن كان الجهل قصوراً وعجزاً عن البحث والسؤال لسبب أو لآخر، فهو عذر شرعي وعقلي، وكذا الخطأ والنسيان مع التحفظ التام. ومن الذي لا يخطئ؟ والعصمة لأهلها، وخطأ العالم المجتهد بشهادة الرسول الأعظم(ص) حيث قال: (إذا أصاب المجتهد فله أجران، وان أخطأ فله أجر)) وبديهي أنه لا أجر إلا على فضل، ولكن بشرط الاعتراف بالخطأ بعد الكشف عنه قال سبحانه: **(وليس عليكم جناح فيما أخطأتم ولكن ما تعمدت قلوبكم)** (٥ ــ الأحزاب).

المسئوليات الثلاث

قلنا في أول هذا الفصل: إن المسؤولية تفترض مقدماً قيام الالزام لأنها عنه تنبثق ومنه تتولد، ونشير هنا أن المسؤولية بطبيعتها تستدعي سائلاً يكون الإنسان مسئولاً أمامه عن فعل ما يجب فعله، وترك ما يجب تركه، فمن هو هذا السائل الذي نقف أمامه للحساب؟.

الجواب:

هو الذي ألزم وكلّف، وأمر ونهى، وسبقت الإشارة إلى أن مصادر الإلزام والتكليف ثلاثة: الوحي والضمير والعقل، وأيضاً قلنا: إن هذه المصادر هي طرق لمعرفة الإلزام والتكليف، وسيتبين معنا أن الضمير يحاسب ويوبخ، ومعنى هذا أن الضمير يُلزم ويكلّف، ويسأل ويحاسب، وفي نفس الوقت يكون دليلاً على الإلزام والتكليف، ولا غرابة فان الإنسان يُبحث عنه في طائفة من العلوم بعدد ما فيه من الجهات والحيثيات.

ونذكر فيما يلي سلطات ثلاث يحق لها أن تسأل وتحاسب:

المسؤولية الأخلاقية

ومصدرها الضمير والوجدان النقي الذي يستحسن من الخير ما يستحسن تلقائياً ويستهجن من الشر ما يستهجن بالفطرة، ويدرك أن هذا يجب أن يترك وذاك يجب أن يفعل، وقد يجعل الإنسان نفسه مسئولاً بمحض اختياره كما لو ضمنت ديناً في ذمة غيرك، أو تكفلت باحضار غريم متى طلب، أو قبلت ورضيت بتحويل ما لك في ذمة زيد إلى ما لزيد في ذمة عمرو، إلى غير ذلك مما يدينك ويلزمك بأقوالك. قال الإمام أمير المؤمنين(ع): ((الكلام

في وثاقك ما لم تتكلم به، فاذا تكلمت به صرت في وثاقه)).

وهذه المسؤولية أخلاقية حيث يرتكز الحكم على الفاعل من نفس الفاعل، ويكون هو السائل والمسئول في آن واحد، كما قال، عزّ من قائل: **(اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً)** (١٤ ــ الإسراء).

ولعل من المفيد أن نذكر هنا قصة العالم (روز نبرج) وزوجته، وخلاصتها أن هذا العالم كان واحداً من الذين مهدوا وأعدوا للتفجير النووي، وكان يظن أن ذلك سوف يستعمل لخير الإنسانية والأغراض السلمية.. ولكنه أفاق على صدى أول قنبلتين ذريتين ألقتهما الولايات المتحدة في اليابان على هيروشيما ونجازاكي في الحرب العالمية الثانية التي انتهت عام ١٩٤٥، فأدرك هذا العالم ببعد نظره أن هذا الاختراع، يمكن أن يكون وسيلة لتدمير العالم، او لاستعباد البشرية بكاملها ــ على الاقل ــ فقلق وأحس بثقل المسؤولية لاشتراكه في هذا الاختراع، وأدت به وبزوجته أزمة الضمير الحادة إلى الاتصال سراً بالاتحاد السوفيتي وأفشيا له بأسرار القنبلة النووية بقصد توازن القوى الذي يحتم السلم قهراً وإلجاءً، لأن امتلاك الولايات المتحدة لهذا النوع من السلاح دون غيرها يغريها بالتخلص من كل قويّ على وجه الأرض.

وأعدمت الولايات المتحدة الزوجين بتهمة الخيانة على الرغم من التوسلات والنداءات العالمية!. وليس من شك أن عدم قيام حرب عالمية ثالثة حتى اليوم لا سبب له إلا توازن القوى، والفضل لتضحية الزوجين (روز نبرج). وهكذا الضمير الحي يشعر بالمسؤولية، ويخرج من عهدتها بكل سبيل حتى بالتضحية بالنفس والنفيس، قال نبي الرحمة(ص): ((المؤمن يرى ذنبه فوقه كالجبل يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره)).

ولا بد هنا من الإشارة إلى أن سقراط كان يربط بين معرفة الخير والعمل به، فكل من يعرف الخير يفعله لا محالة، ولا يتركه إلا جاهل بحقيقته. وقال بعض الباحثين: يريد سقراط بالمعرفة هنا الحدس الداخلي. وليس هذا ببعيد لأن سقراط كان يكرر هذه الجملة ويؤكد عليها: ((أعرف نفسك بنفسك)).

٢ ــ المسؤولية الإجتماعية

لكل مجتمع عادات وتقاليد حسنة أو سيئة تتحكم به، وقد لا يرى أفضل منها وأكمل عملاً

بالفكرة القائلة: (ليس بالإمكان أبدع مما كان) حتى ولو كان ما هو كائن بالفعل جهلاً ورقاً ومرضاً وفقراً ويحتم المجتمع على كل فرد من أفراده أن يخضع لتقاليده وعاداته، ويعتبره مسؤولاً أمامه عنها.. وتسمى هذه المسؤولية اجتماعية، وإذا اقتنع بها الفرد ورضي عنها تصبح أخلاقية واجتماعية في آن واحد.

والإسلام يقر ويبارك كل ما يرتضيه الناس لأنفسهم بشرط أن لا يحلل حراماً أو يحرم حلالاً.

وكما تقع المسؤولية على الفرد ــ في نظر الجماعة إذا تمرد على عاداتها ــ أيضاً تقع المسؤولية على عاتق الجماعة إذا هي سكتت عن الشر، وأغضت على الفساد، فأن جهاد المجرمين والمعتدين واجب اجتماعي وشرعي وعقلي تماماً كالوقاية ضد الأوباء والكوارث الطبيعية، قال سبحانه: **(وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة)** (١٩٣ ــ البقرة).. **(وتواصوا بالحق)** (٣ ــ العصر).. **(وتعاونوا على البر والتقوى)** (٢ ــ المائدة).

واشتهر عن رسول الله(ص) أنه قال: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فان لم يستطع فبلسانه، فان لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان». هناك مسألتان فيما يعود إلى إنكار المنكر أو تغييره: الأولى مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قبل وقوعه.. وفي هذه المسألة يختص الأمر والنهي بالقلب والبيان والموعظة الحسنة، ولا مجال وموضوع لليد هنا حيث لا فعل واقع تحت الحس كما هو الفرض، والأمر بالمعروف في هذه المسألة لا يجب على إطلاقه، وانما يتبع نوع المعروف، فيجب الأمر به إن كان واجباً، ويستحب إن كان ندباً، أما النهي عن المنكر فواجب إطلاقاً لأنه محرم بشتى أنواعه.

المسألة الثانية تغيير المنكر والحرام بعد وجوده ووقوعه تحت الحواس كالسلب والنهي، وقول الرسول الأعظم(ص): من رأى منكم منكراً فليغيره الخ يختص بهذه المسألة دون تلك، وجعل(ص) لها أولاً وقبل كل شيء التغيير باليد وارجاع الحق إلى أهله طالما كان ذلك ممكناً والا وجب الإنكار بالبيان لساناً وقلماً، والتشهير بالمجرم الآثم في الصحف وعلى المنابر، قال الإمام أمير المؤمنين(ع): «ظهر الفساد فلا منكر مغير ــ بيده ــ ولا زاجر مزدجر، أفبهذا تريدون أن تجاوروا الله في دار قدسه».

فان تعذر التغيير يداً ولساناً فلا أقل من الإنكار بالقلب، وليس المراد به مجرد الكراهية وعدم الرضا وكفى، بل لا بد من المقاومة السلبية بهجر الأثيم الزنيم وإشعاره بأنه منبوذ ومرذول، ومن يُظهر له بشاشة الملق فهو له رفيق وشريك.. وفي كتاب أعمال القلوب

والجوارح للمحاسبي: ((من سقى الماء للعاصي أو أرشده إلى الطريق فقد أعانه على الإثم، والله سبحانه يقول: (ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) وقال سفيان الثوري: إذا سألك الطريق إلى المسجد فلا تدله، لعله يغتال رجلاً فيما بينه وبين المسلمين أو يظلمه)).

٣ ــ المسؤولية الدينية

السائل الحق هو المبدئ والمعيد الذي أحصى على عباده عدد أنفاسهم ونظرات أعينهم وخطرات وساوسهم.. وكل سؤال أو حساب إذا لم يكن بأمره تعالى وإذنه فهو سراب، وكل مسئولية إذا لم تنته إلى دينه وشريعته فما هي بشيء، أما الضمير والوجدان فقد يموت أو يعمى في القلوب العليلة كما قال سبحانه: **(ولكن تعمى القلوب التي في الصدور)** (٤٦ ــ الحج).

وإن يكن الضمير حياً بصيراً يأمر بالخير وينهي عن الشر، فليس في وسعه أن يُنفّذ أو يعاقب العصاة بما يستحقون، ومن قبل قال أرسطو: ((لو كانت الخطب والكتب تجعلنا أخياراً لكانت مطلب الناس أجمعين)). وكلنا يحفظ قول الإمام أمير المؤمنين(ع): لا رأي لمن لا يطاع. والقوانين حبر على ورق، والسلطة التي تحميها إن تك جائرة فحاميها حراميها، وان تك عادلة أمكن الاحتيال عليها والفرار منها، والله وحده لا يعجزه من طلب، ولا يفوته من هرب.

ومن حكمته تعالى وعظمته أن لا يعاجل المسيء بنقمته، وهو مستوجب لها بلا شك في أول ما همّ بالمعصية، ولكن أخّر سبحانه وتمهل إلى يوم الحساب.. حتى في هذا اليوم لا يعاجل بما أعدّ للمسيء من سطوات وضربات، بل يكشف له أولاً عن كل ما فعل وترك، ويُعرّفه بكل ما فكّر وصمم، ويُخرج له كتاباً منشوراً لا يغادر كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها كما في الآية ٤٩ من الكهف.

وفوق كل ذلك يشهد عليه لسانه ويداه ورجلاه وجميع جوارحه، ثم يعاقب أو يعفو، والهدف الأول والأخير من هذا الشرح العريض الطويل، أن يبين، تقدست أسماؤه، فضله عند العفو وعدله عند العقوبة مع علم اليقين بأن الله هو الحق لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، ولكن هذا هو شأن الإلوهية: إحسان وإفضال، وعظمة وجلال.. وأيضاً **(ليهلك من هلك عن بينة)** (٤٢ ــ الأنفال) عند الهالك والخلق كلهم أجمعين.

وبعد، فان للكلام في هذا الموضوع بداية بلا نهاية، والمهم أن لا ننسى موقف العرض

والحساب بين يدي جبار قهار.. ونعود إلى حديث المسؤولية، وتسمى المسؤولية أمام الله سبحانه دينية، وهي الأصل والأساس، وأية مسئولية لا ترجع اليها فليس لها من وزن كما اشرنا، وأيضاً كل إلزام يرضى به الإنسان، وينفتح له قلبه تصير المسؤولية عنه أخلاقية وجدانية حتى ولو كان قد تلقى التكليف من ناس آخرين.

لا يؤخذ البريء بالمذنب

أبداً لا أحد يُسأل ويُحاسب إلا عما كسبت يداه، ولو أخذ البريء بالمذنب لكان كل واحد من الناس حتى القديس والمعصوم، مسئولاً عما جناه كل مسيء وكفور!. والتفرقة بين فرد وفرد أو فئة وفئة حيف وتحكم.. والبديهة تشهد بهذه الحقيقة، ولا تدعو الحاجة إلى بيانها فضلاً عن التدليل عليها، ولكن الوحي أكدها وركز عليها في العديد من آياته، منها: **(ولا تزر وازرة وزر أخرى)** (١٥ ــ الإسراء).. **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم)** (١٠٥ ــ المائدة).. **(واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً)** (١٢٣ ــ البقرة).

ولكن النصارى قالوا: ان أبناء آدم كلهم من أول واحد إلى الأخير يستحقون العذاب على خطيئة أبيهم الذي أكل من ثمرة الشجرة المحرمة.. وحتى اليوم يكرر المسيحيون: الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون، ومن هنا ظهرت عندهم فكرة القربان والفداء، وان السيد المسيح(ع)، ما صُلب وعُذّب الا ليكفر عن ذنوب العالم بقضه وقضيضه، فقد جاء في رسالة يوحنا الأولى الاصحاح الثاني ما نصه بالحرف الواحد: «يسوع المسيح كفارة لخطايا كل العالم». وهذا نص بأن مؤاخذة البريء بالمذنب أصل أصيل في العقيدة المسيحية. وبعد، فلا أدري: هل الهدف من عقيدة الخطيئة عند المسيحيين هو إثبات الفضيلة للمسيح بالفداء؟. ولا شك أنه غني بعظمته عن هذا التمحل والتحايل.

وتسأل: ان الآية ٢٥ من الأنفال تقول: (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) والمفهوم منها أن أسوأ الفتنة ومفاسدها لا تقتصر على من أثارها وكان السبب الموجب لها، بل تعم الصالح والطالح والمسيء والمحسن، ومعنى هذا أن البريء يؤخذ بالمذنب حتى في الإسلام وعند المسلمين لا عند النصارى فقط.

الجواب:

أولاً إن آيات «لا تزر وازرة، ولا تجزى نفس عن نفس» الخ موضوعها العذاب في

الآخرة، وآية لا تصيبن الذين منكم خاصة موضوعها العذاب في الدنيا، والله سبحانه بموجب عدالته يعطي ويعوض في الآخرة للبريء والصالح أجر ما أصابه في الحياة الدنيا تماماً كالكوارث الطبيعية التي تعم الصغير والكبير والنبي والشقي.

أجل، من ساهم في عمل من أعمال الآخرين بوسيلة من الوسائل فهو شريك معهم، فان كان العمل خيراً فله من الفضل والمثوبة بمقدار ما ساهم، وكذلك نصيبه من الإثم والعقوبة ان كان العمل شراً، ولكن هذا ليس نقضاً لمبدأ (لا يؤخذ البريء بالمذنب) بل تأكيد له لأن من يسهم في الذنب والجريمة بأي طريق كان فهو مجرم ومذنب لا نزيه وبريء، قال رسول الله(ص): «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينتقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء».

ومثله تماماً من بشّر وروّج، وأيد وحبذ، ودافع وأقنع، وقديماً قيل: الدال على الخير كفاعله، واعطف عليه الدال على الشر، قال سبحانه حكاية عن حوار بين الضالين والمضلين من أهل جهنم: **(كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفاً من النار قال لكلٍ ضعف ولكن لا تعلمون)** (٣٨ ــ الاعراف).

وبعد، فمن ابتدع السيئات وسن الضلالات ومن ساهم في ترويجها بأية وسيلة أو دعاية ــ فهما بمنزلة سواء عند الله، وفوق ذلك يعتبر الإسلام الموقف السلبي بالكف عن نصرة الحق سيئة ورذيلة، والموقف السلبي بكف الشر والأذى عن الناس حسنة وفضيلة، قال نبي الرحمة والإنسانية: الساكت عن الحق شيطان أخرس. واعطف عليه الساكت على الشر، وقال(ص) لأبي ذر: تصدق عن نفسك يا أبا ذر.

قال: بماذا يا رسول الله؟. قال: بكف الأذى عن الناس.

وتنطوي هذه الحكمة النبوية المحمدية على سرٍ قلّ من يلتفت اليه ــ على وضوحه ــ مع أن كف الأذى هو الأصل الأول والأهم للحياة الاجتماعية، ولو التزم به كل إنسان لما كان في الدنيا ظالم ومظلوم، ولا لاجئون ومشردون، ولا حروب وأسلحة أو صهيونية ومشكلة فلسطينية وتفرقة عنصرية. أبداً ولا شرطة وجنود واستغلال واستعمار.

الجزاء

الجزاء وليد المسؤولية

الجزاء هو العنصر الثالث للخير والفضيلة، وبينه وبين المسؤولية علاقة المعلول بالعلة تماماً كالعلاقة بين المسؤولية والإلزام،، فهي معلولة للإلزام وعلة للجزاء في آن واحد لأن وضع المرء موضع المسؤولية يفترض من وجهة اخلاقية وجود الجزاء ثواباً على طاعة الإلزام المسئول عنه، وعقاباً على مخالفته.

وهنا قاعدة أساسية راعتها واهتمت بها الشريعة الإسلامية والشرائع الوضعية معاً، وهي إذا قام المكلف العاقل بعمل ظاهره الخير، استحق عليه الثواب والثناء بمجرد حدوثه، ولا يسوغ بحال أن نستعجل بالسيئة قبل الحسنة حتى يثبت العكس، وأيضاً لا يجب البحث والسؤال: هل أتي به لوجه الله أو لمنفعة شخصية حملاً للشيء على ما وضع له إلا مع شاهد بالتحريف عن موضعه الأصيل. وكذلك يجب التوقف عن الحكم إذا لم يفعل المكلف ما عليه من الواجب، ولا نسرع إلى القول بأنه عصى وترك عن عمد، فلعل له عذراً من عجز أو نسيان، ولا جريمة مع التعذر والتعسر.

الجزاء وأخلاقية الفعل

وتسأل: ان أخلاقية الفعل ترفض فكرة الجزاء والثواب عليه مادياً كان الجزاء أم أدبياً، وتحتم الإتيان بالواجب بداع من تقديسه في ذاته وكفى تماماً كقوله تعالى: (انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً) (٩ ــ الإنسان). ومن أوجب الجزاء على الواجب فقد انحدر به عن مقامه، ونفى عنه صفة الأخلاقية من حيث يريد ثبوتها تماماً كما لو قال قائل: لا تشرق الشمس إلا حين تغيب عن الأعين؟

الجواب:

يجب أن ندرك ونميز بين من يفعل الخير ويحسن لوجه الخير والإحسان، وبين من يحب المحسنين ويكافئهم بجزاء الحسنى، أيضاً لوجه الله والخير، والكلام هنا فيمن يكافىء على فعل الواجب، لا فيمن يفعله ويطالب بالأجر عليه.. ثم هل من العدل والأخلاق أن نتجاهل الطيب المخلص في أفعاله وأخلاقه ولا نشجعه على فعله المحمود بما يغريه بالاستمرار والمزيد عسى أن يقتدي به مقتد أو يهتدي به مهتد ويكثر الطيبون؟. وأخيراً فان من ينكر

الجزاء باسم الأخلاق هو الذي يفصل الشيء عن نفسه وينفي الوجود عن الموجود لا من يقول بالجزاء.

ويضاف إلى ذلك أنه على الرأي القائل بنفي الجزاء ينبغي لله سبحانه أن لا يُدخل الجنّة من عبد الله لذات الله، لا طمعاً في جنته، لأن ادخاله الجنة، وهذي هي الحال، نقض للغرض المطلوب!. وعليه يكون غير الطامع أسوأ حالاً من الطامع.. ولا أدري من أي نوع هذا المنطق!.

أنواع الجزاء

للجزاء أنواع نذكر منها ما يلي:

١ ــ الجزاء الأخلاقي أو الوجداني، والمراد به شعور الفاعل بالغبطة والارتياح لفعل ما يعتقده خيراً وصلاحاً، وبالحسرة والكآبة لفعل ما يعتقده شراً وفساداً، وبديهي أن هذا الشعور يختص بالذين يتميزون بالنبل والإنسانية، ويحبون الخير وأهله لوجه الخير، وينتكرون للشر وفاعله لأنه شر، أما الذين لا يفرقون بين حلال وحرام، ولا وزن عندهم إلا لما يدخل في جيوبهم وبطونهم ــ فيسخرون من الضمير ووحيه، ويسمون من يتحدث عنه أو باسمه، خرافياً ورجعياً.

وقال هؤلاء: ان الشعور بالتأنيب على الذنب قد يحدث، ولكنه لم ينبع من داخل المذنب واعماقه، بل تسرب اليه من محيطه وبيئته وثقافته وتربيته.

ونحن لا نشك في أن للمحيط والتربية أثرهما الملموس، ومع ذلك نؤمن بالحياة الشعورية المستقلة ووجود الذات الغيرية التي تُؤْثر غيرها على نفسها، والذات اللا أخلاقية الأنانية، وانهما طبيعة ومزاج تماماً كالخبث والنبل، والجبن والشجاعة، والبلادة والذكاء، والعجلة والأناة، والحلم والنزق، وقوة الإرادة وضعفها، والجمود والأريحية.. إلى ذلك من اشكال بني آدم وبنات حواء، قال سبحانه: (قل كلّ يعمل على شاكلته) (٨٤ ــ الإسراء) وقال نبيه الأكرم: ((الناس معادن كمعادن الذهب والفضة.. تخيروا لنُطّفكم)).

ونشرت مجلة عالم الفكر الكويتية في العدد ٣ من المجلد ٥ مقالاً قيماً وشيقاً، بعنوان الجريمة والمجرم، جاء فيه: ((اندفع أطباء أوربا يبحثون عن نموذج الإنسان المجرم، وفحصوا كل جزء من اجزاء الجسم، وقوة السمع والشم والأبصار... وقدرة المجرم العقلية

والنفسية والمزاجية... وطلعوا بعشرات الفرضيات، وكانت جميعها تقف على أرضية واحدة هي أن المجرم يتميز بصفات عن سواه)).

وبعد صفحات من هذا المقطع قال الكاتب: ظن كثيرون أن للوراثة علاقة بالسلوك الإجرامي.. وقالوا: حين يكون أحد التوأمين مجرماً لا بد أن يكون التوأم الآخر كذلك، ولكن سرعان ما ظهر ضعف قيمة دراساتهم من الناحية العلمية.

وبعد، فقد انتهينا من هذه الأقوال وغيرها في الجريمة والمجرم ومن المشاهدات الحسية، إلى أن المجرمين على أنواع: منهم مجرم عدواني شرير بذاته وجبلته، ومنهم محترف قد اتخذ الجريمة مهنة وصنعة، وثالث لا ذا ولا ذاك، بل تأثر بالظروف والحاجة الملحة. والأول لا أمل في اصلاحه إلا بمعجزة، والثاني ربما ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً، ودواء الثالث عمل يسد به حاجته، وينتهي كل شيء.

وعلى كل حال فان جزاء الضمير لا يصلح كمبدأ عام وقاعدة كلية ما دام هناك من يحيا بغير ضمير، يضاف إلى ذلك أن الضمير سلطان بلا عدة.

٢ ــ الجزاء القانوني والقانون (مجموعة من القواعد العامة الملزمة تنظم سلوك الأفراد في المجتمع) وهو يعاقب المسيء، ولا يثيب المحسن لأنه يستهدف الردع والتحذير من ارتكاب الجرائم.. هذا إلى أن القانون لا ينص على عقوبة الكذب والنفاق والغيبة وعقوق الوالدين وينص صراحة على أنه لا عقوبة بلا نص، وهذا تعبير ثان عن قولنا نحن الأصوليين: لا عقاب بلا بيان.. وبعض القوانين تحمي الزنا واللواط والمتضاجعين علناً في الحدائق العامة ــ باسم حرية الإنسانية وتصرفاته، وفي نفس الوقت تحمي أقطاب التفرقة العنصرية وابطالها والأفراد الذين يستغلون الجماعة وينهبون أقوات الشعوب وثرواتها، تحمي هؤلاء وتعاقب من يسير بسيارته أكثر من السرعة المسموح بها، أو يضيء نورها المبهر الذي يغلب البصر وإن لم يُلحق ضرراً بأحد!.

ومن القواعد الأساسية في القانون أنه يُطبق على جميع الأفراد دون استثناء بمجرد نشره في الجريدة الرسمية، ولا يُعذر أحد بجهله، والمبرر لذلك أولا استقرار القانون واطراده من غير توقف على بحث العروض الطارئة على الأفراد الذين لم يتوفر لهم العلم بالقانون. ثانياً ان العلم بالقانون بعد نشره سهل يسير على كل طالب وراغب.

ويتفق هذا مع الفقه الإسلامي في الأحكام الوضعية بالخصوص كعدم صحة البيع والطلاق

إذا لم تتوافر فيهما الشروط المقررة، فقد أفتى الفقهاء المسلمون بالفساد في هذه الحال حتى ولو كان الجهل عن قصور لا عن تقصير.

٣ ــ الجزاء الاجتماعي، والمراد به هنا حب الناس وولاؤهم وتقديرهم واحترامهم لمن يعمل لخدمة الإنسانية جمعاء أو لخدمة بلده وأبناء وطنه، أما من أساء وخادع وراوغ فجزاؤه عندهم السخط والمقت والازدراء والاحتقار، وقد يتحول السخط إلى ثورة دامية. وكل رئيس وزعيم لا يثق بنفسه يظهر أمام الناس بمظهر زائف ومخالف لحقيقته وواقعه، وأهل الحاجات بدورهم يظهرون أمامه بمظهر زائف ومخالف، فيصفقون له ويهتفون كذباً ورياء. وليس هذا حباً واحتراماً كي يسمى جزاء وثواباً، بل ضلالا واحتيالا، قال فيلسوف صيني: كلما زاد عدد المصفقين والهاتفين زاد عدد الدجالين والمنافقين.

والإسلام لا يقبل للفاسق شهادة، ولا يأتمنه على أي عمل وشأن من شئون المسلمين، وأسقطه عن الاعتبار إذا أعلن الفسق وجهر به حيث أباح الإسلام غيبته والتشهير به، قال الإمام الصادق: إذا جاهر الفاسق بفسقه فلا حرمة له ولا غيبة. وقال رسول الله(ص): إذا رأيتم أهل البدع من بعدي فاظهروا البراءة منهم. وقال الإمام الصادق(ع): «لا تصحبوا أهل البدع ولا تجالسوهم، فتصيروا كواحد منهم» ومصدر هذا القول الآية ١٤٠ من النساء التي جاء فيها (انكم إذن مثلهم) ومعنى هذا أن الساكت على أية جريمة شريك فيها، وفي نهج البلاغة: الوفاء لأهل الغدر غدر، والغدر بأهل الغدر وفاء. وفي كتب الحديث: العامل بالظلم، والمعين له، والراضي به شركاء.

٤ ــ الجزاء الألهي، وهو الأصل والأساس، وما عداه ظل زائل تماماً كوجبة من طعام إن كان ثواباً، أو كضربة أو كلمة مؤلمة إن يك عقاباً، أما ثواب الله غداً فباق ببقائه، وقد أخبر سبحانه عن عذابه بقوله: **(وان عذابي هو العذاب الأليم)** (٥٠ ــ الحجر) وبالحكمة والعدالة الإلهية والفطرة الصافية النقية اكتشفنا الجزاء الإلهي، وبلسان هذه الفطرة نطق افلاطون حين قال: «لو لم يكن لنا معاد نرجو فيه الخيرات لكانت الدنيا فرصة الأشرار، وكان القرد أفضل من الإنسان».

وأكد سبحانه هذا المعنى الذي يختلج في كل قلب وإن ذهلت عنه بعض النفوس، وكرره في العديد من آياته، منها: **(فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)** (٨ ــ الزلزلة).. **(هل جزاء الإحسان إلا الإحسان)** (٦٠ الرحمن).. وجزاء سيئة سيئة مثلها ــ ٤٠ الشورى). وليس من شك أن العقاب على المعصية حق وعدل، ولكن هل الثواب من

الله سبحانه على الطاعة استحقاق أو فضل؟. ويأتي الجواب في فقرة خاصة.

الجنة قاع صفصف

ومن المفيد أن نشير ــ هنا ــ إلى أن كل الآيات والروايات أو جلها التي ورد في يوم الحساب والجزاء ــ تربط الأرض بالسماء والدنيا بالآخرة، ويومىء هذا الربط والالتحام إلى أن الآخرة أقرب إلى الشهادة منها إلى عالم الغيب، وأن من يتطلع إلى خيرها ونعيمها فعليه أن يعمل عملاً صالحاً ينتفع به الناس. واليك أمثلة من هذه الآيات والروايات:

قرأت في كتاب مرآه الآخرة لمحسن الفيض المطبوع مع كتابه علم اليقين: أن النبي(ص) قال: «الجنة قاع صفصف فاكثروا من غراس الجنة» ومثله في سفينة البحار مادة غرس «ليلة أسري بي قال لي إبراهيم(ع): مر أمتك أن يكثروا من غرس الجنة، فان أرضها واسعة، وتربتها طيبة». وإذا عطفنا أحد الحديثين على الآخر وجمعناهما في كلام واحد يكون مفادهما ومؤداهما أن الغرس الطيب في أرض خبيثة أو الغرس الخبيث في أرض طيبة لا ينمو ولا يثمر، وأنه إذا أردنا أشجاراً ناضرة وثماراً يانعة فلا بد من الطيبة والجُودة في كل منهما، وأرض الجنة جيدة طيبة، وتتسع إلى ما لا نهاية له من الغرس والبذر، ولكن غرسها لا يكون ولن يكون إلا الحسنات وفعل الخيرات في الحياة الدنيا، فمن أرادها بهذا الشرط والثمن فله منها بمقدار ما يغرس ويبذر، وهي تطلبه على هذا الأساس قبل أن يطلبها، وكل ما قلناه وما جاء في هذا الباب أشار اليه الإمام أمير المؤمنين(ع) بقوله: «العمل الصالح حرث الآخرة».

والآية ١٤٧ من الأعراف: **(هل يجزون إلا ما كانوا يعملون)** فقد دلت بظاهرها على أن العمل في العاجلة ليس سبباً للجزاء في الآجلة حيث لم يقل سبحانه بما كانوا يعملون بل قال **(ما كانوا يعملون)** ومعنى هذ أن العمل هو بشخصه جزاء العامل، ولكنه يتحول غداً إلى صورة ثانية تماماً كالنواة تصير شجرة، والحبة نبتة، والنطفة إنساناً. مثلاً ــ إذا احتكر الناس الأموال واكتنزوها ولم ينفقوها في سبيل الله تتحول إلى جمرات ونيران **(فتكوى بها جبابهم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون)** (٣٥ ــ التوبة).

ولا شيء أصرح في الدلالة على هذه الحقيقة من قوله تعالى: (هذا ما كنزتم ولم يقل بما كنزتم). وإذا أنفق الناس أموالهم في سبيل الله تحولت إلى حدائق وقصور ونمارق وحور..

وتجلت هذه الحقيقة بأوضح صورها وأكملها لامرأة فرعون وهي في الحياة الدنيا حيث قدمت نفسها ثمناً لبيت في الجنة يقيها عذاب الحميم، وقالت مع النفس الأخير: (رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ــ (التحريم). ودخل رجل بيت أبي ذر، فلم يجد فيه شيئاً، فقال: يا ابا ذر أين متاعكم؟. قال له: لنا بيت نوجه اليه متاعنا.

ومن هذا الباب قوله تعالى: **(إن الذين يأكلون أموال اليتامى انما يأكلون في بطونهم ناراً)** (١٠ ــ النساء).. وأحاطت به خطيئته ــ ٨١ البقرة ــ **(من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى)** (٧٢ ــ الإسراء).. **(يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم)** (٨٩ ــ الشعراء). وقال رسول الله(ص): المرء مع من أحب، ولو أن أحدكم أحب حجراً لحشر معه. وفي حديث آخر: «لا بد من قرين حي يدفن مع الميت وهو عمله».

أبعد هذه الشواهد والدلائل على التلاحم والتكامل بين الدنيا والآخرة يقول قائل: الجزاء غداً غيب في غيب؟ ولنفترض أن هذا الجزاء غيب، فأين مكان الشر فيه والعيب؟ أفي النهوض بالإنسان

إلى الجهاد والعمل لخير الإنسانية ومصلحتها، أو بالتشجيع والتكريم لكل ذي عقل سليم وقلب رحيم؟ وكيف عمي الجاحدون عن هذا الجانب الايجابي العملي وهم الدعاة إلى كل جديد ومفيد كما يزعمون؟ وأخيراً هل سكروا من غير شراب أو أصابهم سكر (الأفيون).

وفي ظني أن هؤلاء الجاحدين لجزاء الآخرة، لو أدركوه كما هو في القرآن ودين الإسلام لتراجعوا وسبقوا كل الناس إلى الدعوة والدعاية للإيمان به، ولو من وجهة إنسانية لأن هذا الإيمام من أقوى البواعث على تهذيب السلوك والإستقامة على طريق الحق والعدل، ومقاومة الفساد والضلال.

هذا فيما يعود إلى جزائه تعالى في يوم ينفع الصادقين صدقهم، أما جزاؤه في حياتنا هذه فما هو بأصل وقانون كما هي الحال في الآجلة، ولذا قال الإمام أمير المؤمنين(ع): «اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل» إلا ما يقصد به الوقاية والحماية لمصالح الأفراد والجماعة قال سبحانه: **(ولكم في القصاص حياة يا أولي الالباب لعلكم تتقون)** (١٧٩ ــ البقرة).. **(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض)** (٢٥١ ــ البقرة). وفي كتب الفقه الإسلامي عرض مفصل للحدود وما يتبعها من التعزيز، وللقصاص والديات وأسباب التعويض والضمان، وطريق العلم بهذه الكتب ممهد لمن أراد.

وقد يكافئ الله سبحانه في الحياة الدنيا على الصدقة، بدفع الضراء والبلاء، وعلى الاخلاص بالتوفيق والهداية إلى سبيل النجاح، وعلى تكذيب الأنبياء بالعواصف والقواصف كما فعل من قبل بقوم نوح وعاد وثمود.. ولكن لا ضباط ومقياس لذلك في علمنا نحن، ولله في خلقه أسرار وشئون، وما علينا أن نبحث عنها ونتكلفها.

الثواب استحقاق أو تفضّل؟

من المسلمات الأولية أن أخْذ المسيء باساءته حق وعدل، وقد يرحم الله ويغفر لمن خلط صالحاً بطالح أو لمن ندم واستغفر أو لأية حكمة هو سبحانه أدرى بها وأعلم، ويستحيل في حقه أن يعاقب بلا جرم وسبب (إن الله لا يظلم مثقال ذرة) ولكن من اتقى الله حق تقاته هل يستحق منه الثواب كعوض على الطاعة والتقوى، أو لا يستحق شيئاً لأن العلاقة بين الخالق والمخلوق ليست من باب المعاملة وتبديل شيء بشيء، فالمخلوق مدين للخالق في كل شيء، وعليه فإن أثابه المولى ففضل على فضل، وإن منعه فحق وعدل؟.

وقد ذهب إلى كلٍ فريقٌ من أهل المعقول، وأطالوا الكلام ولكن بلا طائل من حيث العمل لأن الكل على وفاق أن الله ــ تقدست أسماؤه ــ يجزي الذين أحسنوا بالحسنى كما قال في الآية ٣١ من النجم، وأيضاً قال: **(وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار)** (٧٢ ــ التوبة).. **(أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار)** (٢٨ ــ ص).

ومعنى هذا أن ثواب الله لمن عمل له كائن لا محالة، وعلينا أن نوقن، بذلك ونؤمن، ولا يجب بحال أن نسأل ونبحث: هل هذا الثواب مجرد منحة منه تعالى أو استحقاق وعوض؟.

أجل الأفضل والأنسب أن نقول: هو من فضل الله وإحسانه أسوة بالنبي وآله(ص). قال إمام المتقين وسيد الساجدين في مناجاته:

((ليس عندي ما يوجب لي مغفرتك، ولا في عملي ما أستحق به عفوك، وما لي بعد ان حكمت على نفسي إلا فضلك.. لا يجب أن تغفر لأحد باستحقاقه، ولا أن ترضى عنه باستجابته))، فمن

غفرت له فبطولك، ومن رضيت عنه فبفضلك، سنتك الافضال، وعادتك الإحسان، وسبيلك العفو)).

عاش الإمام السجاد(ع) مع الله سبحانه في كل لحظة من حياته، وعرف الكثير من سننه وآياته، وسبله وعادته، ومن هنا جمعت مناجاته بين قوة الحجة والمنطق في قوله: (سنتك.. عادتك.. سبيلك) وبين التذلل والتوسل (بالإفضال والإحسان والعفو). وبهذين الجناحين سما الإمام إلى الأفق الأعلى، ورأى من آيات ربه ما رأى، وناجاه بما جاء في الصحيفة السجادية، ومنها هذه اللآلىء والشذرات.

ومؤداها أن ثواب الله سبحانه يصل إلى من اتقى معاصيه على كل حال، إما لأن هذا الثواب ثابت بذاته، وأما لأن الله هو الذي أثبته وكتبه على نفسه، وإذن علام الاختلاف وطول الشرح؟.

لكل مجرم ما يستحق

أعدَّ الله سبحانه لكل مذنب ما يستحقه من العقوبة ولا يزيده مثقال ذرة لأنه رؤوف بالعباد، وقد ينقص أو يغفر تفضلاً منه وكرماً، وهو وحده جلَّ وعلا يحدد في يوم الحساب نوع الذنب وأسبابه وجزاءه كماً وكيفاً. هذا ما يجب علينا أن نوقن به ونؤمن، وما عداه لا يجب البحث عنه ولا الأيمان به إلا مع النص القاطع.

وهنا سؤال يطرح نفسه، وهو أن الله سبحانه ذكر في كتابه العزيز صوراً من عذاب المجرمين تنهار الأعصاب بمجرد تصورها، فكيف بمن يذوق ويختبر؟ من ذلك حشر بعض المجرمين مكبلاً بالقيود، وعليه ثياب من مادة شديدة الالتهاب، وعلى وجهه غطاء من نار، أما طعامه فمن زقوم وشرابه من صديد الخ! ألا يتنافى هذا النوع من العذاب مع حلم الله ورحمته وجوده ورأفته؟ ألا يكفي لجزاء هذا الإنسان الضعيف بعض هذا الجحيم؟.

الجواب:

ان في الناس مجرمين يستحقون هذا النوع من العذاب وأكثر منه.. ومن هؤلاء الذين يحاربون الحق أو يكتمونه وهم يعلمون.. وأعظم منهم جرماً تجار الحروب ومن يستغل الشعوب، ويعد لها أسلحة جهنمية تقتل الملايين في دقائق معدودات إذا هي حاولت أن تخرج من ذل الطاعة والعبودية إلى الحرية.. ثم هذه الوسائل الإعلامية والدعائية والفلسفات الالحادية والمادية التي تضلل العقول وتفسد القلوب ويستمر أثرها إلى يوم يبعثون.. أليست هذه الجريمة تفوق كل الجرائم مجتمعة؟ وإذن يجب أن تفوق عقوبتها كل العقوبات.

وكتب الدكتور فؤاد زكريا مقالاً في مجلة عالم الفكر العدد الرابع من المجلد الأول بعنوان العلم والحرية الشخصية، جاء فيه: ((يستخدم العلم في وقتنا الراهن على نطاق واسع ليكون أداة لتكبيل الإنسان بقيود خفية.. والجديد في عصرنا أن أدوات العلم ــ أي وسائل الدعايات المضللة ــ تسيطر على عقول تتوهم نفسها حرة لأن هذه الأدوات بلغت درجة عالية من الاتقان)).

النية

النية أولاً

حين توجهت وقصدت بقلمي إلى هذا الفصل، تذكرت أن أول مقال نشرته كان بعنوان: (انما الأعمال بالنيات). وكلنا يعلم أن النية تسبق العمل، وأن لكل امرئ ما نوى، وان الله يُسهّل ويمهد بحسن النية سبل النجاح والصلاح، وقد مضى على نشر هذا المقال ٤٥ سنة على التقريب ــ نحن الآن في سنة ١٣٩٦هـ ــ وكنت آنذاك طالباً في النجف الأشرف، وما رأيته من يومه إلى يومي هذا، وودت لو أطلع عليه الآن لأرى كيف ابتدأت.. ولكن ما زلت أحفظ في ذاكرتي أني ما شعرت بقلق أو تخوف مما قد يقال حول ما نشرت لا إعجاباً به أو اغتراراً بعلمي بل إصراراً على المضي فيما قررت ورسمت دون اكتراث واهتمام بأقاويل تذروها الرياح.

معنى النية

النية عند الكثير من الفقهاء هي الداعي، وعند علماء الكلام ارادة الفعل مقارنة له، وفي سائر الأحوال وعلى جميع الأقوال فان النية بمعناها الشامل تنبع من القلب وأعماقه خالصة من كل ضغط واكراه بعيدة عن التورية والتقية بحيث يكون مجموع العمل المنبثق عنها مراداً لعامله راضياً به وعازماً عليه منذ البداية.

والإنسان الطيب تتكشف نفسه، وتتجسم نيته في أقواله وأفعاله بلا تكلُّف وتصنع، وبهذا ينسجم الإنسان مع قلبه وعقله، ويكون قريباً من الله والناس ومحل ثقتهم وتقديرهم. وفي الحديث: ((ان العبد اذا أظهر العمل بجوارحه، فاستوت سريرته وعلانيته، قال الله: هذا عبدي حقاً)). أما من يختفي وراء الظواهر فهو شيطان، مهمته التضليل والاحتيال، والغدر والاغتيال.

العلل الأربع

بعد أن أكد أرسطو أن لكل حادث علة حاول أن يجعل للعلل ضابطاً خاصاً، ويحصرها بعدد معين، وانتهى به البحث والتفكير إلى أنها تنحصر بأربع: فاعلية وغائية مادية وصورية. مثلاً ــ إذا أردت أن تعلل بناء البيت تذكر أولاً الباني، وهو العلة الفاعلة. وثانياً تذكر الغاية التي من أجلها بني البيت، وهي السكنى واسمها العلة الغائية. وثالثاً تذكر المادة التي صنع منها البيت: الحجر والطين، وهي العلة المادية. ورابعاً تذكر حقيقة البيت المكونة من جميع أوصافه كطوله وعرضه وارتفاعه لونه ومنافذه ومرافقه، وهذه هي العلة الصورية، وذكر صاحب الأسفار لهذه العلة أكثر من معنى، وأخصر وأوضح ما قرأت في تحديد الهيولى والصورة ما قاله فيلسوف يوناني قديم بأن اللفظة هيولى، والمعنى صورة.

وما رأيت أثراً للعلل الأربع في كلام الفلاسفة الجدد ــ فيما لديّ من مصادر ــ أما علماء الطبيعة في العصر الراهن فيعتمدون على (القانون العلمي) في تفسير الظواهر والأحداث، ويعنون بهذا القانون مجرد الوصف لطبيعة الأشياء، وهذه عبارتهم بالحرف الواحد: «من يقول: إذا حدث كذا فإن كذا يحدث دائماً.. معناه أن المشاهدة قد دلت على ذلك.. فلا فرق بين ما يقع صدفة وما يقع وفق قانون إلا أن الاطراد في القانون لا يتخلف على حين أنه في الصدفة قد يظهر وقد يختفي».(أنظر كتاب نحو فلسفة علمية لزكي نجيب محمود). وفي كتاب الفلسفة بنظرة علمية لرسل: «ما استنتج من هذا الاطراد مبدأ العلة والمعلول فقد خلع شخصيته على الأشياء».

ومهما يكن فما قصدنا من هذه الإشارة أن نقارن بين القديم والحديث في فكرة العلة والمعلول ونبدي ما لدينا من ملاحظات، وانما القصد مجرد التمهيد والتوضيح لما نحن بصدده في هذا الفصل الذي نبحث فيه عن العامل ونيته، وعن طبيعة العمل وتأثير النية به، وعن غاية العامل من عمله.

والعامل علة فاعلة، وغايته من العمل علة غائية، وعمله علة مادية، ومرة ثانية نكرر: لا شأن لنا في هذا الفصل بتساقط العلل الأربع أو رسوخها.

العمل بلا نية

لا أثر للعمل بلا نية من حيث العقوبة والمثوبة، لأن الحساب والجزاء يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بالمعرفة والحرية، وحيث تنعدم الحرية والاختيار تنتفي المسئولية.. هذا ما تقتضيه

الأصول والقواعد، وبه جاء الشرع مثل (انما الأعمال بالنيات، ولا عمل بلا نية.. لن يُدخل أحداً عمله الجنة) أي إلا مع النية الخالصة لوجه الله تماماً كالإيمان الذي عليه تتوقف صلاحية العمل. أجل العقوبة المالية لا تُناط بالمعرفة والاختيار، بل ولا بالعقل والبلوغ.. فمن أتلف مال غيره فعليه البدل والتعويض بمثله أو قيمته حتى ولو كان التلف عن جهل أو غير قصد أو من قاصر سناً أو ادراكاً. وأيضاً النية والإرادة ليست بشرط في تطهير الساتر والبدن من النجاسة المادية كالبول والدم مع أن طهارتهما شرط في صحة الصلاة، وفي ج ١ من ابن عابدين وغيره من فقه الأحناف أن النية ليست شرطا في صحة الوضوء وغسل الجنابة.

النية بلا عمل

إذا نظرنا إلى النية في ذاتها بغض الطرف عن علاقتها بالفعل والفاعل ــ كان وجودها كعدمها تماماً كالتصورات والأمنيات التي لا يلحقها أي فعل ونشاط، أما قوله تعالى: **(إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله)** (٢٨٤ ــ البقرة) وما في هذا المعنى من الآيات ــ فالمراد منه ما يُترجم ويتجسم في شيء ملموس، أما السجين الدفين في الأعماق من حيث هو، فلا سؤال عنه ولا حساب عليه، وسبق الكلام عن ذلك في فقرة حديث النفس من فصل المسئولية.

وإذا نظرنا إلى النية من حيث علاقتها بصاحبها، كان لها شأن ووزن، وإن ظلت سجينة في النفس، لأن نية الخير تنبئ عن طيب القلب وشرف النفس وكمال الذات، ونية السوء والشر تدل على خبث السريرة ومرض في القلب ونقص في الذات والصفات.

والأول أهل للإحسان والإكرام لأنه يستشعر الخير ويُرجى منه، على عكس الثاني الذي لا يرجى خيره، ولا يؤمن شره، وهو بذلك يستحق الذم والعقاب بحكم العقل والعقلاء، ولكن الله سبحانه يعفو عنه تفضلاً منه وكرماً(١) (١) (أول من تكلم بالفلسفة اليونانية اسمه ثالس الملطي، ومن اقواله: القصد من وجود الإنسان أن لا يفعل الشر لا أن يُمنع من التفكير في الشر).، قال الإمام زين العابدين(ع): «وأما العاصي أمرك فلم تعاجله بنقمتك.. ولقد كان يستحق في أول ما همّ بمعصيتك ما أخرت عنه من عذاب.. وهذا ترك لحقك ورضى بدون واجبك، فمن أكرم منك يا إلهي؟». وفي الحديث: «من همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وان همّ بها وعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.. ومن همّ بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه».

وفوق ذلك رفع الإسلام نية الخير بلا عمل إلى العمل القائم على نية الخير، فقد جاء في سفينة البحار: «من أحب قوماً حشر معهم، ومن أحب عمل قوم شاركهم فيه» وعن البخاري أن النبي(ص) قال لأصحابه الذين جاهدوا في بعض الغزوات: «ان بالمدينة قوماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم.. حبسهم العذر». وعن الترمذي منسوباً إلى الرسول الأعظم(ص): «إن الفقراء الذين يغبطون المتصدقين سوف ينالون نفس الثواب عند الله». والشرط الأساسي لهذه المشاركة صدق النية والعزم الوطيد بحيث لا يصرفها عن العمل إلا مانع قاهر تماماً كما حدث للمعذرين الذين ذكرهم سبحانه بقوله: (إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً أن لا يجدوا ما ينفقون) (٩٢ ــ التوبة).

وفي نهج البلاغة خطبة ١٨٨: (من مات منكم على فراشه وهو على معرفة حق ربه وحق رسوله وأهل بيته مات شهيداً أو وقع أجره على الله، واستوجب ثواب ما نوى من صالح عمله، وقامت النية مقام إصلاته لسفيه.

وأيضاً اشتهر عن صاحب الشريعة السمحة: «ان نية المؤمن خير من عمله، ونية الكافر شر من عمله». وكثرت الأقوال والتفاسير حول هذا الحديث حتى انتهت إلى عشرة!.. مع أنه من المحكمات لا من المتشابهات فيما نظن، لأن (خير) هنا ليست للتفضيل والمفاضلة، بل لمجرد الخير تماماً كما في قوله تعالى: **(وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله)** (١٠ ــ البقرة) وكلمة (من) للتبعيض مثل منهم من آمن ومنهم من كفر، والمعنى أن نية المؤمن من غير عمل لصارف ومانع، تحسب له وتسجل، وتكون بعضاً من أعماله الباقيات الصالحات، وكذلك الكافر حين ينوي عملاً من أعمال الكفر..

هذ إلى أن الكافر كله شر ذاتاً وعملاً ونية.

وقد يقول قائل: إن حديث «من همّ بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه» يتنافى مع حديث «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار فقلت يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال انه كان حريصاً على قتل صاحبه». والجواب إن هذا الحديث موضوع في مقابل حديثين صحيحين: الأول «يا عمار تقتلك الفئة الباغية» والثاني «ان علياً(ع) أمر بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين»، والفئة الأولى أهل الجمل، والثانية أهل صفين والثالثة الخوارج.

وبعد، فقد تبين لنا مما عرضناه في هذه الفقرة والتي قبلها بلا فاصل: أن النية والإرادة

شرط ضروري لصحة الأعمال كلها أو جلها حيث لا أثر لعمل غير شعوري ومراد، وبالخصوص من حيث العقوبة والمثوبة.. وأيضاً استبان بوضوح أن من نوى الشر واعتزم على فعله ثم تركه لسبب أو لآخر، فهو خليق بالذم والعقاب أصلاً وعقلاً، ولكن صاحب الأمر والشرع أطلقه وأعفاه تفضلاً وكرماً، وأما من نوى الخير بصدق وعزم وحيل بينه وبينه فهو من عباد الله المخلصين.

وكل ما قيل أو يمكن أن يقال حول هذا الموضوع فهو مجرد محاولة لتفريع الجزئيات واستخراجها من هذا المبدأ العام الذي أعلنه صاحب الشرع والشريعة بقوله: «لا يصلح قول إلا بعمل، ولا يصلح قول وعمل إلا بنية، ولا يصلح قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة» لأن ما خالف كتاب الله وسنة نبيه فهو بدعة وضلالة. وأخيراً صلوات الله وسلامه على الصادق الناطق بلسان جده سيد الكونين(ص) حيث يقول: «علينا أن نلقي اليكم الأصول وعليكم أن تفرّعوا».

بين النية والعمل

بعد الإشارة إلى العمل بلا نية والنية بلا عمل، نشير إلى العمل مع النية (أي العزم والتنفيذ). وكل عاقل لا يعقد العزم والنية على أي عمل ويقدم عليه الا بعد أن يتصوره ويعرفه على حقيقته، وأيضاً يعرف الغاية المترتبة على وجوده عاجلاً أو آجلاً، ويرغب فيها ويميل اليها من أعماقه.. وقد يكون العمل الذي ينويه ويميل اليه خيراً بطبيعته أو شراً كذلك، وقد لا يكون من ذا ولا ذاك كالأعمال المباحة بالمعنى الأخص، وأيضاً قد تتوافق النية والعمل في الوجهة إلى الخير أو الشر، وقد يختلفان في ذلك. واليك التفصيل:

١ ــ أن تكون النية الخير، والعمل القائم عليها خيراً كذلك بالذات والطبيعة، كمن بنى مدرسة أو ميتماً لوجه الله والإنسانية، وهذا العمل أخلاقي وكمالي صرف حيث انسجم الباطن مع الظاهر على صعيد الخير، ومن هذا الصعيد ينطلق العمل ويرتفع إلى مكان القدس والجلال: **(والعمل الصالح يرفعه)** (١٠ ــ فاطر).. **(إنّا لا نضيع أجر من أحسن عملاً)** (٣٠ ــ الكهف).

وطالما ركّز الإسلام في تعاليمه وحث على الانسجام والتطابق بين الإيمان وصالح الأعمال في العديد من آي الذكر الحكيم، فكلما ذكر الذين آمنوا قرن ذكرهم بهذا العطف: (وعملوا الصالحات). ومن المعلوم بالبديهة أن الإيمان الكامل لا ينفصل عن نية الخير وارادته تماماً

كما لا ينفصل عن العمل، ومن هنا اكتشف الإمام أمير المؤمنين(ع) التلازم والتلاحم بين الإيمان الكامل وصلاحية العمل بحيث يستدل بوجود أحدهما على وجود الآخر، قال في الخطبة ١٥٤ من نهج البلاغة: «بالإيمان يستدل على الصالحات، وبالصالحات يستدل على الإيمان». وعلى هذا التلازم يحق لنا أن نتشكك ونرتاب في كل مظهر للإيمان إلا إذا ترجم إلى عمل الصالحات، ومارسها من ادعى الإيمان الكامل، بصبر وشجاعة، وبطولة وتضحية.

٢ ــ أن يتوافق العمل والنية في الشر كمن يقتل أو يفتري الكذب شفاءً لغيظه وتسكيناً لجسده وحقده.. ولا شفيع لهذا الجرم عند الله والناس إلا التوبة وعدم الأوبة، ويروى عن بعض المجتمعات القديمة التبرؤ من المجرم وطرده من حظيرتها، وهدر دمه لكل شخص (مجلة عالم الفكر الكويتية العدد الثالث من المجلد الخامس).

٣ ــ أن يكون العمل خيراً والنية شراً كمن يعمل عملاً صالحاً رياءً ولحاجة في نفسه. لا بد أولاً من النظر: هل صلاحية العمل تتوقف على نية الخير والطاعة لله كما هو الشأن في العبادة، أو أن العمل صالح في نفسه مع كل نية وأيضاً بدون نية كإغاثة الملهوف، فان كان العمل من النوع الأول ينهار من الأساس مع نية الشر أو عدم النية، قال سبحانه: (وما أمروا لا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ــ البينة) وحيث لا إخلاص فلا عبادة ولا أخلاق.

وان كان العمل من النوع الثاني يبقى على طبيعة الخير، والنية لا تغير منه شيئاً وتحوله إلى شر مثلها، ولكن لا شيء منه للعامل لأن الشرط الأساس في الجزاء الإلهي هو الأخلاص، قال نبي الرحمة(ص): «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها او امرأة ينكحها فهجرتُهُ إلى ما هاجر اليه».

أما قوله: «انما الأعمال بالنيات» فليس المراد به أن الأعمال بكاملها تتكيف تبعاً للنية، ان خيراً فخير، وان شراً فشر، بل المراد نفي الأجر والجزاء عن الأعمال الصالحة الا اذا قصدت لذاتها بلا شائبة. وأخيراً فان كل من يظهر غير ما يبطن فلا شخصية له كي يقدر ويحترم لأنه مجرد مظهر زائف، وسراب خادع لا ضمير له ولا قلب سليم، فأين يستقر الدين أو الخلق ويقيم؟.

أجل، قد يصير الخير شراً والواجب حراماً، ولكن لا بسبب النية والإرادة بل لطارىء يعرض من الخارج، وهو المعبر عنه في لسان الاصوليين بالعنوان الثاني كالصدق يصير نميمة ومفسدة وعندئذ يكون محضوراً تماماً كالصدم إذا أضر بالصائم، وهذا خارج عما

نحن فيه.

٤ ــ أن يكون العمل شراً والنية خيراً كالطبيب يقتل بداعي الشفقة مصاباً بداء راسخ ومزمن، ويعاني من أشد الآلام ليله ونهاره، ولا علاج ومسكنات أو منومات.. وقد تضاربت الأقوال والآراء حول هذا القتل، ونحن لا نشك أنه من أكبر الجرائم، أما نية الشفقة فلا تبرر القتل وتحوله عن واقعه حتى ولو حدث بموافقة المقتول ومرضاته لأن الحياة حق لواهبها، جلت عظمته، وليس للعبد منها شيء إلا وجوب الحرص عليها، والوجوب حكم لا يسقط بالرضا، والله سبحانه لا يطاع من حيث يعصى، وهو القائل: **(ولا تقتلوا أنفسكم)** (٢٩ ــ النساء).. ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون) (٥٦ ــ الحجر).

وقد نعود إلى هذه المسألة في فصل مستقل من هذا الكتاب، بالنظر لأهيمتها من الوجهة الشرعية، ولأن كثيراً من الأطباء يمارسون هذا القتل، ولا يرون فيه أي بأس من الناحية الإنسانية.

وكما أن الخير قد يتحول إلى شر ــ انظر رقم ٣ ــ كذلك قد يتحول الشر إلى خير لا بسبب النية، بل لحدث يعرض من الخارج لا صلة له بالقدرة والإرادة، ومثاله أن يقابلك طاغية سفاك يعدو خلف رجل مظلوم يبغي اغتياله، فيسألك الظالم: هل رأيت هذا الرجل؟ فيتحتم عليك، وهذه هي الحال، أن تكذب وتقول لا ولا يسوغ الصدق بحال حيث تحول الكذب إلى عنوان آخر، وهو حقن الدم المحترم، تماماً كأكل لحم الميتة للمضطر، بل أقوى وأوضح من حيث الجواز والتحليل. وهذا خارج عما نحن بصدده.

٥ ــ أن يكون العمل عادياً لا يتصف بخير أو شر في ذاته، ولا بحلال أو حرام كزيارة فلان الفلاني.. وأي عمل يكون من هذا النوع يسوغ لنا أن نرده إلى القصد والنية والحكم عليه تبعاً لسنخها وهويتها، إن خيراً فخير، وان شراً فشر، أو لا ذا ولا ذاك. مثلاً ــ إن زرت زيداً في بيته لإحساسك بالسأم والملل والحاجة إلى قتل الوقت، فزيارتك هذه لا توصف بخير أو بشر، وان كانت الزيارة بقصد التعاون على الخير والصلاح فهي خير، وان تك للسكر والعربدة فهي شر.

والشرط الأساسي في هذا النوع من العمل أن تكون قادراً على تركه وغنياً عنه، ولا ضرورة حياتية تحتمه عليك كالطعام والشراب.. وبهذا يتبين معنا ما في قول بعض السلف: ينبغي للإنسان أن تكون له نية التقرب إلى الله تعالى في كل شيء حتى أكله وشربه ونومه ودخوله الخلاء.. ومن قصد ذلك كان مطيعاً لله لأنه يقوى على العبادة (أنظر كتاب علم

اليقين للفيض وغيره من كتب الأخلاق القديمة) ونسب مثل هذا إلى رسول الله(ص) كما في سفينة البحار للقمي.

ونحن نستبعد هذه النسبة لأن ما من عاقل على وجه الأرض يتساءل: لماذا يمشي الإنسان على رجلين، ويبصر بعينين الخ؟ وهكذا الطعام والشراب، وكل ما تفرضه الطبيعة وواقع الحياة.

عبادة الله خوفاً أو طمعاً

أشرنا في رقم ٣ من الفقرة السابقة بلا فاصل أنه لا عبادة بلا نية التقرب إلى الله بطاعة أمره، ولا خلاف في ذلك، ولكن جاء في الجزء الأول من مصباح الفقيه للشيخ الهمداني أن بعض الفقهاء يدعون بأن العبادة لا تصح إلا أن يُقصد بفعلها وأدائها مجرد الشكر لله، وأنه هو وحده أهل للطاعة والعبادة، أما من عبده خوفاً من عقابه أو طمعاً في ثوابه فعبادته سراب وهباء!.

وهذا اشتباه وذهول عن قوله تعالى: **(أفمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه)** (٩ ــ الزمر).. **(وادعوه خوفاً وطمعاً)** (٥٦ ــ الأعراف) إلى العديد من الآيات، يضاف اليها صلاة قضاء الحاجات وكشف المهمات. وقال الشيخ الهمداني سيد من كتب في فقه الإمام جعفر(ع) من يوم مصباح الفقيه إلى اليوم: «كيف يمكن تكليف البخيل الذي يحب المال حباً شديداً ويقال له: يجب عليكم أن تدفع خمس مالك حباً لله لا خوفاً من عقابه؟ وهل هذا إلا تكليف بغير المقدور؟».

وبعد، فيجب أن نفرق بين مفهوم الطاعة وحقيقتها من جهة، وبين ما يقصده المطيع من الجزاء المترتب على طاعته من جهة ثانية، فمفهوم طاعة الله هو أن نؤدي الواجب لأن الله أمر به، ومن يفعل ذلك فقد أطاع الله شرعاً وعقلاً وعرفاً، سواء أقصد من طاعته التخلص من العقاب أم الفوز بالثواب لأنهما معاً من أجزية الطاعة وثمارها. وبكلمة أن من أدى ما أوجب الله سبحانه خوفاً أو طمعاً، لم يخرج عن الإطار الإلهي ويتجاوز الخط المرسوم.

الجهد

معنى الجهد

هذا هو العنصر الخامس والأخير من عناصر الخير والفضيلة، والمراد بالجهد هنا ــ بضم الجيم وقد تفتح ــ أن يستخدم المرء كل ما يملك من طاقة لمقاومة ما يصده عن الاستقامة والخلق الكريم في نشاطه وسلوكه. والدنيا كلها نضال وكفاح، وهل ظفر الإنسان بشيء منها إلا بسعي وجهد، أو نجح فيها غير المجد الكادح والدؤوب الحاذق؟

أما الدين والإيمان فهو فعل الواجب وترك الحرام، ومثله تماماً الأخلاق، والفرق في اللغة التسمية. فالواجب الفقهي اسمه عند الأخلاقيين خير وفضيلة والحرام شر ورذيلة، والله سبحانه لا يأمر الا بخير ولا ينهى إلا عن شر، ولا بد للتنفيذ والطاعة من مكافحة الشهوة العاتية الناهية عن الخير وفعله، ومقاومة الهوى المعاكس لترك الشر والرذيلة.
والفقهاء يسمون الواجبات والمحرمات بالتكاليف الشرعية، والأخلاقيون يسمون هذه التكاليف بالإلزام فعلاً أو تركاً، ويقول الفقهاء: يجب على المكلف اطاعة التكليف وامتثاله، ويقول الأخلاقيون، الإنسان مسئول عن الإلزام، وأيضاً يشترط الفقهاء النية لوجه الله في العبادة، وأهل الأخلاق يوجبون فعل الخير لوجه الخير، وبهذا يلتقي الفريقان على صعيد واحد في الإلزام والمسئولية والنية.

والجزاء يبحثه الأخلاقيون وعلماء الكلام دون الفقهاء، أما الجهد فيُبحث في التصوف وعلم الأخلاق.

طريق الحق والفضيلة

لا شيء أكثر من العقبات في طريق الحق والخير والفضيلة، ولا بدع فان ثمن كل شيء بحسبه، وإذا عرفنا أن ثمن الجنة عند الله سبحانه النهي عن الهوى كما جاء في الآية ٤٠ من النازعات، عرفنا أن تنفيذ هذا النهي صعب مستصعب لأن كل شيء من هذا القبيل يكاد يتحطم على صخرة الأهواء والأغراض. أليس هوى المرء مشدوداً بمنافعه الشخصية تلقائياً وعاطفياً؟ واذن فالنهي عن هواه نهي عن هذه المنافع بالذات، ومن هنا قال رسول الله(ص) وهو عائد من بعض غزواته: ((رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر)). وقال الإمام أمير المؤمنين(ع): ((الحق ثقيل مريء، والباطل خفيف وبيء)).

وأقبح القبيح أن يجهل المرء بجهله، فيظن الخير شراً، والشر خيراً، وقد يسيء بهذا الجهل إلى نفسه وهو يحسب أنه يحسن اليها صنعاً!. قال رجل لأبي ذر: اطرفني بشيء من العلم. فقال له: ان قدرت أن لا تسيء إلى من تحب فافعل. فقال له الرجل: وهل رأيت أحداً يسيء إلى من يحبه؟ قال: نعم، نفسك أحب الأنفس اليك، فاذا أنت عصيت الله فقد أسأت اليها.

وقسم المؤلفون في الأخلاق، الجهد إلى روحي وبدني، وأطالوا الكلام عن الثاني بلا طائل، لأن السعي والكدح من أجل الرزق وسد الخلة، من ضرورات الحياة، ولا أحد يسأل الزارع: لماذا تزرع؟ والعامل لماذا تعمل؟ ومن توكأ على غيره لعجز فمعه عذره، على أن فئة من الفلاسفة قالوا ((من يستهلك ولا يعمل لعجزه يجب أن يترك للموت)). ومنهم أفلاطون وبيكون ونيتشه وتومار وصاحب الإنسان هذا المجهول، وهو من أقطاب القرن العشرين، وبعض الشعوب تترك العجزة في مجاهل الصحراء (مجلة عالم الفكر الكويتية العدد الثالث من المجلد الرابع) وشعوب أخرى في هذا العصر تذبح الهرم العاجز وتأكله.

أما الجهد البدني في عبادة الله سبحانه، فقد كان منذ زمان حيث كان لحياة الروح آثارها وثمارها، وكان الكثير من العباد يحرصون على الندب حرصهم على الواجب، وأذكر من ذلك مثالاً واحداً لأنه نزل من نفسي منزلته، قال رجل لأبي ميسرة العابد: ((يرحمك الله يا أبا ميسرة، أتجهد نفسك في العبادة، والله ذو رحمة واسعة!.. فقال له أبو ميسرة: هل رأيت مني ما يدل على القنوط من رحمة الله؟ ان رحمة الله قريب من المحسنين)) فليس لأحد أن يعتمد على رحمته الواسعة إلا أن يكون محسناً.. وهنا مكان العبرة والاعتبار لمن يرجو رحمة ربه.

هذا ما كان، أما ما هو كائن الآن فقد أنتج العدو الأجنبي لنا سلعاً تستنزف الدماء والأموال، وأفكاراً تضلل العقول وتعمي القلوب، فاستهلكنا هذه وتلك بالكامل، وانسلخنا عن كل قيمة وتراث، ولم يبق فينا من العابدين والمتهجدين إلا من يؤدون الفريضة المكتوبة وكفى.. على أنهم أقل من القليل، وان وجد في الزوايا بقايا من السلف الصالح فمن باب لكل قاعدة شواذ.

ومن هنا كان الجهد النفسي في هذا العصر أكثر إصراراً وأشد عُسرا من أي وقت مضى، ولكن هذا لا يخفف المسئولية، بل يؤكد وجوب العمل للخروج من عهدتها، ولا يبرر الجريمة، بل يستوجب المزيد من النشاط ومقاومة المنكر، والمؤمن الصادق لا يتهرب من واجبه متعللا بالأعذار الزائفة، بل يصمد ويضاعف الجهود، والله يضاعف له ويزيده من فضله.. وتاريخ الإنسانية كله حرب وصراع بين عناصر الخير وعناصر الشر، وبين

أنصار الحق والباطل.. حتى دنيانا هذه التي بلغت من الإغراء والمادة غايتها، فيها الكثير، ولله الحمد، من الشهداء والمعتقلين والمشردين، لا لشيء إلا لأنهم رفضوا الاستسلام للبغي، وأبوا إلا العدل والمضي على الحق.

هذا، إلى أن النفس الأمارة لا تملك قنابل وصواريخ، وما لها أي سلطان ظاهر وقاهر، وغاية جهدها أن تدعو إلى التمرد على الدين والعقل والخلق الكريم كما جاء في الآية ٢٢ من سورة ابراهيم على لسان الشيطان: (وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتهم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم). وكم سمعنا وقرأنا عن أفراد تحرروا بالعزم الصادق وقوة الإرادة من أعمال بغيضة وعادات قبيحة بعد أن اعتادوها عشرات السنين، وصارت لهم طبيعة ثانية وثابتة: **(ومن يتوكل على الله فهو حسبه)** (٣ ــ الطلاق). وفي فصل الإلزام فقرة لا أخلاق بلا حرية تكلمنا حول هذا الموضوع بما يتناسب مع الحرية، وهنا تكلمنا بما يستدعيه الحديث عن الجهد.

أخلاق العسر والشدة

يرى بعض الفلاسفة أن الجهد لا يتلاءم مع الأخلاق لأن الخلق طبع وسجية، أي ان الفعل الأخلاقي يجب أن يصدر من أعماق الإنسان بيسر وسهولة بحيث يكون امتداداً لانفعالات وجدانية، وثمرة لبواعث داخلية منزها عن كل قسر وضغط. والقائلون بهذا يسمون أخلاقية الفعل وتأدية الواجب عن جهد وكبح النفس ــ بأخلاق العسر والشدة.

وقرأت العديد من الإجابات عن هذا السؤال، وأرجحها ــ فيما أرى ــ ما أجاب به الدكتور دراز في كتابه دراسات إسلامية، قال ما معناه: ليست المسألة في أخلاقية السلوك والفعل من حيث هو ــ مسألة عقل وعاطفة، وغرائز متضاربة، وانما هي مسألة نية صافية، وإرادة جادة تتعلق بهدف واضح معين، وبالإرادة مع هدفها يقاس العمل والسلوك، ويوصف بأنه خير أو شر، فضيلة أو رذيلة.

فإنْ اختار المرء وأراد ما هو خير وصلاح يكون خلقه حميدا وكريما، وإن مال إلى ما هو شر وفساد يكون خلقه قبيحا وذميما سواء أكان هذا الميل والاختيار تلقائيا وبلا واسطة، أم بسبب التربية والبيئة، أم بجهاد النفس وترويضها.

وما أبعد ما بين هذا القول وقول آخر بأنه لا أخلاق إلا بجهد وكفاح لأن النفس التي تفعل الخير تلقائياً وبكل يسر وسهولة لا أجر لها ولا فضل.

والجواب هنا هو الجواب هناك من أن السلوك الخلقي يقاس بالإرادة مع هدفها بغض الطرف عن سببها ومصدرها... ويضاف إلى ذلك أنه لو صح هذا الزعم لكان المصنوع خيرا من المطبوع،

وكان من يحيا حياة مثلى بفطرته أسوأ حالا ممن يحياها بالتمرين وعلى أيدي المربين.

وأخيراً فان الكمال المطلق لله وحده، وأشرف مخلوق لا يخلو من افتقار أو ضعف أو نقص، ولا غنى له عن الحذر والكدح والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم. وأيضاً أكثر الناس شراً لا يخلو من بذرة طيبة ونفحة إنسانية يظهر أثرها ويقطف ثمرها في ساعة تمر على حين غفلة من شياطين الانس والجن. والنتيجة العائدة على هذا أو ذاك تأتي من وجه واحد وهو العمل، فانه القطب والأساس والأول والآخر مع التفاوت في الدرجات بين الفاضل والمفضول عند العليم الحكيم.

الفضيلة توحيد وانسجام

والمراد بالتوحيد هنا أن يكون الإنسان واحداً في دينه وعلمه وعمله، والمراد بالانسجام التوافق بين الشيء وحقيقته. مثلاً ــ تغريد البلبل ينسجم مع روحه وطهره، ونهيق الحمار يتفق مع خواطره شعوره.. ويُروى أن حكيما مرّ بسفيه فشتمه وأفحش، فأعرض الحكيم عنه ولم يمتعض وحين قيل له: لم لا تبالي؟. قال: لأني لا أتوقع أن أسمع من الغراب هدير الحمام.

ونقطة البداية في الفضيلة والخلق الحسن أن يعرف المرء ويميز بين الخير والشر، ويؤمن ويوقن بأن هذا يجب الكف عنه، وذاك لا يسوغ تركه واهماله بحال، فإن طاوعته النفس وانقادت له عند العمل والتنفيذ فقد تم الإنسجام واجتمع الإيمان والعلم والعمل على نهج واحد، وإن عاكست النفس الأمارة وشاكست حرصاً على مال أو جاه أو حياة إن كان الواجب بذلا وجهاداً، أو حرصاً على لذة عاجلة إن يك الواجب كفاً عن شهوة محرمة فعليه أن ينسجم مع علمه وايمانه بالوقوف إلى جانبهما ضد النفس الأمارة، ويلجمها بكل ما استطاع من شكائم حتى تستسلم للحق خاضعة صاغرة.

ومن ضعف وانقاد لشهوته فقد انفصل من عقله ووجدانه وعلمه وايمانه، وأصبح مخلوقاً مشوهاً... إن العلم ليس مجرد صورة تحتل مكاناً في الذهن والدماغ كالحبر على ورق، ولا الإيمان ألفاظاً نرددها على حبات المسابح. كلا، إن العلم والإيمان طريق وأداة إلى العمل

النافع، إلى بناء حياة مثلى، وهذا العمل والبناء هو الإيمان والعلم والأخلاق.. فقد جاء في المجلد الثاني من أصول الكافي: أن رجلا سأل الإمام الصادق(ع)، هل الإيمان قولٌ وعمل أم قول بلا عمل؟ فقال: الإيمان كله عمل، وفي رواية ثانية: «لا يكون الإيمان إلا بعمل»، وفي المجلد الأول من هذا الكتاب أيضا عن الإمام الصادق(ع): «لا يقبل الله عملا إلا بمعرفة، ولا معرفة إلا بعمل، فمن عرف دلته معرفته على العمل، ومن لم يعمل فلا معرفة له». ومن المعلوم أنه لا دين بلا معرفة.

وقول الإمام: «دلته معرفته على العمل الخ» يومىء إلى أن العلم بلا عمل تماماً كالجهل الذي لا يكشف عن شيء لأن هذا لا يعقبه العمل، وذاك ايضاً كذلك كما هو الفرض. وتلتقي البرجماتية مع قول الإمام(ع) لأن المعرفة عندها عين العمل، ومن قال أو يقول: أنا عارف أو عالم دون أن يعمل فقد ناقض نفسه بنفسه، والفرق أن الإمام يحصر العمل بما لا ضرر فيه على أي مخلوق، والبرجماتية تُطلق ولا تقيد.

جهاد النفس

ذكر الشيخ العاملي الحر في الجزء السادس من وسائل الشيعة كثيراً من الأحاديث عن النبي وأهل بيته(ص) بعنوان (أبواب جهاد النفس وما يناسبها) استغرقت ٢٧٠ صفحة، ونذكر منها بعض ما يناسب هذا الفصل، عسى أن ينتفع به من يحرص على إصلاح ما بينه وبين خالقه، فان مدرسة أهل البيت وتعاليمهم هي وحدها تكشف ما ينطوي عليه قول جدهم سيد الكونين(ص): انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق. وقوله: الدين النصيحة والمعاملة. وقوله: المهاجر من هجر السيئات. وقوله: الدين بذل الجهد وصدق العمل.. إلى غير ذلك مما يربط الإسلام بالحياة، ويسير بها إلى ما هو أحسن وآمن.

واليك هذا الشاهد الناطق الصادق، مع أنه غيض من فيض. قال آل الرسالة بوحي من الله، تقدست أسماؤه:

١ ــ «أفضل العبادة العفاف.. من كف أذاه، وعف بطنه وفرجه كان في الجنة ملكاً محبوراً.. من قدر على امرأة حراماًن فتركها مخافة الله حرم عليه النار.. طوبى لمن ترك شهوته لموعد لم يره».

الدين صرح يقوم ويستقيم على أساسين متناقضين: فعل ما فيه للإنسان خير وصلاح، والكف عما فيه شر وفساد. وما من شك أن فعل الخيرات أيسر وأسهل على النفس من ترك

الشهوات واللذات المحرمة، أليس المال والنساء والجاه والسلطان، زينة الحياة وغاية الغايات عند كثير؟ وهل من وسيلة إلى الصبر عنها إلا بورع واجتهاد؟. وهنا يكمن السر في قول المعصوم: «أفضل العبادة العفاف» لأن الصلاة والصيام والحج إلى بيت الله الحرام لا يحتاج إلى سد الثلمات وردم السراديب في زوايا النفس الأمارة، أما كبح الشهوة عن زينة الحياة فشاق وعسير. وفي حديث آخر «من عصى الله فقد نسي الله، وإن كثرت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن». ويتفق هذا مع ظاهر الآية ٢٧ من المائدة: (انما يتقبل الله من المتقين).

وقال الإمام الصادق(ع): قليل العمل مع التقوى خير من كثير بلا تقوى. فقال له سائل: وكيف يكون كثير بلا تقوى؟. قال: مثل الرجل يكون عنده مال... فينفق منه في الخيرات ولكن إذا انفتح أمامه باب الحرام دخل فيه، فهذا أبعد الناس عن التقوى والمتقين، ورجل آخر ليس عنده مال لينفق منه على المعوزين، ولكن اذا انفتح أمامه باب الحرام لم يدخل فيه، فهذا من أهل الورع والتقوى لأنه ترك المنكرات، وانتهى عن المحرمات.

والدرس الذي نستفيده من هذه الدروس المحمدية العلوية هو أن علينا أن نقيس الإنسان بمجموع أعماله ونعتبرها مكملة بعضها للبعض الآخر، ولا ننظر إليه من جانب دون جانب كقصة العميان والفيل.ــ مثلاً قد يعطف فلان الفلاني على كسيح أو جريح لا يحسده على شيء، ولا يحقد عليه لسابقة أو بادرة، فيسوغ، وهذي هي الحال، أن نحكم ونقول: هذه العاطفة بالخصوص إنسانية وطيبة، ولكن لا يسوغ بحال أن ننطلق منها إلى الحكم على صاحبها بأنه انسان طيب بقول مطلق، لأن مثل هذا الحكم يتطلب الفهم الكامل لكل جانب من شخصيته وكل اتجاه من اتجاهاته، فما يدرينا أنه لو ظفر بمن يحسد ما آتاه الله من فضله لقطعه عضواً عضواً؟

وكم رأينا من يستحسن القبيح من قريب أو حبيب، ويستقبح أحسن الحسن من آخر، أبداً لا لشيء إلا لأنه أكمل منه وأفضل؟. وأخيراً هل من العقل والعدل في شيء أن نرتضي قول من يستنكر عيوب الناس، ويرتضيها هو لنفسه؟.

٢ ت من تعاليم أهل الوحي والرسالة: (من لم يعط نفسه شهوتها أصاب رشده.. من اجتنب ما حرم الله عليه فهو أعبد الناس، ومن قنع بما قسم الله له فهو أغنى الناس.. وقال الإمام الصادق في تفسير قوله تعالى: **(وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً)** (٢٣ ــ الفرقان): ان أعمالهم كانت شديدة البياض، ولكنهم كانوا إذا عرض لهم حرام لم يدعوه..

من قال: لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة، واخلاصه أن يحجزه (لا إله إلا الله) عما حرم الله.. أفضل الجهاد من أصبح لا يهم بظلم أحد.. أشد ما فرض الله على خلقه أن ينصف العبدُ الناس من نفسه، وان يواسي أخاه في ماله، وأن يذكر الله على كل حال، وليس ذكر الله أن يقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ولكن إذا ورد على حرام خاف الله عز وجل عنده وتركه.. من أقرّ بدين الله فهو مسلم، ومن عمل بما أمر الله فهو مؤمن)).

من قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله يعامل في الحياة الدنيا كالمسلمين في الميراث والزواج وما أشبه سواء أكان مخلصاً في كلمة الإسلام وشهادته أم غير مخلص، والفرق بين هذا وذاك انما هو في ميزان الآخرة وعند رحمانها لا في ميزان الدنيا وشيطانها حيث لا ينجو هناك إلا من أتى الله بقلب سليم، أما غيره فله عذاب أليم حتى ولو هلل وتشهد، والمراد بالاخلاص هنا ما أوضحه المعصوم بقوله: واخلاصه أن تحجزه كلمة (لا إله إلا الله) عما نهى الله وحرم.

ويدلنا هذا الربط بين كلمة التوحيد والكف عن الحرام أن هذا الحجز والكف أصل من أصول الدين والعقيدة، وليس فرعاً كما يظن، بل هو تماماً كالإيمان بالله أو بمنزلته، ويؤيد ذلك قوله: ((وليس ذكر الله أن يقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ولكن إذا ورد على ما يحرم عليه خاف الله وتركه)).

وفي كتاب سفينة البحار عن رسول الله: ((على المسلم في كل يوم صدقة. فقيل له: ومن يطق ذلك يا رسول الله؟ فقال: كف الأذى عن الطريق صدقة.. دخل عبد الجنة بغصنٍ من شوك أماطه من الطريق.. من أماط من طريق المسلمين ما يؤذيهم كتب الله له أجر قراءة ٤٠٠ آية، كل حرف منها بعشر حسنات.. وسبقت الاشارة في آخر فصل المسئولية، إلى أن النبي(ص) قال لأبي ذر: ((تصدق عن نفسك بكف الأذى عن الناس)).

وأول ما يسبق إلى ذهن القارئ من هذه الأحاديث والتي قبلها أن منفعة الناس على أنواع ودرجات متفاوتات، منها سلب محض، وهو أن لا يمس الطرف الأقوى من هو دونه قوة بأذى، ولا يستخدم قوته في معصية الله والإساءة إلى عباده وعياله، ومنها أن يزيل الأذى ولو كان شوكة في طريق، ومنها أن يبذل من نفسه وماله ما يحرر الناس من احتكار واستغلال أو رق وهوان أو فقر وجهل أو تقليدٍ ما أنزل الله به من سلطان.

وبهذه المناسبة نشير إلى أن القرآن الكريم لعن الظالمين في العديد من آياته، ونص على

أنهم مخلدون في الدار، وأنهم لا يفلحون أبداً: **(فأذن مؤذن بينهم ألا لعنة الله على الظالمين)** (٤٤ ــ الأعراف).. **(ألا لعنة الله على الظالمين)** (١٨ ــ هود).. **(يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار)** (٥٢ ــ غافر).. **(إلا إن الظالمين في عذاب مقيم)** (٤٥ ــ الشورى).. **(ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع)** (١٨ ــ غافر).. **(انه لا يفلح الظالمون)** (٢١ ــ الأنعام). وهناك بعض الآيات تومىء إلى أن الظالم كافر مثل: **(فأبى الظالمون إلا كفوراً)** (٩٩ ــ الاسراء).

كف الأذى أصل لا فرع

والقصد الأول من هذا الاهتمام والتركيز على النهي عن كف الأذى بعامة وعن الظلم والعدوان بخاصة، هو الإشارة والتنبيه إلى ان المحبة وحسن التعاون بين الناس ليس شرطاً من شروط الإيمان أو لازماً من لوازمه وكفى، بل هما عصب الحياة الاجتماعية، وعليهما يقوم ويستقيم كل جانب من جوانبها حتى الحياة بين أخوين أو أبوين فضلاً عن حياة المجتمع والجماعة، وعليه فليس هذا المبدأ وضعياً أو شرعياً بل عقلياً وطبيعياً، والإسلام كشف عنه وأقره وحث على التمسك به، واليه أشار القرآن بقوله: **(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع صلوات ومساجد)** (٤٠ ــ الحج) يضاف إلى ذلك الحرص على حرية الإنسان وحقوقه وكرامته، ولولا هذا المبدأ لكان الحق للسيف والقوة لا للقانون والعدالة.

والآن تعيش البشرية كلها إلى جانب قوتين عالميتين رهيبتين تتسابقان إلى السلاح الأكثر فتكاً وسفكاً حتى حولتا إليه قرص الجائع وطمر العاري وكوخ المشرد، وكل منهما تزهو بأسلحتها الجهنمية وترهب بها عباد الله وعياله، أما مثلهما الأعلى فواحد، وهو أن تكون كل منهما أشد قوة وأكثر جمعاً، وبهذا يمكننا أن نعرف ما هي الآثار والأضرار التي يتركها هذا المثل أو المبدأ على العالم كله بلا استثناء.

وإذا كانت فلسفة نيتشه القائلة بأن القوة هي الحق والعدل والقانون والأخلاق، وأن الضعيف يجب أن يكون رقاً مؤبداً للقوي تماماً كالحيوان أو يجب أن يقتل كالديدان، إذا كانت هذه (النيتشية) باطلة عند أهل الشرق والغرب فان قوى الشر في عصرنا تطبقها بدقة وأمانة، وكفى شاهداً على ذلك مساعدتها على تشريد شعب بمجموعه، وغزو شعب في عقر داره، والمكر بكل بلد لا يخضع للقوة.. والتآمر عليه بايقاظ الفتنة من الداخل، أو بانقلاب عسكري أو بتحريض شعب مجاور.. إلى أشكال وألوان من الاغتيال والاحتيال، ويبدو أن هذه القوى

لا تبلغ غاياتها إلا على حساب الضعفاء والأبرياء.

ومشكلة البشرية مع أقوياء هذا الزمان أعصى من أن تحل بطول الكلام والشكوى من أولاد الحرام.. ولكن للحق سلاحاً لا تراه الأعين، وهيهات أن تنام الشعوب على الضيم وإن طال بها الزمن.. وعلى أية حال فهذا الكلام لا يمتّ إلى ما نحن فيه بسبب، وهو أشبه بنفثة مصدور، لأن حديثنا يختص بمن يؤمن بالإلزام الخلقي والواجب الإنساني، ولكن نفسه الأمارة تعاكس وتشاكس، وعليه أن يكافحها ويكبحها، وقوى الشر في عصرنا لا تخاف المعاد، ولا تعترف بعقل وضمير، ولا ترى الا منافعها الشخصية.

٣ ــ من تعاليم الهداة «ذمك لنفسك أفضل من عبادة أربعين سنة.. من مقت نفسه دون مقت الناس أمنّه الله من فزع يوم القيامة. سيئة تسوءك خير عند الله من حسنة تعجبك.. والله لا ينجو من الذنب إلا من أقر به».

قد يسهل على المرء أن يعترف بالخطأ ويعتذر منه لمجرد التخلص من مشكلة لا سبيل إلى انهائها إلا بالاعتراف والاعتذار، ولكن لا يسهل عليه أبداً أن يمقت نفسه ويعترف بخطئها، ويشعر بالحاجة الماسة إلى محاسبتها أو اصلاحها إلا أن يكون واقعياً ومعقولاً، ولا يكون واقعياً ومعقولاً إلا أن يتهم نفسه في صواب ما أحبت وتحسين ما اشتهت.

وهذا الإحساس والشعور لا يُعدّ جهاداً للنفس، ولكنه يمهد الطريق اليه، ويبشر بالعزم والتصميم على بذل الجهد لحياة أكمل..

أما الذي يرى نفسه على صواب دائم فميئوس منه، بخاصة إذا اعتقد أن صوابه جاء من وحي العبقرية والإلهام، وان من كان على موهبته وشاكلته فهو في غنى عن الدرس والعلم والتجربة والممارسة.

ونختم هذا الفصل بكلمة جاءت في آخر الخطبة ٨٨ من خطب النهج، وفيها غنى عن كل ما قيل ويمكن أن يقال عن جهاد النفس: «من لم يعن على نفسه حتى يكون له منها واعظ وزاجر لم يكن له من غيرها زاجر ولا واعظ». وهذا الواعظ والزاجر هو الذي عناه الأخلاقيون بالحاسة الخلقية والضمير الأخلاقي.

والخلاصة أن الدين عند أهل البيت(ع) ليس مجموعة من الاعتقادات والعبادات والمعاملات وكفى، أي اعتقاد مجرد عن العمل وكلام يردده اللسان دون أن يترك أثراً، وانما الدين في

جوهره فعل الخيرات والكف عن المحرمات، وبدون هذين الأصلين لا دين ولا أخلاق لأن الحياة التي عناها سبحانه بقوله: **(يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم)** (٢٤ ــ الأنفال) لا تستقيم إلا بالأمن والسلام والحرية والمساواة والحق والعدل، ولا يوجد شيء من ذلك إلا بكف الظلم والأذى وحجز المطامع والشهوات، وما من إنسان إلا وهو قادر على هذا الكف والحجز.

الأخلاق العملية

حول الفضائل العملية

عالم بلا درس ومسلم بلا اسلام

ليس العلم وقفاً على من يحمل الشهادات، فقد يكون الإنسان عالماً بيده لا بمدرسته وكتابه، مثل الرجل يقضي حياته كلها في الحقل أو في المصنع، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب، ومع هذا يعرف من مهنته الخاصة أكثر من الذين تخصصوا بها، وأمضوا العديد من السنوات في المدرسة والكلية، وأيضاً ليس عمل الخير والفضيلة مقتصراً على من قرأ الأخلاق أو تخصص بعلمه، فمن الممكن أن يكون المرء فاضلاً في أخلاقه دون أن يستطيع تعريف الفضيلة كما قيل.

وقال الشيخ محمد عبده ما لفظه أو معناه: قد يوجد مسلمون في غير بلاد الإسلام، ولا يوجد مسلمون في بلاد الإسلام. يريد أن بعض الناس قد لا يتخذ الإسلام ديناً، ومع ذلك يتخلق بأخلاقه، وآخر قد ينتمي إلى الإسلام، ولكنه أبعد الناس عنه. قال الإمام أمير المؤمنين(ع): رُب عالم قد قتله جهله، وعلمه معه لا ينفعه.

فالعلم بلا عمل الجهلُ خير منه، والمعرفة بالمباشرة والممارسة تدخل في العلم العملي أو التطبيقي أو (التكنيك) بالتعبير الدارج، ويعتمد هذا العلم على الظواهر الجزئية والمشاهد الحسية، ويتخذ منها مجالاً للدراسة والاختبارات، ويصوغ من نتائجها أحكاماً وقضايا مستمدة من الحس والتجربة، ويعتمد العلم النظري على التفكير والتأمل، وقضاياه حدسية لأنها تدور في عقل الباحث، ولا تستند إلى أذن أو عين، وقد تتجاوز هذه القضايا حدود الفكر والكلام إلى عالم التجربة والامتحان، فان وجدت في العمل والتطبيق البرهان على صدقها اتحد النظر والعمل، وكانت القضية ذات وجهين: نظرية لأن مصدرها الأول الفكر، وأيضاً عملية لمكان التوافق والتطابق بين النظر والعمل، بين التصور والواقع، وبكلمة: العلم العملي ينطلق من الجزئيات والعلم النظري ينطلق من الكليات.

والأخلاق النظرية التي انتهينا من الحديث عنها، هي من هذا النوع، لأنها الأصل والمدرك للأخلاق العملية التي سنتحدث عنها في الصفحات الآتية.. فالصلة بينهما صلة النتيجة بمقدماتها، والمدلول بدليله. وقد يظن أن المراد بالأخلاق العملية هنا تقييم العمل والسلوك الموجود بالفعل والحكم عليه بعد حدوثه، وليس هذا بمراد، وإنما المراد بالأخلاق العملية،

الأحكام الفرعية التي تتعلق بالعمل مثل افعل، ولا تفعل. فهي عملية لأن موضوعها نفس العمل، وأيضاً يسوغ أن نطلق عليها كلمة (نظرية) من حيث انها مجرد تشريع وانشاء.

وموضوع الأخلاق النظرية عمل أيضاً، ولكنه كلي العمل وماهيته العامة الشاملة التي لا وجود لها إلا في عالم المعنى والاعتبار، أما موضوع الأخلاق العملية فهو العمل الشخصي الخارجي. وإذا تشخصت الماهية الكلية في فرد من أفرادها الخارجية تصير جزئية بهذا اللحاظ.

علم الأخلاق محك الخطأ والصواب

علم الأخلاق مستقل في ذاته ومباحثه وكتبه ورجاله، وإذا كان الوحي من مصادره عند المؤمنين بالله واليوم الآخر كما أشرنا في فصل الالزام ــ فليس معنى هذا أن علم الأخلاق غير مستقل، أو أنه ديني بحت، فان الله سبحانه يأمر بعلم الطب والهندسة والزراعة والصناعة، وكل ما يمتّ إلى الحياة بسبب تماماً كما أمر بالنواميس الطبيعية أن تكون.

وأيضاً علم الأخلاق خاصة العملي منه يقاس به غيره، ولا يقاس هو بغيره، ومن هنا كان من العلوم المعيارية. مثلاً ــ الأديان كثيرة ومتباينة، وكل دين ينقسم إلى فرق ومذاهب، والقوانين والأنظمة الوضعية بلغت الغاية والنهاية في التناقض والتنافر، أما الآراء والفلسفات والتقاليد والعادات فلا حصر لها ولا عد.. (كل حزب بما لديهم فرحون).

ومن يلتمس الحق والهداية يقف أمام هذا التناقض ذاهلاً حائراً، لا يدري أيها أحق بأن يُسمع ويتبع؟.

ولكن علم الأخلاق العملي هو محك الخطأ والصواب لأنه يهدي إلى محاسن كل دين أو قول أو عمل ومنافعه، ويكشف عن مآخذه ومساوئه، ولأن المفروض في كل دين أو فلسفة أو نظام أن يقوم على مبادئ إنسانية وفضائل عملية كالحرية والعدالة وصيانة النظام والأمن العام.. إلى كل ما لا بد منه ولا غنى عنه لبناء حياة إنسانية أخلاقية للناس أجمعين بلا فضل وامتياز في جنس ولون، أو منصب ونسب، أو جاه وثراء، أو في أي شيء إلا بما يقدمه الإنسان لخدمة أخيه الإنسان.

وقد حرص الإسلام كل الحرص على هذا المعيار والمحك، قال سبحانه: **(فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض)** (١٧ ــ الرعد). وقال الرسول(ص): خير

الناس أنفع الناس للناس، وشر الناس من تخاف الناس من شره، أو تتقي شره.

وبعد، فهل من أحد يجرأ أن يضع مادة واحدة لا قانوناً ونظاماً كاملاً ــ يضر بمصلحة الإنسان، ويناقض العدالة مباشرة وبصراحة؟ وإذا اجترأ وفعل فهل يسلم من عواقب الاغتصاب والاستغلال ومصير التزوير والاحتيال؟

صحيفة الأخلاق العملية

ذكر المؤلفون القدامى وبعض الجدد في كتبهم الأخلاقي ــ الوضوء والغسل والتيمم والصوم والصلاة والحج والزكاة وغير ذلك من مسائل علم الفقه.. وما من شك أن العبادة ــ من حيث هي ــ خير وفضيلة، بل نحن على يقين بأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، شريطة أن يكون المرء عبداً لله حقاً وواقعاً، وعلى نية الطاعة الصادقة في جميع أحكامه وحلاله وحرامه، وليس عبداً لأهوائه في كل شيء إلا في الصلاة والصيام والحج إلى بيت الله الحرام.

قال الإمام الباقر(ع): «ان لله عباداً ميامين مياسير يعيشون ويعيش الناس في أكنافهم وهم في عباده مثل القطر، ولله عباداً ملاعين مناكيد لا يعيشون ولا يعيش الناس في أكنافهم وهم في عباده بمنزلة الجراد لا يقعون على شيء إلا أتوا عليه».

وليس المراد بعيش الناس هنا أن الغني يتصدق على الجياع والعراة وكفى، بل المراد أن الميامين عند الله هم الذين يجاهدون ويعملون لحياة أعظم لكل الناس في كل زمان ومكان، والدليل على إرادة هذا المعنى قول الإمام: (هو مثل القطر) الذي به يحيا جميع العباد وكل البلاد، وينبت الزرع ويدر الضرع، وتحمل الأشجار وترخص الأسعار، أما أعداء الله والإنسانية الذين لا يطيب لهم العيش إلا من دماء خلق الله وأقوات أهل الأرض، فهم تماماً كالجراد الذي يأتي على الأخضر واليابس، لا يبقي شيئاً من هذا، ولا يذر لذاك أي أثر.

وأيضاً تحدث القدامى في كتب الأخلاق عن الحلواء والفاكهة، واللحية والشارب والعانة والأظافر والتكحل والتدهن والخف والنعل والعمائم والقلانس(١) ولا بأس إن كان الغرض من ذلك الحث على النظافة لأنها من الإيمان، وهو الأساس للخلق الكريم، ولكن لكل زمان دولة ورجال كما قال الأولون. وفي سفينة البحار عن الإمام الصادق(ع) «إن خير لباس كل زمان لباس أهله» واشتهر عن الإمام أمير المؤمنين(ع): «لا تكرهوا أولادكم على أخلاقكم فانهم خلقوا لزمان غير زمانكم».

الفقر رذيلة لا فضيلة

وأطال بعضهم الحديث عن فضائل الجوع وفوائده، ومنها أنه صفاء للقلب، ونور للذهن!. ونحن لا نشك في أن للجائع أجراً عند الله وفضلاً، ولكن ذهنه وعقله في شغل شاغل بمعدته، أما قلبه فيحوم حول الموائد والولائم الفاخرة التي يمدها أهل المال والثراء.

وكان الأجدر والأليق بالدعاة إلى الدين والأخلاق أن يتحدثوا عن رذيلة الفقر وما يترتب عليها من أسواء وأدواء كالكذب والنفاق، والبغاء والرياء، والحقد والحسد، والغيبة والسرقة، والذل والهوان، والجهل والمرض.. إلى غير ذلك من القبائح والرذائل. واشتهر في أيامنا أن أمهات الرذائل وجذورها ثلاث: (الفقر والمرض والجهل) ولكن كلمة الفقر بمجردها تدل على الجهل والمرض، ويغني ذكره عن التصريح بهما، لأن الفقر من حيث هو ينطوي على العديد من الرذائل، منها الجهل والمرض وأيضاً الكفر والإلحاد.

ومن هنا قال نبي الأخلاق والخلائق بلسانه ولسان آله(ص) كما في نهج البلاغة وسفينة البحار وغيرهما: «كاد الفقر يكون كفراً.. الفقر سواد الوجه في الدنيا والآخرة.. المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف (لأن قوته عدة ودعامة للدين والإيمان).. الفقر يخرس الفطن عن حجته.. الفقر الموت الأكبر.. الفقر في الوطن غربة، والغنى في الغربة وطن.. الفقر مدهشة للعقل، ومنقصة للدين، وداعية للمقت». ولا شيء وراء ذلك إلا الانتحار، وقد فعله العديد من المشردين والجائعين.

ولم يكتف الإمام أمير المؤمنين(ع) بالإشارة إلى ما للفقر من أسواء حتى ذكر منبعه ومصدره حيث قال: «ما جاع فقير إلا بما مُتع به غني» أي أن الذين يجمعون الأموال لا لسد الحاجة وقضائها، بل ليضاهوا ويباهوا بالرفاهية والتكاثر، هم الذين سلبوا لقمة الجائع، وسرقوا ثوب العاري، واغتصبوا مأوى المشرد.. ان الهدف من الأول العمل والسعي ومن المال والإنتاج هو أن يكون كل واحد من سكان هذا الكوكب في المستوى اللائق بحياة الإنسان وحرمته وكرامته.

ولا أدري كيف نسي هذه الحقيقة من تحدث عن فضل الفقر وفضيلته، وهو يثق بعلمه، بل ويرى نفسه أفضل من أنبياء بني إسرائيل لأنه أعرف منهم بمحمد(ص) وسنته؟ كيف نسي هذه الحقيقة، وحفظ روايات في فوائد الفقر ومنافعه؟ وأعجب من ذا وأغرب أن نهتم ونهضم مثل هذه الأوهام والأخطاء ونذهل عن أثرها وخطرها، ونحن نعيش في العصر

الذي هدم أو زعزع العديد من المفاهيم التقليدية؟ وإذا عذرنا الأولين فما هو عذرنا، ونحن نتلوا كتاب الله وقوله: **(وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا)** (١٠٤).

الحكمة ضالة المؤمن

هذا مثال من كتاب في الأخلاق مسطور ومنشور، بل ومقروء أيضاً في بعض البيئات.. وما أشرنا اليه بقصد أن نزري بكاتبه، بل ليعلم القارئ أن الذين كتبوا في الأخلاق في زمن بائد قد تأثروا بالمجتمع الذي عاشوا فيه والثقافة السائدة آنذاك.. ولو كنا في عهدهم لكتبنا مثل ما كتبوا، أما الآن وقد تغير كل شيء فعلينا أن نساير عصرنا تماماً كما فعل وساير الأولون.

على أننا نحاول جاهدين أن نعرض في الصفحات الآتية ما يضمن لكل الأفراد حقوقهم التي لا يسوغ أن ينكرها عاقل على وجه الأرض، وفضائل إنسانية بحتة ينبغي أن يتحلى بها كل البشر على السواء في كل زمان ومكان مهما اختلفت طبقاتهم وأديانهم وطباعهم وأذواقهم.

وقد نجد ضالتنا هذه في فصل من كتاب أو مقال في صحيفة، فنلخصه أو نقتطف منه أو نقلم أو نطعم أو نعلق عليه أو نستخرج منه العظة إن تك خفية غامضة، كل ذلك مع الإشارة إلى المصدر وبعد الإيمان والإيقان بأن القارئ يرتاح لما اخترنا له، وينتفع به، ويدعوه إلى التفكير والتأمل. وسلام على من قال: «خذ الحكمة أنّى كانت».

أقسام الأخلاق العملية

كل حق أو واجب عملي، يدخل في الأخلاق العملية، والمعنيان متلازمان، لأن ما من إنسان إلا وعليه مثل الذي له، وأكثر القدامى أو الكثير منهم قسموا الواجب إلى ثلاثة أقسام: (١) واجب الإنسان نحو خالقه (٢) واجبه نحو نفسه (٣) واجبه نحو مجتمعه.

وفي آخر كتاب دستور الأخلاق في القرآن لمؤلفه الدكتور دراز قسم الأخلاق العملية إلى خمسة أقسام، وخصص لكل قسم فصلاً مستقلاً سرد فيه وعدد عناوين بلا معنونات وموضوعات بلا محمولات سوى آية أو آيتين مع الموضوع كدليل على مصدره ومدركه من غير شرح أو تعليق.

وفيما يلي نشير إلى هذه الأقسام بايجاز على ترتيب دراز وتبويبه:

١ ــ الأخلاق الفردية، ومنها الاستقامة والعفة وكظم الغيظ والصدق والتواضع والبخل والإسراف، وما أشبه.

٢ ــ الأخلاق الأسرية كواجب الآباء والأبناء والزوجة وسائر الأقارب والأرحام.

٣ ــ الأخلاق الاجتماعية كحرمة القتل والغش والظلم، ووجوب الوفاء بالأمانة والعهد، واستحباب البر والاحسان والعفو والكرم، وأيضاً ذكر في هذا القسم كلمة (نشر العلم) مقرونة بآيتين الآية ٦٧ من المائدة: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك) والآية ١١ من الضحى: (وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث). وكأنه يفسر السائل بما يشمل المتعلم، والنعمة بما تعم العلم.

ولا نقاش في التفسير الأول، أما التفسير الثاني فلنا فيه نظر لأن سياق الآيات بالكامل يدل على أن المراد بالتحدث هنا شكر الله سبحانه الذي آوى بعد اليتم، وهدى بعد الحيرة، وأغنى بعد العيلة.. وإن قال قائل: الهدى علم. قلنا في جوابه: أجل، ولكن المقصود هنا مجرد الشكر على العلم لا نشره الذي هو محل الكلام.. اللهم إلا أن يقال: إن نشر العلم بذاته من أجلى مظاهر الشكر.

٤ ــ أخلاق الدولة كالعلاقة بين الرئيس والشعب، وامضاء القرار النهائي، واستدل عليه المؤلف بقوله تعالى: **(فاذا عزمت فتوكل على الله)** (١٥٩ ــ آل عمران). ويلاحظ أن هذه الآية نزلت في شئون الحرب، وعلى فرض العموم فأية ملازمة بين تنفيذ العزم وكتابة القرار وامضائه؟ فقد يمضي المرء على عزمه دون ان يكتب ويوقع.

وذكر المؤلف في هذا القسم العدالة والحرية والمساواة، وإقرار النظام صون الأموال والتشاور والدفاع ومساعدة المستضعفين ووحدة الكلمة وعدم الاستسلام والرقابة والوفاء بالعهد الخ.

٥ ــ الأخلاق الدينية، وفي رأسها طاعة الله وشكره على أنعمه، ثم التوكل عليه، والخوف من سطوته والأمل برحمته، والتوبة من الذنب، وعدم الإكثار من الحلف.

ونحن لا نلتزم ــ في الصفحات الآتية ــ بما قاله درّاز أو بغيره من القدامى أو الجدد، ونحاول أن نستمد حديثنا عن الأخلاق العملية من الحقوق الطبيعية التي يصبو اليها كل فرد

ومجتمع، ولا ينكرها عاقل منصف، وأيضاً نستمد حديثنا من الفضائل الإنسانية البديهية كما أشرنا في الفقرة السابقة، والله ولي التوفيق.

وظيفة الإنسان في هذا الكوكب

الإنسان خليفة الله في أرضه

إذا عرفنا الهدف من خلق الإنسان ووجوده، استطعنا أن نحدد وظيفته في هذه الأرض، ومنها نستمد نظاماً أو أساساً يخضع له كل علم وعمل أياً كان نوعه، ولا يعرف هذا الهدف على حقيقته إلا من خلق الإنسان وأوجده، فهل هناك آية أو رواية ثابتة ترشدنا اليه؟.

الجواب:

أجل، إن قوله تعالى لملائكته: **(اني جاعل في الأرض خليفة)** (٣٠ ــ البقرة) وافٍ في الدلالة على أن الإنسان وجد وخلق ليقيم ويبني على هذه الأرض من أشياء الكون باسم الله تعالى وبالوكالة عنه ــ حياة طيبة يتوافر فيها كل ما يحتاج اليه الناس وينتفعون به في حياتهم، ومن خلال هذا العمل تتجلى الأسرار والمنافع التي أودعها سبحانه في أشياء هذا الكون، ويكون للإنسان فضل الاكتشاف عن باهر قدرته تعالى وبدائع صنعه في خلقه، وفوق ذلك يجعل الإنسان لهذه الأسرار والخواص قيمة ووزناً إذ لولاه لبقيت طي الغيب والكتمان.

قال محسن الفيض في كتابه علم اليقين ص ٣٩١ ما ملخصه أن كل واحد من الناس له نصيب من خلافة الله في الأرض سواء أكان كاملاً أم غير كامل، فالأنبياء والأوصياء يرشدون باسم الله إلى فعل الخير وترك الشر، أما غيرهم فان الله استخلفهم في أشياء كثيرة كالخبز والخياطة والغزل والنسيج.. ولو كان الفيض في هذا العصر لعطف على الغزل والنسيج تلك الآلات التي تصعد بالإنسان إلى القمر، وتريه أو تسمعه ما في أطراف الأرض وعالم السماوات وهو جالس في غرفته.

ولا أدري هل الشاعر والفيلسوف إقبال كان على علم بما قاله الفيض حين نظم قصيدة حوار بين الله والإنسان التي جاء فيها: أنه تعالى قال: أنا خلقت الماء والتراب. فقال الإنسان: وأنا صنعت الكوب منهما. وقال، تقدست أسماؤه: أنا صنعت الجبال. فقال الإنسان: وأنا نحتّ منها البيوت، وأخرجت من السم الترياق الخ.

والذي نستفيده من آية الخلافة ومن قوله تعالى: **(الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً)** (١٢ ــ الطلاق) هو أن الحكمة من وجود الإنسان في هذا الكوكب أن يعلم عظمة الله في قدرته وفي علمه، وفي نفس الوقت يكون الإنسان مظهراً لقدرة الله في تعمير الأرض، واستغلال الكون وأشيائه في بناء حياة مثلى، ومن أهمل وتكاسل فقد نكب عن وظيفته، وخان الله في أمانته.

وإن اعترض معترض بأن الله سبحانه قال: **(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)** (٥٦ ــ الذاريات) ولم يقل إلا ليعملوا في هذه الأرض، قلنا في جوابه: إن العمل لحياة أفضل عبادةٌ لأن كل ما فيه لله رضى وللناس صلاح فهو عبادة وزيادة.. هذا، إلى أن الذي قال: وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون. أيضاً قال: **(ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية)** (٧ ــ البينة).. **(والعمل الصالح يرفعه)** (١٠ ــ فاطر) ومعنى هذا أن العبادة ليست وقفاً على الركوع والسجود أو على ألفاظ نرددها على حبات المسابح وكفى. وأخيراً هذا الحديث: «الخلق عيال الله، فأحب الخلق اليه أنفعهم لعباده».

العالم العامل المعلم

وما حث الإسلام على العلم إلا ليعبئ الإنسان كل ما وهبه الله من قوى وطاقات في البحث والتنقيب عن أسرار الكون وخواصه، والتخطيط للعمران وحياة أفضل لكل شعب ومجتمع. ولو جمعت الآيات والروايات الواردة في العلم والعقل والعمل لخير الإنسان ومصلحته لاستغرقت مئات الصفحات، ونذكر منها رواية واحدة حيث جمعت بين العلم والعمل والتعليم لوجه الله والخير.

روى صاحب أصول الكافي عن الإمام جعفر الصادق(ع) أنه قال: «من تعلم العلم وعمل به وعلّم به لله ــ بتشديد لام علم ــ دعي في ملكوت السماوات عظيماً وقيل (أي قال أهل السماوات، هذا) تعلم لله وعمل لله وعلّم لله».

وقال الملا صدرا في شرح هذه الرواية ما معناه أن كلمة (لله) تعود إلى كلٍ من التعلم والعمل والتعليم، والمراد بملكوت السماوات العالم العلوي، والمعنى أن الإنسان الذي هو ابن الأرض والعالم السفلي إذا تعلم لله وعمل بعلمه لله، وعلّم الآخرين لوجه الله تعالى ــ يرتفع إلى الملأ الأعلى، ويكون عظيماً بين أهل هذا العالم الأسمى لا بين العالم الأرضي السفلي

فقط، ثم ختم الملا صدرا شرحه بهذه الكلمة: «ما أجلّ وأعظم فضيلة العلم حيث يجعل الإنسان السفلي الأرضي أعظم من أهل الملكوت العلوي السماوي».

آدم والجنة

وتسأل: ما من شك أن الله سبحانه خلق الإنسان منذ البداية ليعيش في هذه الأرض يعمرها ويمشي في مناكبها، ولا شيء أصدق في الدلالة على ذلك من قوله سبحانه لملائكته: (اني جاعل في الأرض خليفة) قبل أن يخلق آدم، وحين استفسر الملائكة عن الحكمة من وجود مخلوق في الأرض يسفك فيها الدماء ويفسد ــ قال لهم: إني أعلم ما لا تعلمون.. هذا إلى أن تكوين الإنسان على صورته وفي جهازه العضلي والعصبي، وتزويده بكل موهبة وطاقة تعينه على الاكتشاف والاختراع والسيطرة على الطبيعة ــ يدل دلالة قاطعة على أن الإنسان خلق لهذه الأرض لا للجنة، وللجهد والعمل لا للبطالة والفراغ، وما دام الأمر على ذلك فلماذا لم يبق سبحانه آدم في الأرض، وما هو الهدف من عملية إدخاله الجنة ومعصيته فيها واخراجه منها والعودة به إلى الأرض؟

وأجيب عن هذا السؤال بالعديد من الإجابات، منها أن الهدف من قصة آدم وما كان منه في الجنة هو الاعلان عن حقيقة الإنسان وأنه يذنب ويخطئ بغريزته وميوله الفطرية بزعم أن آدم كان في رغد الجنة وهنائها ولا ضغط عليه من محيط أو فقر وحاجة ومع ذلك عصى أمر الله ولم يملك قواه وهواه!.

ويلاحظ بأن القرآن الكريم الذي أنبأنا أن الله الذي قال لآدم: **(ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين)** (٣٥ ــ البقرة) هو ــ تقدست أسماؤه ــ يدحض هذه الإجابة بقوله: **(لا يكلف الله نفساً إلا وسعها)** (٢٨٦ ــ البقرة). ولو كان الإنسان مجرماً بالطبع لما كان للنهي من وجه أو تأويل.

ومنها أن قصة آدم تشير إلى أن المرأة هي أصل البلاء والشقاء لأن ابليس اصطاد آدم بشبكة حواء!.

ويلاحظ أن القرآن الكريم لم يشر إلى ذلك من قريب أو بعيد في قصة آدم والشجرة، وما ذكر حواء بالإسم، وانما أشار إلى صحبتها مع آدم وكفى حيث قال: (اسكن أنت وزوجك.. هذا عدو لك ولزوجك).

وأرجح الاجوبة ــ فيما قرأنا ــ ما ذكره الشاعر الفيلسوف اقبال في كتابه تجديد التفكير الديني في الإسلام، ترجمة عباس محمود ص ٩٦ وما بعدها، وقال من جملة ما قال: ان الجنة التي أخرج الله منها آدم ليست هي الجنة التي وعد الله بها المتقين يوم تجزى كل نفس بما كسبت، لأن الله سبحانه لا يخرج من هذي أحداً كما في الآية ٤٨ من الحجر: (وما هم منها بمخرجين) وانما المراد بها «حالة بدائية يكون الإنسان فيها مقطوع الصلة بالبيئة التي يعيش فيها» وهذه الحالة البدائية تشبه دور الحضانة على حد ما قال عالم ملهم». أما المعصية الأولى فكانت أول فعل يتمثل فيه والتجارب التي تزداد وتتسع بطريقة المحاولة والخطأ».

وبأسلوب أبين وأوضح أن القصد من خلق آدم هو أن يعيش على هذه الأرض التي منها ولد، واليها يعود، وقد زوده سبحانه بكل قوة وطاقة تجعل أشياء هذا الكون طوع أنامله ليقيم على هذا الكوكب حياة مثلى.. وبما أن ولد آدم جميعاً يمرون بعد ولادتهم وقبل أن يبلغوا مبلغ الرجال ــ بالعديد من الأدوار والأطوار، يتعلمون فيها من الآباء والامهات ومن الشارع والمدرسة، وتبلغ هذه الفترة ثلث حياتهم أو ربعها، وبما ان آدم لم يمر بهذه الأطوار كي يتعلم شيئاً فيها، بل خُلق رجلاً ــ احتاج، وهذي هي الحال، إلى شيء من التمرين والتدريب والتجربة والممارسة بعض الوقت حتى يستفيد ولو من نفسه وأخطائه لكي يستعد ويتهيأ لبناء الحياة في هذه الأرض، فأدخله سبحانه تلك الجنة أو (دار التدريب والتمرين) وابتلاه بالشجرة المحرمة وتلبيس ابليس، وتغلب جانب الشر على جانب الخير، أو المرجوح على الأرجح، كما نقول ونعبر نحن الشيعة، وتلقى آدم بذلك درساً قاسياً ونافعاً في آن واحد، وندم وتاب، وأصبح مؤهلاً لخلافة الله في أرضه، فنقله الله اليها لأداء المهمة التي من أجلها خلق، على أكمل وجه.

هذا تلخيص وتوضيح لما قاله الشاعر الشهير اقبال في كتاب تجديد التفكير الديني، فيما يقرب من سبع صفحات، وما هو ببعيد عن المألوف والمعروف.

وبعد، فان على العاقل أن يعلم ويعمل بموجب علمه إن الله سبحانه خلق الإنسان لعمل الخير لا للشر، وللبناء لا للهدم، وللمحبة والتعاون لا للعداوة والتناحر.. وكل آيات القرآن أو جلها ترشد إلى هذه الحقيقة نصاً أو ظاهراً أو إيماءً، من آية الخلافة في الأرض وآية وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين إلى آيات الحلال والحرام، ومن آيات الإيمان بالله والعمل الصالح إلى آيات التقوى والحرية والمساواة، ومن آيات الرسل ورسالاتهم إلى آيات الوعد والوعيد.. إلى قوله عز من قائل: **(كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور**

بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد) (١ ــ إبراهيم).

وهذا النور أو الصراط الحميد يعم ويشمل كل قيم الحياة التي تعكس آمال ومصالح الأفراد والجماعات والأجيال.

اصبر ولا تستعجل

هذا الفصل

أنا عضو في هذه (الهيئة العلمية الدينية) وانتميت إليها سنة ١٩٢٥م (أي منذ أكثر من ٥٠ عاماً) وشاء الله ــ جلت حكمته ــ أن يكون عملي كله بالعلم في ليلي ونهاري، ابتدأت بالنجف، وأنا الآن في قمّ، والميدان فيهما واحد، وما بينهما قوة دائبة، ونشاط مستمر بلا فترة واعياء أو فتور واسترخاء ولله الحمد.

وكتب الكثير عن هذه الهيئة تقريظاً ونقداً من باب النقد الذاتي لا بدافع التحقير أو التشهير، والله سبحانه يعلم أنها في أمس الحاجة إلى النقد والعلاج. والآن أعرض في هذا الفصل مأخذين: الأول منهما طفرة بعض التلاميذ من صف أدنى إلى صف أعلى قبل الانتهاء من الأول وعدم الشعور بالمسئولية عنه. والثاني حب الظهور عند آخرين والإسراع إليه قبل إكمال العدة، والقصد من هذا العرض أو النقد أن نحس ونشعر بالحاجة إلى العلاج والشفاء.

الأناة

حفظت في صغري من جملة ما حفظت (العجلة من الشيطان) وبعد عشرات السنين قرأت في كتب الأخبار وسفينة البحار للقمي هذا الحديث عن رسول الله(ص): «انما أهلك الناس العجلة، ولو أن الناس تثبتوا لم يهلك أحد.. إن الأناة من الله، والعجلة من الشيطان» وقال الإمام الصادق(ع): «مع التثبت تكون السلامة، ومع العجلة تكون الندامة.. أبى الله أن يجري الأشياء إلا بالأسباب».

وكل روايات هذا الباب وأحاديثه إن هي إلا تعبير وحكاية عن سنة الله في كل مخلوق إنساناً كان أو غير إنسان.. أبداً كل شيء يوجد على مراحل انتقالية، وفي فترات زمنية تطول أو تقصر تبعاً لطبيعة المخلوق وخصائصه.. خلق سبحانه الكون على ست دفعات أو أطوار كما في الآية ٥٤ من الأعراف. **(وبدأ خلق الإنسان من طين.. ثم سواه ونفخ فيه من روحه)** (٩ ــ السجدة) وهو سبحانه القادر أن يقول لهذا وذاك: (كن فيكون) بلا أطوار

وأدوار.

وهكذا الشأن في حياة الإنسان، انتقل من الغاب والكهوف إلى المدن وناطحات السحاب، ومن الأدوات الحجرية والخشبية إلى العقل الالكتروني وسفن الفضاء، ومن قنص الحيوان واصطياد الطير والعجز عن تربيتهما واستئناسهما إلى مزارع الدواجن والحيوانات.

الطفرة

هذي سنة الله في خلقه، أما مسرحية الشيطان فيمثلها ويقوم باخراجها من يتعجل الشيء قبل أوانه، ويحاول الطيران، وهو في المهد مشدود بالقماط ومن هذا النوع معممون يتربون في هذا العهد بمقاير ضخمة يوماً بعد يوم، وينتظمون في سلك الحوزة، ويشرع البعض منهم أول ما يشرع بالطفرة من صف أدنى إلى أعلى، والانتقال في حلقات الدرس من حلقة إلى حلقة، ويطوي مئات الصفحات قبل الفراغ منها، ولا ناصح ورقيب، بل يُشجع على انحرافه وضلاله، ويكافأ بالعيش من حق الله وسهم الإمام، وعلى حساب السائل المحروم.

ان سهم الإمام يُصرف حيث يشاء الإمام ويرضى، وما من شك أن أحب شيء لديه إغاثة العاجز المحروم، واحياء الدين والشريعة بالنشر والتبشير والدرس والتدريس.. أما أن يأكل معمم مال الله باسم طلب العلم، ثم يكسل في دروسه يقصر في تفهمها وتحصيلها، أما هذا فهو لص من لصوص بيت مال المسلمين.

وتحدثت بهذا لتلاميذي في دار التبليغ وغيرهم في المجالس والمناسبات، وكان بعضهم ينتحل الأعذار لتقصيره، ويلقي تبعة فشله على الأقدار!. ولكل باطل زخرف يبرره في الظاهر.. أبداً لا سبب إلا الهروب من مؤونة التحصيل وعدم الرغبة في العلم، ولو ذاق حلاوته لاستهان في سبيله بكل صعوبة ومصيبة.

لمجرد العبرة

قرأت في مجلة العربي العدد ١٧٠ أن الرسام الفرنسي العالمي رينوار، تصلبت يداه، فكان يرجو بعض أصدقائه أن يربط الفرشاة بيده، ثم يجريها على القماش ليسجل أروع لوحاته.. وأيضاً قرأت في كتاب كيف يحيا الإنسان أن مفكراً مشهوراً كان يربط بيده جرساً، فاذا نام أثناء القراءة رن الجرس فيستقيظ ويتابع القراءة.

ويُروى أن عالمين من القدامي تناقشا في مسألة، ولم يقتنع أحدهما برأي الآخر، وفي اليوم

التالي سمع أحد الاثنين أن زميله في النزع والاحتضار، فأسرع لعيادته، وما إن رآه المحتضر حتى نسي نفسه وقال: لم تقتنع بما قلت، فاستمع إلى هذا الدليل الجديد. فقال له: أفي مثل هذه الساعة؟ قال: ولم لا نغتنمها قبل الموت. واشتهر عن أديسون أعجوبة الله في خلقه أنه استقبل عروسه ليلة الزفاف بلباسه العمالي، وبعد الترحيب طلب منها أن تسمح له ببضع دقائق، ولما دخل غرفة أعماله نسيها حتى الصباح فقيل له: ما زالت تنتظر، فأفاق واعتذر.

وهكذا العالم يجدّ ويجتهد سعياً وراء المعرفة حتى اللحد، ومع هذا يتهم نفسه بالتقصير، ويتوقع منها الخطأ، ويقرر أحكامه على سبيل التقريب دون الجزم احتفاظاً بخط الرجعة، ويخشى الهبوط برغم تفوقه، ومتى أخذه الغرور ابتعد عن العلم وأهله. قال رسول الله(ص): «لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم، فان ظن أنه قد علم فقد جهل». وقيل لعالم: مالك تدمن القراءة والكتابة ليلك ونهارك؟ فقال: لأعلم أني جاهل. وقال فيلسوف قديم: العلم جهل الجاهل، والجهل علم العالم.

ولا تجد هذا الخلق الكريم إلا عند الراسخين في العلم الذين وصفهم الإمام أمير المؤمنين(ع)، بقوله: «أقروا بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب».

حب الظهور

كلنا يود أن يكون شيئاً مذكوراً، ولكن الألسن لا تذكر بالحمد والثناء إلا اذا رأت الأعين جهداً نافعاً وعملاً صالحاً، وقد يكون هذا الجهد والعمل اختراع آلة أو اكتشاف دواء تنتفع بهما البشرية على مدى الأجيال، أو يكون سداً يتحكم في مياه الأنهار، أو كتاباً يحدث تغيير ما يجب أن يتغير.

وقد يعجز المرء عن أي جهد ينفع الناس، فيُعذر ويقال له: ما على العاجز من سبيل، أما أن يتطفل ويتطاول على ما ليس له بأهل فانه يضر ويفسد من حيث يريد أو لا يريد. ومن أوضح الأمثلة على ذلك بعض الكتب التي تطلع علينا بلا وعي وعلم من حين لآخر، يسرع صاحبها إلى المطبعة بضغط من حب السمعة والظهور، وهو يحسب أن كتابه دعامة للدين ودفاع عن العقيدة والمذهب، ولكنه في واقعه يوجه أعنف الضربات للمذهب والعقيدة، لأنه يحدث ردة فعل في نفوس الجيل والشباب، فيهزأون ويسخرون من رعاة الدين وحماته، وربما ارتابوا وتشككوا في كل ما يمتّ إلى الدين بسبب.

وغريبة الغرائب أن يُطبع مثل هذا الكتاب على نفقة الإمام وسهمه في الأموال!.. وبعض هذه الكتب معروضة للبيع في مكاتب قم والنجف، ولي مع الساخرين منها مواقف.

الجنين وأفكار الكاتب

ومن أطرف ما قرأت في هذا الباب ما جاء في كتاب كيف يحيا الإنسان لمؤلفه (لين يوتانج)، قال هذا الفيلسوف الصيني ما معناه أن أفكار الكاتب تشبه إلى حد بعيد الجنين في بطن أمه، هذا يمر بمراحل: من النطفة إلى العلقة، ومنها إلى المضغة.. حتى الطفولة. وكذا أفكار الكاتب يجب أن تمر بالعديد من المراحل قبل أن يسرع إلى المطبعة وإلا يكون مقاله أو كتابه تماماً كالسقط تطرحه الحامل ميتاً قبل تمامه وكماله.

وإذا كانت أقوال الكاتب في كتابه من ذاته فكتابه ابن حلال، أما إذا سرقها من هنا وهناك فكتابه ابن زنا.

وبعد، فقد عرضنا في هذا الفصل آفتين من آفات بعض المنتمين إلى الحوزة، ولا نقول من آفات الحوزة كيلا نأخذ الصالح بذنب الطالح والأصيل بجريمة الدخيل.. وكل حكم أجريناه هنا على فرد ما فهو يمتد ويجري على كل دخيل ولصيق بأية فئة كانت أو تكون، لأن حكم الرذيلة كالطفرة وحب الظهور ينطبق على جميع أفرادها مهما تفاوتوا في النوع والهوية.

الهوامش:

(١) في كتاب مكارم الاخلاق للطوسي أن النبي(ص) كان يلبس قلنسوة، وأن الإمام الصادق(ع) كان يستظل من الشمس بالبرطلة (أي الطاقية) وفي مجمع البحرين للطريحي: في الحديث ان المعصوم كره لبس البرطلة. وهذا هو الأنسب للسيرة المستمرة منذ القديم على انه لا برطلّة ولا قلنسوة عندنا تماماً كما أنه لا عمامة عندهم.

حول العلم

هل يستوي الأعمى والبصير

تعلُّم العلم ونشره من صميم الأخلاق العملية. وتكلم الباحثون في الأخلاق عن فائدة العلم وحلاوته وأطالوا.. والحديث عن ذلك نافلة وفضول تماماً كالحديث عن منافع الماء والنور والهواء، ومن الذي يجهل أن العلم أبو الحضارة، وأن أول الدين معرفته كما قال الإمام أمير المؤمنين(ع) وأعطف مكارم الأخلاق على الدين حيث لا دين ولا أخلاق بلا علم، وكيف يفعل المرء الخير لوجه الخير وهو جاهل بهوية ما يفعل؟ وان كان ولا بد من الحديث عن العلم فلا شيء وراء هذا الوضوح والإيجاز والإحكام والإعجاز: **(وما يستوي الأعمى والبصير، ولا الظلمات ولا النور، ولا الظل ولا الحرور، وما يستوي الأحياء ولا الأموات)** (٢٢ ــ فاطر).

وفرّق بعض القدامى بين العلم والمعرفة بأن العلم أعم من المعرفة حيث يقال: علم الله ولا يقال: عرف الله. وقال آخر: بينهما عموم من وجه يشتركان ويفترقان.

وبعض الجدد يستخدم كلمة العلم في الدلالة، على ما يدرك بالمناهج العلمية الحديثة كالتجربة والاستنتاج الرياضي فقط، ويستعمل كلمة المعرفة في غير ذلك كالتأمل العقلي البحت، وهذه الفوارق وما اليها مجرد اصطلاح، والمهم أن يكون الاستعمال سائغاً ذوقاً وعرفاً مع وضوح القصد. وفي شتى الأحوال فنحن نطلق كلاً من العلم والمعرفة على معنى واحد، وهو إدراك الشيء مع عدم احتمال الخلاف سواء كان الإدراك بديهياً أم نظرياً، تعلق بموضوع كلي أم جزئي.

تعريف العلم

أكثر القدامى عرفوا العلم بأنه الصورة الحاصلة من الشيء عند العقل، وقال الجدد: إن أية صورة أو فكرة عن شيء من أشياء الطبيعة لا تكون صحيحة إلا أن تتولد من تحليل أوصاله والكشف عن أجزائه في المختبر، على أن هذه الصورة نسبية ومقيدة بزمان ومكان حدوثها وبالحال التي عليها الشيء، لأن أشياء الطبيعة كل يوم هي في شأن، أما الصورة والفكرة الناشئة عن التأمل وأعمال الفكر وحده كالفرضيات والمقدمات التي تدور في الرأس وكفى، فما هي إلاّ جهل في جهل ما دامت في عزلة عن الحس والتجربة، انها تماماً كخيال الشاعر الهائم في وادي الأحلام.

ومهما يكن فنحن مع القائلين: إن تعريف العلم بالحد أو الرسم يشبه أن يكون ممتنعاً لأن التعريف إنما يكون لمجهول بمعلوم، وبديهي أن العلم ليس مجهولاً كي يحتاج إلى تعريف، وأي عاقل يقول: أيها العلماء عرفونا بما نعرف وعلمونا ما نعلم.

وقد يطلق العلم على مجرد التمييز كقوله تعالى: **(وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك)** (٢١ ــ سبأ) وأيضاً يطلق على الظن المتاخم للعلم، ومن ذلك: **(إن علمتم فيهم خيراً)** (٣٣ ــ النور) لأن العلم الحقيقي في هذا المقام وأمثاله كالعدالة الواقعية ــ متعذر فيكتفى بالظن القوي.

أسباب المعرفة في القرآن

في فصل المسئولية أشرنا إلى طرق المعرفة بالإلزام الأخلاقي ــ على سبيل الإجمال ــ ونذكر هنا نصاً من القرآن الكريم يرشدنا بوضوح أن أسباب العلم والمعرفة بالحق والباطل والخير والشر والفضيلة والرذيلة، تنحصر بثلاث لا رابع لها، وهي (١) المشاهدة والتجربة (٢) العقل الكلي المنزه عن كل شائبة (٣) النقل الصحيح.

قال سبحانه في الآية ٨ من الحج و ٢٠ من لقمان: **(ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير)** والمفهوم من هذه الآية أن الحقائق لا تثبت وتقرر عند الجدال وغير الجدال إلا بطرق ثلاثة:

١ ــ المشاهدة والتجربة، وأشار اليها سبحانه بكلمة (علم) وفي مكان آخر أشار اليها بالسمع والبصر **(أفلا تسمعون؟.. أفلا تبصرون)** (٢٦ و ٢٧ ــ السجدة).. **(أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون)**.. **(أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون)** (٤٢ و ٤٣ ــ يونس).. **(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)** (٥٣ ــ فصلت)والمراد بالآفاق أقطار السماوات والأرض، وبالأنفس خلق الإنسان في أحسن تقويم. والمعنى أن مشاهدة الكون تؤدي حتماً إلى معرفة الله، وكذلك مشاهدة خلق الإنسان، ولكن البعض يرى أن ذكر الأنفس يومئ إلى دليل الحدس والكشف الصوفي برياضة الباطن.

٢ ــ العقل، واليه أشار بكلمة (هدى) وليس مرادنا بالعقل عقل الفرد المغلوب بالأهواء أو عقل الجماعة المحجوب بالتقاليد، بل المراد العقل الذي يعقل عن الله سبحانه وخاطبه، جلت كلمته بقوله: (ولا أكملتك إلا فيمن أحب). وكل آيات القرآن الكريم تخاطب من كان له قلب وإذن وعقل.

٣ ــ النقل الذي لا ينبغي الريب فيه، وإليه أشار سبحانه بكلمة (كتاب منير) وان دلت هذه الكلمة بحروفها على الوحي فانها تعم بروحها وتشمل كل خبر صحيح وان لم يك وحياً لأن السبب الموجب للعمل بالوحي هو الحق والصدق، وعليه يجري حكم الوحي على كل خبر صحيح يُعبر عن الواقع كما هو، وما من عاقل يناقش في هذا ويجادل حتى من قال بلسانه: (لا أؤمن إلا بما أرى).. اللهم إلا أن ينكر وجود أرسطو وأفلاطون وشكسبير وبيتهوفن واديسون وأينشتين!. وعندئذ يقال له: لا كلام بعد هذا الكلام.

نشر العلم

تحت هذا العنوان ذكر دراز خمس آيات قرآنية في قسم الأخلاق العملية دون أن يفسر شيئاً منها أو يشير إلى أي شيء، ومنها هذه الآية: **(ان الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون)** (١٥٩ ــ البقرة). وتومئ هذه الآية إلى معانٍ منها..

١ ــ الانذار والتحذير لمن يعرف الحقائق ويسمعها ولكنه يسكت كأن لم

يسمعها وكأن في أذنيه وقراً، أو يعلن بكل صلافة ووقاحة التكذيب بها، أو يفسرها تفسيراً يُرضي ميوله وتعصبه لقوى الشر التي أوقف نفسه لتغطية عورتها وتبرير سوءاتها.. ولا جزاء لهذا وأمثاله عند الله سوى عذاب الجحيم، وما له من ملائكة السماء وأهل الأرض الا اللعنة إلى يوم الدين(١)

٢ ــ ان الحق الذي يجب اتباعه واعلانه هو ما ثبت بآية صريحة أو رواية صحيحة أو شهد له شاهد صدق من بديهة العقل أو رؤية الحس.

وبعد، فان الله سبحانه قد بين لنا في كتابه الكريم بأوضح بيان أنه لا سبيل لثبوت الحق إلا الحس والعقل والنقل الصحيح كالوحي أو ما هو بمنزلته من حيث الالزام والالتزام.. وعلى من ينشد الحق والخير، ويدعو إليهما أن لا يتخطى هذه الطرق الثلاثة، ولا يعتمد على خياله وأوهامه أو يستعين بأي كتاب أو مقال إلا أن يكون له حجة من حجج الله وبيناته التي نص عليها بوضوح في قوله: (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) فهذه الآية هي مقياس الحق والصواب.. فلنحفظها كما نحفظ فاتحة الكتاب وسورة الاخلاص حين نصدر الأحكام أو نلفظ أي كلام.

لا خير في علم لا ينفع

قد ترى رجلاً صبوراً ودؤوباً على القراءة والمطالعة فتغبطه، وتقول: يا ليت لي مثل هذه الرغبة وهذا الجلد.. ولا ريب أن سعة الاطلاع خير ومن صفات الكمال، وإن منحت المطلع الذوق الحسن والقدرة على التمييز بين الغث والسليم أو محت من ذهنه وعقله ما كان قد علق به من جهالة وخرافة أيام الطفولة والصبا.

أما من يقرأ ما يضلله ويعميه عن الحقيقة، ويزيده جهلاً على جهل أو يقرأ ما لا ينتفع بمعرفته، ولا يتضرر بجهله، أما هذا فهو في أشد الحاجة إلى النصيحة والهداية.

وننطلق من هذا التمهيد إلى الاشارة إلى أن العديد من طلاب الحوزة يهتمون ويبحثون في أسفار ضخام عن معرفة أشياء لا تمتّ إلى دروسهم ولا إلى الحياة بسبب، ولا يسأل الله عنها غداً مثل ما هو اللوح المحفوظ في حقيقته؟ وفي أي مكان يوجد؟ وهل الملائكة أفضل أو الإنسان؟ وهل تزوج ابن آدم أختاً له أو حورية الخ.. وإذا سألت الباحث المنقب عن ذلك وأمثاله مسألة تتعلق بدرسه ارتبك وتلعثم.

ان الواجب الأهم على الطالب أن يهضم الكتاب المقرر ويفهم الدرس الذي يقرأ، فاذا انتهى من التحصيل في مدرسته بقي على صلة بالعلم الذي تخصص به مراجعة ومطالعة، وأنفق بعض الوقت في قراءة الصحف لمعرفة الأحداث والوقائع، وفي مطالعة الكتب التي تدعوه وتدفع به إلى التفكير فيما يهمه وينفعه، وتجعل منه انساناً متعلماً ومثقفاً.

وعقدت العزم أن لا أهتم بأي سؤال إلا أن يكون واحداً من اثنين: اما أن يكون المسئول عنه الآن يسأل الله عنه غداً ويحاسب عليه، وأما أن يمتّ إلى الحياة بسبب.. وأن لا أقرأ إلا ما أجد فيه متعة أو حسنة في هذه الدنيا أو الآخرة.

وقرأت في كتاب التربية التجريبية للدكتور عبد الله عبد الدائم أن (كورتيس) وضع كتاباً مدرسياً وفق الطريقة التجريبية بعد أن طاف في المدراس التي يريد أن يضع لها الكتاب المدرسي المنشود، وطلب إلى تلاميذها أن يطرحوا عليه الأسئلة التي يهمهم الجواب عنها. وأجاب بايجاز ووضوح على الأسئلة التي صاغوها، واستبعد من بينها الأسئلة المحلية الخاصة، والأسئلة غير العلمية التي لا يمكن الجواب عليها علمياً.

حول العدل

المراد بالعدل

للعدل، بفتح العين ــ معانٍ، منها ضد الظلم، وفي الأمثال (من ساواك بنفسه ما ظلمك) ومنها المثل والمساواة، قال سبحانه: **(أو عَدل ذلك صياماً)** (٩٥ ــ المائدة). والمراد بالعدل هنا المساواة التي لا استغلال معها ولا محاباة، وأوضح مثال قول الإمام أمير المؤمنين(ع): «لو كان المال لي لسويّت بينهم فكيف وانما المال مال الله!».

وقال الغزالي في المقصد الأسنى ما ملخصه أن العادل هو الذي يصدر فعل العدل المضاد للجور، وعدله تعالى أنه أعطى كل شيء خلقه، ووضعه في موضعه، وسخره لغايته، أما عدل العبد فهو أن يستعمل كل عضو من أعضائه في وظيفته التي أذن الشرع بها، وأن يجعل هواه أسيراً للدين والعقل، فان اتخذ منهما خادماً لهواه فقد ظلم وجار، ومعنى هذا أن الإنسان العادل هو الذي يتحرى الحق بجميع وسائله، ويبتعد عن الهوى والغرض.

العدل قانون أخلاقي وطبيعي

القانون التشريعي على نوعين: سماوي إلهي معصوم عن الخطأ، ينزل به الوحي من الله سبحانه على قلب من يشاء من عباده، وقانون أرضي وضعي يعبر عن إرادة الإنسان الذي يصيب ويخطئ. وأيضاً القانون الطبيعي على نوعين: منه ما هو كامن في الطبيعة وأشيائها كالجاذبية وغيرها من القوانين التي لا يتم نظام الكون بدونها، ومنه ما تحتمه وتفرضه الفطرة وبديهة العقل كالعدل، فإنه مبدأ أخلاقي، ومع هذا لنا أن نسميه طبيعياً لأنه واجب بالذات لا بجعل جاعل وتشريع مشرع، بل هو الأساس والمقياس للأديان والأخلاق والقوانين، به يستدل على صحتها، ولا يستدل بها عليه، فأي مبدأ أو شرع لا يترجم ويعتبر عن العدل فهو جهالة وضلالة، ومصيره إلى الزوال والانحلال.

ويستحيل في حق الله تعالى وحكمته أن يشرع حكماً خارج نظام العدل والطبيعة، لأنه، تقدست أسماؤه، خالق الطبيعة، وهو واضع الشريعة، ولا تهافت وتفاوت في خلقه تعالى عن ذلك علواً كبيراً، بالإضافة إلى أنه تعالى هو العدل بالذات، وما بالذات لا يتغير إلا أن يكون المربع بما هو مدوراً والمثلث بما هو مربعاً!.

وذهب أرسطو إلى أن العدل يحتوي كل الفضائل دون استثناء، وأن كلمته ترادف كلمة الأخلاق بشتى أنواعها لأن العدل أساس الخير كله العام منه والخاص. كما أن الظلم أساس الشر.

الإسلام عدل ورحمة

يقوم الإسلام بأصوله وفروعه على العدل، فأصوله الأساسية ثلاثة: الإيمان بالله الأحد وبرسوله وباليوم الآخر، ومن آيات الأصل الأول قوله تعالى: **(وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته)** (١١٥ ــ الأنعام).. **(شهد الله أنه لا إله إلا هو وملائكته وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم)** (١٨ ــ آل عمران).

وكلمة التوحيد بلفظها ومعناها تدل على أن جميع الموحدين يجب أن يخضعوا لحكم واحد بلا تمايز وتفاضل تماماً كالأخوة في ظل أب محب منصف. وفي الحديث: الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، وفي حديث آخر: ان الله كتب على نفسه العدل فلا تظالموا. وفوق ذلك: (كتب ربكم على نفسه الرحمة) (٥٤ ــ الأنعام). وكل من العدل والرحمة قانون أخلاقي، فالرحمة أن تزيد في جزاء الخير على سبيل الاحسان، وتعفو عن السيئة على سبيل الغفران، شريطة أن لا يكون العفو تشجيعاً للجريمة وتحبيذاً للرذيلة، أما العدل، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره بلا زيادة أو نقصان.

ونقل الفيلسوف الشاعر اقبال في كتاب تجديد الفكر الديني ص ١٦٩ طبعة ١٩٥٥م عن بعض عظماء الغرب ما نصه بالحرف: «تجد الثقافة الجديدة في مبدأ التوحيد أساساً لوحدة العالم كله»، ثم قال المؤلف في ص ١٧٨: «روح التوحيد هي المساواة والاتحاد (أي التضامن والتعاون) والحرية، والدولة في نظر الإسلام هي محاولة تبذل لتحقيق هذه المبادئ الثلاثة» أي المساواة والتعاون والحرية.

ومن آيات الأصل الثاني التي حدد بها سبحانه رسالة أنبيائه ورسله بالقسط والعدل على أن يكون هذا المبدأ عاملاً أساسياً في حياة البشرية كلها ــ قوله تعالى: **(لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا**

معهم الكتب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) (٢٥ ــ الحديد). قرن سبحانه الحديد والبأس الشديد، بالقسط حيث لا عدالة بلا قوة، كما أن القوة بلا عدالة ظلم وجور.

ومن آيات الأصل الثالث: **(ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وان كان مثقال حبة من خردل)** (٤٧ ــ الأنبياء). وأحوج ما يكون الإنسان للعدل حين يكون

فرداً لا ناصر ولا معين ولا حول ولا قوة له إلا الحق والعدل.. وأقسى المواقف على الإنسان وأشدها موقف العرض والحساب بين يدي جبار قهار إلا من كان على بصيرة من أمره وثقة من سعيه: (وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية ــ ٩ الغاشية.. ووجوه باسرة (أي كالحة) تظن أنها فاقرة **(أي داهية)** (٢٥ ــ القيامة).

العدل في المعاملات

أما المعاملات والتصرفات فقد وضع لها رسول الله(ص) هذا المنهج الواضح الجامع: «عامل الناس بما تحب أن يعاملوك». وبيّن سبحانه هذه المساواة في المعاملة بقوله: **(ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى)** (٨ ــ المائدة).. **(كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين)** (١٣٥ ــ النساء). هذا هو دستور الأخلاق الإلهية والشريعة المحمدية في القول والفعل: عدل ومساواة بين النفس والقريب والبعيد حيث يستوي الجميع في ميزان الحق والعدل الذي لا يبخس عدواً، ولا يحابي صديقاً.

وقد يكون من الصعب العسير أن يلتزم الإنسان بالعدل في كل تصرفاته ومعاملاته، ولكن هذه الصعوبة هي المحك الذي يميز بين الطيب والخبيث، والصادق والمنافق في دينه وأخلاقه: (ليبلوكم أيكم أحسن عملاً) (٢ ــ الملك).

مثل حظ الأنثيين

وقال قائل: صحيح أن الإسلام ألغى الفروق بين الأجناس والأنساب وأمام المحاكم والقضاء، وأوجب المساواة في العديد من الأشياء، وقال: إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ولكنه فضل الذكر على الأنثى في الميراث، وقال بصريح العبارة: **(للذكر مثل حظ الأنثيين)** (١١ ــ النساء) فما هو السبب الموجب؟.

الجواب:

السبب الموجب طارئ لا أصيل وعارض لا ذاتي تماماً كوجود المقتضي المقرون بالمانع من التأثير، ونشير إلى هذا الطارئ العارض بعد التمهيد بأن القرآن الكريم نص على المساواة بين الذكر والأنثى في العديد من آياته وبأساليب شتى منها ــ على سبيل المثال ــ **(اني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى)** (١٩٥ آل عمران).. **(ومن عمل صالحاً**

من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة) (٤٠ ــ غافر) وأثنى على المؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات.. إلى آخر جماعة الذكور والإناث في الآية (٣٥ من الأحزاب).

وخاطب سبحانه الذكور والإناث بخطاب الواحد في الواجبات والمحرمات.. وأعطى الإسلام كلاً من الأم والبنت والأخت التركة بكاملها في بعض الحالات ومع وجود الذكر من قرابة الميت، ولكن الأنثى أقرب منه إليه، مع أن بعض المذاهب تسوي في الميراث بين القريب والبعيد من الأرحام.

والآن وبعد هذه الإشارة نذكر الطارئ والعارض الذي أوجب التفضيل ومنع من التسوية، وهو أن المرأة ألصق بالبيت من الرجل خاصة أيام الحمل والحضانة، وأليق منه وأقدر على إدارة المنزل وتدبيره.. وللبيت وحماية العائلة ورعايتها عند الإسلام، أهمية عظمى تماماً كالسوق والحقل والمصنع أو أكثر، ومن أجل هذا وضع للأسرة قوانين وأحكاماً تكلم عنها الفقهاء باسهاب.. ومنها أن الزوجة لا يحق لها أن تخرج من بيت الأسرة ــ وهي ربة المنزل ــ إلا لحاجة ماسة أو باذن الزوج منطوقاً أو مفهوماً حرصاً على البيت ومن فيه وما فيه.

ومن جهة ثانية أوجب على الزوج القيام بكل التكاليف والنفقات لها وللأولاد بالإضافة إلى الصداق مع أنها شريكته فراشاً وحياة وأولاداً.. فضاعف الإسلام نصيبه من الميرات مقابل ما حمله من ثقل البذل ومسئولية الإنفاق.. على أن الرجل وما ملكت يداه من إرث وغيره في قبضة المرأة تستهلكه هي وأولادها.. فان بقيت منه باقية تركها ميراثاً لهم.

هذا هو الطارئ أو هذي هي الحكمة في تمييز الذكر على الأنثى إرثاً وغيره، فأين الظلم والغبن على المرأة؟ والحق أن الرجل المسكين هو المظلوم والمغبون وليس المرأة حتى ولو أخذ الميراث بكامله، لأنه رق مستعبد ومؤبد لزوجته وعائلته.

توزيع الثروة

وقال آخر: ساوى الإسلام بين الناس من جهة، ومن جهة ثانية أقرّ تقسّمهم إلى طبقات بعضها فوق بعض على أساس المال والاقتصاد (أي الغنى والفقر) ولو وزع الثروة، وسكت عن المساواة في كل الجهات ــ لكان خيراً وأفضل.

الجواب:

ان الحرية أصل من أصول الإسلام تماماً كالعدالة حيث لا إنسانية بلا حرية، ومن أخص خصائص الحرية للفرد وثمارها أن ينعم بحق التملك في نطاق عدم الإضرار بالآخرين، وأقر هذا الحق الاعلان العالمي في المادة ١٧ لكي يبذل الإنسان أقصى ما يملك من نشاط وطاقات في ميدان الإبداع والتعمير والانتاج والاختراع، فينفع وينتفع.

وأسباب التملك التي أقرها الإسلام ترجع إلى ثلاثة، وكلها نتيجة حتمية لمبدأ الاختيار والحرية، وهي كالآتي:

١ ــ العمل، ومنه احراز المباحثات واحياء الموات بقصد التملك حيث لا مانع شرعي من ذلك.. وما من شك أن للإنسان كل الحق في اختيار عمله لأنه الركن الركين في شخصيته بل في كيانه، وأيضاً له وحده ثمار جهده وكدحه بحكم الطبيعة والبديهة.

٢ ــ العقود والتعامل مع الآخرين بالبيع والإجارة والهبة ونحوها، أيضاً على أساس الحرية والاختيار، ولذا يحكم الإسلام ببطلان المعاملة متى شابها ضغط وإكراه أو غش وخديعة.

٣ ــ الإرث، وهو حق طبيعي اتفقت عليه جميع الأمم والشرائع السماوية والأرضية في كل عصر وقطر.. هذا إلى أن المال الموروث هو من جهد الميت وثمراته، ومن أولى بسعيه؟ الدولة أو الأباعد أو أرملته وشريكة حياته وأيتامه واولاده الذين وجودهم امتداد لوجوده!.

وفي سفينة البحار مادة (و. ص. ي): أن الإمام أمير المؤمنين(ع) قال: «ما أبالي أضررت بورثتي أو سرقتهم». ومات رجل من الأنصار، وله صبية صغار، وكان قد تصدق بكل ما يملك حين ظهرت له دلائل الموت، ولما علم رسول الله(ص) بذلك قال لقوم الميت: ماذا صنعتم بصاحبكم؟ قالوا: دفناه. قال: «لو كنت علمت ما تركتكم تدفنوه مع أهل الإسلام، ترك صغاراً يتكففون الناس».

وأخيراً نسأل من ينكر مبدأ الإرث: هل يرضى أن ينعم الأباعد في أمواله من بعده دون عياله وأطفاله؟ فان قال: أجل. قلنا في جوابه: هذا خروج على الفطرة والطبيعة البشرية، وصدق الله العلي العظيم: **(ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة)** (٧٤ ــ البقرة).

هذي هي أسباب التملك، والناس فيها كلهم شرع وسواء بلا تمايز وتفاضل، من شاء منهم

أن يتقدم أو يتأخر، أما أن يعمل الكادح المجاهد، ويأكل ثمرة عمله وكدحه الكسول المخنث ــ فلن يرضى بذلك إلا اتكالي مخناث.. أبداً لا شيء للإنسان إلا ما سعى.

خرافة وطرافة

ولمجرد الترفيه والتسلية نختم هذا الفصل بأمثلة على التفرقة والإجحاف في تقسيم الناس والتركة.. تحتم بعض الأنظمة الغربية في هذا العصر ــ خاصة في انكلترا ــ أن يختص الولد الأكبر بالتركة كلها دون أمه وأخوته، والشريعة اليهودية تعطي البكر مثل حظ الذكرين من إخوته!.

واشتهر عن المجتمع الهندوسي أنه خمس طبقات بعضها فوق بعض (١) رجال الدين لأن الله ــ بزعمهم ــ خلقهم من رأسه (٢) رجال الحرب والإدارة لأن الله خلقهم من ذراعه (٣) الفلاحون وأصحاب الحرف لأن الله خلقهم من وسطه (٤) العمال لأنه خلقهم من قدمه (٥) المنبوذون، وهم الأنجاس والأرجاس!.

ومن هذه البيئة خرج غاندي.. ولا تفسير لذلك ــ فيما نظن ــ إلا طهارة نفسه من أدران الحقد والظلم والفساد في الأرض.

الإنسان روحي ومادي

بين الشخصية المعنوية والمادية

لكل فرد من أفراد الإنسان شخصيتان: مادية، وهي جسمه الذي يُرى ويقاس ويوزن، وتناله يد التشريح والتحليل. وشخصيته المعنوية اللامادية، وهي نفسه وطبيعته التي تُعرف بالأثر لا بالعين، وبالفعل لا بالقياس والوزن، وأيضاً هي ماء الجسم وحياته، بها يحس الإنسان ويعقل، ويرى ويسمع، ويحزن ويفرح، ويحب ويكره، ويقسو ويرحم الخ، واليها يشير بكلمة (أنا وأنت) واليها وحدها يوجه الكلام والخطاب.

وفي كتاب صوان الحكمة أن أبا نفيس كان يخطب الناس ويقول فيما يقول: «ما خبر البدن الحامل للروح؟ وما حديث الروح المحرك للبدن؟ وما حد كل منهما؟ وما هذه الوحدة والامتزاج بينهما؟ وكيف تباعدا بعد هذا الاختلاط؟».

خصائص الشخصيتين

وتنفرد كل من الشخصية المعنوية والمادية في الإنسان الفرد ــ بخصائص لا يوجد لها من نظير في غيرها على الإطلاق لا في الكائنات الأخرى ولا في الأشخاص الآخرين من أبناء جنسه.. وقد يكون للفرد أشباه ونظائر في طوله ولونه، وفي عرضه ووزنه، ولا يكون ولن يكون له شبه ونظير في ملامح وجهه وبصمة بنانه وصفة صوته ونطقه، وأيضاً قد يوجد للإنسان الفرد أشباه ونظائر إلى حد ما وبقدر معين في ذكائه أو بلادته وفي جوده أو بخله، وما إلى ذلك من صفات النفس والشخصية اللامادية، أما التشابه الكامل في جميع خصائصها فمحال لأنه يتميز ببعض الخصائص عن جميع الأفراد حتى عن أمه وأبيه تماماً كما تميز عنهما وعن كل الناس ببصمة الابهام وملامح الوجه. ويضاف إلى ذلك الجهل بالكثير من صفات النفس، إنها تتوارى حتى عمن هي كامنة في أعماقه، ولا تظهر له ولا لغيره إلا أن يمر بأحداث دامية وتجارب قاسية وقد تبقى طي الغيب والكتمان حتى الممات.

وأهم الفروق بين الشخصيتين أن الشخصية اللامادية هي وحدها ذات الأهلية والقابلية للدين والأخلاق لأنها تدرك ــ دون الشخصية المادية ــ أسرار الكون، وتشعر بقيمة الفعل والسلوك خيراً كان أو شراً.. ومن ينكر الشخصية اللامادية أيضاً ينكر الأديان والأخلاق بحكم البديهة القاضية بأن الفرع يسقط حتماً بسقوط الأصل، وسنتحدث عن الماديين الذين قالوا: المادة هي الموجود الوحيد في الكون كله.

ومهما اختلفت الفروق بين الشخصيتين كماً وكيفاً فان كلا منهما مكلمة للثانية، ولا غنى لاحداهما عن الأخرى.

بين الإنسان والحيوان

وأيضاً للحيوان شخصيتان: نفسية بها ينمو ويحس، وأيضاً يقبل التغيرُ والتعلم واستخدام الآلة في مضمار محدود. وشخصية مادية تشترك مع المادية الإنسانية في العديد من الصفات، منها القياس والوزن والتحليل والتشريح، ومنها المعدة والحركة وما أشبه، وتختلف هاتان الشخصيتان الماديتان في قدرة الإنسان على المشي منتصباً وتحرر اليدين واستخدامهما في أشق الأعمال وأدقها. أما الحد الفاصل بين الإنسان والحيوان في النفس والشخصية اللامادية ــ فمن وجوه منها:

١ ــ ان الإنسان مهما بلغ من العلو والرقي في مستوى العلم أو العيش فانه يتطلع ــ دون الحيوان ــ إلى ما هو أعلى وأرقى.

٢ ــ ان الإنسان يستطيع العلم بالماضي السحيق، والتنبؤ عن المستقبل البعيد، والحيوان لا يعرف إلا الحاضر الملموس.

٣ ــ ان الإنسان ــ دون الحيوان ــ ليخترع آلات تنوب عنه في الاعمال العضلية كالمصانع والذهنية كالآلة الحاسبة. بالإضافة إلى بناء الأسرة والحضارة وقواعد السلوك.

٤ ــ قال أبو بكر الرازي في كتاب الطب الروحاني: «الحيوان يُروّث أو يتناول ما يتغذى به مع حضوره وحاجته إليه، أما الإنسان فيترك ذلك، ويقهر طبعه عليه لمعانٍ عقلية تدعوه إلى ذلك».

شسع نعلك خير منك

كل ما في الإنسان من خصائص وطاقات فضائل وصفات فهي لله عليه حجة قائمة تماماً كعمره وماله وصحته وجاهه إلا أن يستعملها استعمالاً حكيماً ونافعاً، لله فيه رضا ولعباده صلاح، وعندئذ تكون هذه الموافقة له لا عليه وإلا يكون الحيوان خيراً وأفضل، قال سبحانه: **(أرأيت من اتخذ إلهه هواه... ان هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً)** (٤٤ ــ الفرقان) والمراد هنا بالهوى ما يأمر بالسوء والشر وإلا فان الإنسان يهوى زينة الله التي أخرجها لعباده والطيبات من رزقه، قال سبحانه: **(ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله)** (٥٠ ــ القصص) ومعنى هذا أن موافقة الهوى ليست بمحرمة بنهي منه تعالى، وما من شك أن من يعصي الله، الحيوان أفضل منه وأشرف، بل شسع نعله خير منه وأجدى، قال الإمام أمير المؤمنين(ع) لبعض من خان من عماله: «جمل أهلك وشسع نعلك خير منك».

وإذا كانت النعل أو شسعها خيراً ممن خان في دريهمات فكيف بمن يعيش حياته على الغش والخديعة، ويستهين بحقوق الله وعياله؟.

وفي العدد الأول من السنة التاسعة من رسالة الإسلام لدار التقريب، مقال بعنوان (حياة بغير مُثُل حياة الحيوان) جاء فيه ما معناه أن من شأن الحيوان أن يسعى لمنفعته الخاصة، ولا تكليف عليه ومسئولية تجاه أي حيوان آخر حتى ولو كان هذا الآخر أباً له أو أبناً، أما الإنسان فعليه أن يؤدي رسالة الله لكل إنسان، وهي سموه عن الحيوان بالسعي والعمل لمنفعته وخير أخيه الإنسان.. ونعطف على قول هذا الكتاب، وهو الدكتور محمد البهي، ما قاله عالم غربي: «صحيح أن الإنسان أناني بطبعه، ولكن هذا القول ليس صحيحاً كل

الصحة لأن الإنسان مضطر أيضاً لأن يكون غيرياً.

ثم قال البهي ما نصه بالحرف: «والفلسفة المادية لا تعرف حدوداً لحيوانية الإنسان، ولا تطلب منه في التفكير منهجاً خاصاً، ولا في السلوك طريقاً واحداً، بل تُخضع تفكيره وسلوكه حيوانيته.. أما الأخلاق فليست قوانين عامة فوق نظرات الأفراد.. ودعوة المادية سهلة ورخيصة لأنها دعوة إلى الحيوانية».

ومن هنا أقبل عليها أكثر الناس.. وغير بعيد أن تكون الفلسفة المادية في هذا العصر هي المقصودة بكلمة الدجال الذي يخرج في آخر الزمان، ويأتيه الناس من كل بلد وطريق كما في العديد من الأسفار والأخبار.

وبهذه المناسبة نستطرد فيها يلي بالإشارة إلى أنصار الفلسفة المادية وأهدافهم.

الماديون

أنكر الماديون الشخصية اللامادية للإنسان، وقالوا: إنها كلام فارغ بناءً على أصلهم من أن المادة التي تُرى هي الموجود الوحيد، أما ما ينسب للنفس والعقل من أفعال وآثار فهي آثار للجسم لا للعقل وأفعال للمادة لا للنفس تماماً كالجمع والطرح والضرب ينسب إلى العقل الالكتروني وتسجيل درجة الحرارة إلى ميزانها الطبي (الترمومتر)!

وما أبعد ما بين هؤلاء وبين ديكارت الذي قيل عنه من جملة ما قيل: انه أبو الفلسفة الحديثة. ووجه البعد أن ديكارت استدل على وجود الجسم الذي يراه بوجود الفكر الذي لا يراه دون العكس، وذلك حيث قال: أنا أفكر فاذن أنا موجود. ولم يقل: أنا موجود فإذن أنا أفكر لأن الحقائق الرياضية لا يعترضها الشك على العكس من الحقائق الطبيعية. ومثله تماماً قول الإمام أمير المؤمنين(ع) في الحكمة ٢٨١ من نهج البلاغة: «قد تكذب العيون أهلها، ولا يغش العقل من استنصحه».

ووقفنا طويلاً مع الماديين في كتاب فلسفة المبدأ والمعاد وكتاب شبهات الملحدين والإجابة عنها، ونكتفي هنا بسؤالين من أستاذ شهير وجوابنا عنهما:

السؤال الأول: هل ترشدني إلى دليل واضح قصير وبسيط على وجود الله يتناسب مع ادراك الصبيان كي أعلمه لتلاميذي؟. وكان الوقت ليلاً، قلت له: أرشدك إلى دليلين لا إلى دليل واحد، وخذ الدليل الأول من الله سبحانه بنصه وحروفه، وليس فيه حرف واحد لغيره،

وكأنه، جلت حكمته، قد خاطب به الصبيان ومن هو في مستوى عقولهم.. احفظ الآية الآتية وحفّظها صبيانك، واسأل كل واحد منهم: ماذا فهم منها، ودعه يتكلم بما يفهم، ثم عقب على كلامه بما تراه مناسباً.

وهذه الآية الكريمة الجلية: (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه؟) فهل تريد دليلاً أقوى وأبلغ وأبسط وأوضح من هذا الدليل؟

قال: عظيم، فأين الدليل الثاني؟ قلت له: أتنكر هذه اللمبة التي نستضيء بنورها؟. قال: وكيف أنكر نوراً أستضيء به؟. قلت: لو أنكرتها لكنت تماماً كمن ينكر وجود اديسون الذي أعطانا هذه اللمنة.. أبداً لا فرق بين انكاره وانكارها. أليس كذلك؟. قال: بلى، بكل تأكيد. قلت: هل هذه اللمبة ونورها أعظم من الشمس ونورها؟ ولا أقول لك الكون بمن فيه وما فيه. قال: الشمس ونورها أعظم، ما في ذلك ريب، قلت: كذلك انكار خالق الشمس ووجوده هو انكار لوجود الشمس ونورها تماماً كانكار الكهرباء المستلزم لانكار اديسون.

قال في سؤاله الثاني: ولكن يقولون: إن الكون بشمسه وكل ما فيه ومن فيه قد وجّد صدفة وتلقائياً. قلت: ولماذا لم توجد اللمبة صدفة؟ حتى عود الثقاب وجد بسبب. قال: زدني. قلت: لو صدقت الصدفة كقانون لما كان في الدنيا علوم وقوانين ولا مصانع ومختبرات ولا مدارس وجامعات.

قال: ولماذا؟ قلت: العلم هو انتقال من جزئي مشاهد ومحسوس إلى قاعدة كلية تنطبق على جميع أفرادها طرداً وعكساً لأن من أخص خصائص العلم الشمول والعموم وإلغاء كل ما هو خاص. مثلاً ــ لاحظ نيوتن سقوط التفاحة من الشجرة، فسنّ قانون الجاذبية وقال: كل جسم فيه قوة جاذبة كما فيه قوة سالبة دافعة: ولو صحت الصدفة وصدقت، ما ساغ لنيوتن وغيره أن يؤمن ويوقن بالجاذبية ولا بأية قاعدة علمية إطلاقاً.

التوازن بين مطالب الروح والجسم

خلق سبحانه الإنسان من جسم وروح، وهو يعلم ما يتطلب هذا وذاك، وما يصلحه ويفسده، ووضع شريعةً للإنسان ترسم له المنهج الملائم لطبيعة الجسم والروح وواقع الحياة بلا تصادم وتعارض.

والسعيد الكامل من ينسق ويوفق بين متطلبات جسمه وروحه، ويكون مادياً وروحاً في آن

واحد على أساس الشريعة الإلهية: **(وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا)** (٧٧ ــ القصص) أي لا تجعل نفسك عبداً لشهواتك، ولا تظلم جسدك في حاجته، وقال الرسول الأعظم(ص): «ليس خيركم من عمل لدنياه دون آخرته، ولا من عمل لآخرته وترك دنياه، وانما خيركم من عمل لهذه وهذه».

وقال الدكتور زكي نجيب محمود من مقال نشره في مجلة العربي العدد ١٥٨ بعنوان الواقع وما وراء الواقع:

«ان أغلب الظن عندي هو أن أوضح سمة تُميز العربي في ثقافته هي أنه يوازن في دقة وبراعة بين وجهي الحياة: فللواقع المحسوس مجال، ولما وراءه مجال آخر، بل يتكامل المجالان في حياة سوية متزنة، وربما كان المقصود من الحديث الشريف بأن يعمل الإنسان لدنياه كأنه يعيش أبداً، ولآخرته كأنه يموت غداً، هو وجوب مراعاته لهذا التوازن بين النظر إلى ما يُرى وإلى ما هو أرفع وأسمى، فالأول مهما كانت قيمته فهو جزء عابر يأتي ويمضي، أما ما لا يرى فهو مطلق أزلي لا يتعاوره الحدوث والفناء».

ضبط النفس

النفس أولاً

نحن ندرك ونشاهد ــ ولو عن طريق السلوك والأفعال ــ أن بعض النفوس مهيأة لقبول الحق بكل يسر وبمجرد ظهوره، وبعضها تكاد تصعق من اسمه ومن كل ما يمتّ إليه بسبب، وفي القرآن الكريم آيات محكمات تحكي عن هذا الواقع وتعكسه، منها في سمات الفئة الأولى قوله تعالى: **(الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه)** (١٨ ــ الزمر) ومنها في وصف الفئة الثانية: (وما أنت بمسمع من في القبور) (٢٢ ــ فاطر).

والسبب الموجب للأعراض عن الحق لا يخلو من أحد فرضين: إما الجهل وإما مرض القلب بالهوى الأعمى، فإذا حاولنا أن نعدّل من سلوك منحرف لهوى أو جهل الجاهل فعلينا قبل كل شيء أن نهيئ ونمهد لذلك تماماً كتطهير الأرض قبل غرسها وزرعها.. وأية جدوى من تشخيص الداء ومعرفة الدواء ووجوده بالكامل طالما المريض يرفض الحمية والعلاج؟ وكلنا يعلم أن دواء الجهل، العلم والتعلم، وأن دواء الهوى ترويض النفس الذي وصفه رسول الله(ص) بالجهاد الأكبر، لأنه صعب عسير، ولكنه العلاج الوحيد ولا سبيل سواه.

أعدى الأعداء

قال الإمام أمير المؤمنين(ع): «لا عدو أعدى على المرء من نفسه، ولا عاجز أعجز ممن أهمل نفسه فأهلكها». وكل من زيّن وحسّن لك القبيح وأغراك به، أو شوّه وقبّح لك الجميل وأبعدك عنه فهو أعدى أعدائك سواء أكان من ذاتك، أم من خارجها، ولكن هذا العدو الداخلي والخارجي لا سلطان له عليك اطلاقاً إذا أنت عصيته واعتصمت منه، بل تؤجر وتشكر على معصيته، قال سبحانه: **(وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى)** (٤٠ ــ النازعات).

وقد يكون الإنسان قوياً في جنده وماله، فينتصر على عدوه من الخارج ويقهر منافسيه ساعة يشاء، ولكنه أضعف الضعفاء أمام هواه الكامن في أعماقه، وقد يكون ضعيفاً في جاهه وماله، ولكنه أقوى الناس سلطاناً على نفسه وهواه، فأي الرجلين أعلى مقاماً واعظم أجراً عند الله؟.

قال الرسول الأعظم(ص): لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لدينه. وقال الإمام الجواد(ع): من وافق هواه فقد أعطى عدوه مناه. وقال أرسطو: «ردع النفس للنفس هو العلاج للنفس».

وقد يكون الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يجاهد ويصارع نفسه بنفسه.. ولا شيء أيسر على الإنسان من طاعة الهوى والاستجابة لندائه لأن هواه نابع من ذاته وأول غريزة في جبلته، ولكن هل يكون إنساناً ــ بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ــ من يستسلم لأهوائه وانفعالاته في جميع المواقف؟.

وتسال: كيف يكون الإنسان عدواً لنفسه ومجاهداً ضدها وهو هي، وهي هو؟

الجواب:

المراد من محاربة النفس للنفس أن لا يستجيب الإنسان لرغبته حين تدعوه إلى ما يضره ولا ينفعه، كما لو مالت إلى الحرام ورغبت فيه فاعتصم وامتنع، فيكون بهذا عدواً لنفسه التي عصاها وأطاع الله سبحانه.

بين اللذة العاجلة والآجلة

المراد باللذة العاجلة هنا متاع قليل وحزن طويل، وبالآجلة نهاية التعب والشقاء وبداية الراحة والهناء.. إن العاجلة تماماً كطعم الحلوى ما دامت في الفم، ثم يعود كل شيء إلى ما كان، ولذا عبّر عنها القرآن الكريم باللهو واللعب، وهو أبلغ تعبير وأجمعه، واللذة في ذاتها ليست بحرام، قال سبحانه: **(كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه)** (٨١ ــ طه). والطغيان فيه أن تناله وهو عليك محرم، أما لأنه ملك سواك كالزنا بذات بعل، وأما لأن ضره أقرب من نفعه وأكثر كالخمر، قال، تقدست أسماؤه: **(إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً)** (٧ ــ الكهف) أي يحسن العمل في الزينة نفسها، ولا يتجاوز حدودها المشروعة، ويسمى هذا في القوانين الحديثة التعسف في استعمال الحق.

قوة الإرادة

استطاع الإنسان أن يسيطر على الطبيعة، ويستغل طاقاتها وخيراتها في مآربه، ولكن وقف به العجز أمام نفسه وأهوائها الأمّارة الخاسرة، وما من شك أن عجز المرء عن كبح النزوات والشهوات آفة الآفات، عليه وعلى مجتمعه وربما على البشرية جمعاء خاصة إذا كان يمتلك أسلحة الفناء والدمار.. وما زال الضمير الحي حتى الآن يحمل آلام التفجير النووي عام ١٩٤٥ ويهتز كيانه خوفاً من كارثة كونية تعم وتشمل البرية والإنسانية.

ولكي يحقق الإنسان شخصيته وإنسانيته يجب عليه أن يقاتل هواه بعقله كما قال الإمام أمير المؤمنين(ع) وقال اسكندر الكبير الذي ملك البلاد طولاً وعرضاً: «الملك والسلطان الأعظم أن يغلب الإنسان شهوته(٢) .. سلطان العقل على باطن العاقل أشد تحكماً من سلطان السيف على ظاهر الأحمق». وقال الإمام(ع): «العقل حسام قاطع». وفي قواميس اللغة: الحسام السيف، وليس هذا من باب توارد الخاطر بين الإمام واسكندر، بل تعبيراً عن واقع العقل في هويته وصفاته.

وبعد، فان ضبط النفس من خلق الأنبياء والأولياء، وهو المحور الذي يدور حوله علم الأخلاق، ونستطيع القول بأن كل من فعل خيراً لوجه الله والخير أو ذُكر به فهو من الذين قاتلوا أهواءهم بالعقل والدين، وأي شاهد أصدق وأوضح من هذا الشاهد: **(فان لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم)** (٥٠ ــ القصص). تأمل ملياً فيما توحي به كلمتا (فاعلم أنما).

الإنسان وشريعة العدل

ورب متفلسف يعترض ويقول: الطيور والحشرات وأنواع الحيوان أيضاً تدرك وتعقل كالإنسان فيما يخصها، فكلاب البحر تبني السدود تبعاً لأغراضها، والطيور تهيء أعشاشاً لبيضها وأفراخها، وخلايا النحل وبيوت العنكبوت صُمّمت بكل دقة وحكمة تماماً كأفعال الإنسان من الوجهة الفنية، فلماذا لم تُفرض شريعة ولا نظام على هذه المخلوقات من خارجها ، بل تركت وشأنها تسير بغريزتها وشيمتها، وفُرض على الإنسان نظام وشرع من خارجه، ولم يُترك مع نفسه وغرائزه؟.

الجواب:

ان قدرة الحيوان والطيور والحشرات محدودة في أضيق نطاق، ولا تستطيع السيطرة والتحكم بغيرها من الكائنات، أما الإنسان فله قدرة فائقة وطاقات هائلة، وبها يستطيع التحكم والسيطرة على كثير من الأنواع والأشياء، فاحتاج إلى رقابة الشرع الكامل والنظام العادل يحدد من سلوكه وتصرفاته، ويحد من طموحه ونزواته، ويسمو به عن الطغيان والعدوان.

الهوامش:

(١) نكتب هذه الكلمات في صيف سنة ١٩٧٦م، وشيعة علي والحسين يقاسون أهوالاً تنوء بها الجبال ومع ذلك وجد أقلاء كما وكيفا يبررون هذه الأوضاع!. ولا بدع فقد جرت سنة الله أن يجعل لكل حق شياطين لأنهم يضطربون من صوته وسطوته (أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون).
(٢) وايضاً نسبت هذه الحكمة لسقراط.

من حديقة الأخلاق

هذا الفصل

قد نجمع في هذا الفصل بين الحديث عن الشيء وضده، ولا قاسم ولا جامع بينهما سوى اسم الأخلاق، وأنهما من هذه الشجرة وفروعها ومسائلها، وقد تكلم القدامى عن الفضائل والرذائل، وجمع بينهما من ألّف في هذا الفن في كتاب واحد، ولكنه تحدث عن كل فضيلة من الفضائل ورذيلة من الرذائل في فصل مستقل.

وحديث الفضائل والرذائل واحد ومطرد في كل كتاب قديم وُضع في الأخلاق، فكان اللاحق يقتفي أثر السابق حتى كأن الأول قد بلغ الغاية والنهاية التي لا شيء فوقها ووراءها. وقال فيلسوف معاصر ومؤلف شهير عن كتب القدامى بوجه عام: ((اجترار من اجترار بعد اجترار.. هنالك هذه الألوف من المجلدات التي لا تضيف حرفاً واحداً جديداً، فهي شروح، وشروح للشروح، وتعليق، وتعليق على التعليق)).

أما نحن فنعرض هنا ما نراه أهدى وأجدى، في فقرة خاصة، ونحاول جهد المستطيع أن نكتفي من الحديث عنه بما يدركه القارئ مباشرة ويستجيب له ويقتنع به تلقائياً من غير مقدمات وأقيسة منطقية تماماً كالحكمة البديهية والحجة الواضحة البالغة، يستريح لها كل قلب وتركن اليها كل نفس، ويؤمن بها كل عقل. وهو سبحانه المسئول أن يجعل أعمالنا موصولة بأقوالنا.. ولا شيء أبعد من ذلك عن الإنسان إلا بمعونة الله وتوفيقه.. وسلام على من قال: ((لست في نفسي بفوق أن أخطئ، ولا آمن ذلك من فعلي إلا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني)).

الصراحة شيمة الأقوياء

سألني أحد طلابي في حلقة الدرس وقال: ما هي الغاية من علم الأخلاق؟ مع العلم بأني كررتها مرات في الدروس السابقة. فقلت له: وبأسلوب أوضح أن وظيفة هذا العلم تماماً كوظيفة (البلدية) هذه تقوم بتنظيف الأزقة والشوارع من القذارة والزبالة، وعلم الأخلاق يهدف إلى تطهير القلب من الرجس كالغش والحقد والحسد، وتنزيه اللسان عن الرجز كالفحش والكذب والغيبة.. وأيضاً يسوغ لنا أن نقول: الغاية من العلوم صيانة الآراء والمعتقدات من الجهل والخطأ، أما الغاية من الأخلاق فصيانة السلوك والأفعال من الذنب والخطيئة.

وقد يجمع الإنسان بين رذيلتي الخطأ والخطيئة معاً في فعل أو وصف واحد من أفعاله أو صفاته كما لو جهل بجهله، ولم يتوقع الخطأ من نفسه، أو أصر على ذنبه ولم يطع ناصحاً أو يستمع لعليم حكيم.. ولا دواء لأمثال هذا إلا أن يعالج هو نفسه بنفسه، فيعرفها على حقيقتها ويعترف ويندم.. ولكن فضيلة الصراحة والاعتراف بالخطأ عن قناعة لا لمجرد الخلاص من مشكلة ــ هي شيمة الأقوياء دون الضعفاء، ومن أخلاق العظماء دون الصعاليك، قال فيلسوف من الغرب: «الاعتذار هو أقصى مراتب النضوج العقلي والعاطفي، فالعظيم يعتذر، ويشعر بأخطائه وهو في قمة النصر لا في هوة الهزيمة». أما العقاد فيقول: لا أحد يعترف بالنقص إلا أن يريد التوصل للاشتهار بالكمال، أو يخشى أن يفشي أسراره عدوٌ له على غير حقيقتها.

وقد يرى المرء نفسه عبقرياً في مواهبه، وبحراً في علومه، ومع ذلك يمكن أن نتقبله إلى حد محدود إذا كان عاقلاً في سلوكه، يتوقع الخطأ في آرائه، ويتقبل النقد برحابة صدر، ولا يدعي علم ما يعجز عن إدراكه، ولا ينكر ما يجهل.. وقد دلتنا التجارب أن العالم الحق كلما ازداد علماً واتسعت آفاقه ازداد خوفه من أخطائه، وبالغ في التثبت من أدلة أحكامه، وقررها على وجل من الله وعلى سبيل التقريب لا على الجزم واليقين محتفظاً بخط الرجعة ومعتبراً بقوله تعالى: (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) (٨٥ ــ الإسراء). وفي الخطبة ٨٩ من خطب النهج فسر الإمام(ع) الراسخين في العلم بأنهم الذين يميزون بين ما يعلمون وما لا يعلمون، ويقفون عند ما حُجب عن علمهم.

وبعد، فلا أحد أكثر حمقاً واثماً ممن يرى جهله علماً، وسفهه حلماً، وقد وصف سبحانه هذا النوع من الناس بقوله: **(ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان إلا أن حزب الشيطان هم الخاسرون)** (١٩ ــ المجادلة). وما أدراني وأدراك أيها القارئ أني أنا وأنت من الذين يحسبون أنهم على شيء وهم الكاذبون والخاسرون؟ ــ دون أن نحس ذلك من أنفسنا، ألسنا من بني الإنسان؟ وإذا ساغ هذا في حق زيد وعمرو يسوغ أيضاً في كل الناس، وأي عاقل أو مسلم يجرأ أو يدعي أنه غير مقصود بقوله تعالى: (ان الشيطان للإنسان عدو مبين) وبقوله: (ان النفس لأمارة بالسوء)؟.

بين العاقل والطائش

قد يرجو الإنسان ويرغب من أعماقه أن يعيش ويحيا في دنياه بلا مشكلات ومزعجات..

وصاحب هذا الرجاء هو الذي عناه الشاعر بقوله: (متطلب في الماء جذوة نار) ولكن من المجرب والمؤكد أن العاقل الحصيف يستطيع بحكمته أن يتفادى العديد من المتاعب والنوائب قبل حدوثها، وأيضاً يستطيع بصبره ورويته أن يعالج ما يحدث منها، ويخفف من حدته ووطأته.

والعكس بالعكس، فان الطائش الأحمق يجر البلاء لنفسه بيده، ويشرب السم من رأسه، فالمصدر الوحيد لمعرفة الحقائق عنده هو ما يدور في توهمه وتخيله، أما عالم الخارج والواقع في نظره فهو وهم وخيال. مثلاً ــ يتخيل الأحمق ويتصور أن فلان الفلاني يزدريه ويحتقره، وأنه يضمر له كل سوء وشر، فيبني على خياله هذا خطوطاً للدفاع، ويعد العدة للهجوم منصرفاً بكله لمنازلة عدوه الموهوم! كل هذا وفلان الفلاني في شغل شاغل عنه، بل لم يخطر بباله على الاطلاق!. والخسران المبين هو مصير الذين يحكمون بالتهمة، ويجزمون بالظنة.

ويغني عن كل ما قيل ويقال في الأحمق، ما رواه صاحب سفينة البحار عن الإمام السجاد وسيد العباد(ع): «ان تكلم الأحمق فضحه حمقه، وان سكت قصّر به عيه، وان عمل أفسد، وان استُرعي أضاع، لا عمله من نفسه يغنيه، ولا علم غيره ينفعه، ولا يطيع ناصحه، ولا يستريح مقارنه، تود أمه لو ثكلته، وأمرأته لو فقدته، وجاره لو بَعُد داره، وجليسه لو كان وحده. ان كان أصغر من في المجلس أعيا من فوقه، وان كان أكبر أفسد من دونه».

من التجربة والقراءة

دلتنا التجارب أن ما يسميه الناس مشكلة وما أشبه ينقسم إلى نوعين: الأول مشكلة ونائبة حقاً وواقعاً كالجوع والمرض، فالمعدة تطلب الطعام والغذاء، والمرض يطلب العلاج والدواء، ولا يجدي الدعاء هنا والتسكين مهما تكلف الإنسان وتصوف.

النوع الثاني من المسمى بمشكلة يتكيف تبعاً لنظرة الإنسان وتصرفه، ومثال ذلك أن يسمع كلمة خبيثة من سفيه، فإن اهتم بها السامع وثار فقد أعطاها شأناً ووزناً، وإن تجاهلها ذهبت مع الريح كأنها لم تكن.. مر الفيلسوف اليوناني انكساغورس بأرعن فشتمه، فأعرض عنه. فقيل له: لم لا تمتعض من كلامه؟. قال: لأني لا أتوقع أن أسمع من الغراب تغريد البلابل.

الرياء

لكل فرد من بني الإنسان مزاجه وعالمه الخاص به وحده، وآراؤه ومعتقداته التي ارتضاها لنفسه، وظروفه وقدراته التي ينفرد بها دون غيره.. هذا إلى مخبآت يفاجأ بها كل إنسان على حين غفلة، ويستجيب لها تلقائياً وبلا تصميم سابق.. فأي سلوك أو موقف أو قرار يصدر من الإنسان تلبية لشيء من ذلك ــ فما هو من الرياء في شيء، لأنه يخص الفرد وحده وتجاوب طبيعي مع حياته وظروفه الخاصة، حتى ولو بدا هذا التجاوب في صورة الاختيار. قال أرسطو المشهور بالمعلم الأول: «الإنسان مضطر في صورة مختار ــ كتاب صوان الحكمة».

وعليه فان المراد بالرياء الذي نتحدث عنه هنا، ليس أثراً للحياة الطبيعية، ولا للعقل والوجدان، ولا للإكراه والاضطرار، وإنما هو طلب للدنيا باسم الدين عن قصد وتصميم ينبع من ذات المرائي، ظاهره الصدق والإخلاص، والنزاهة والبراءة، وباطنه الكذب والنفاق، والمكر والخداع، والتدليس والتلبيس.

قال العقاد في كتاب خلاصة اليومية: ما رأيت مرائياً إلا وجدته مغتاباً نماماً. والجرأة على الناس في غيبتهم كالتزلف اليهم في حضرتهم، كلاهما علامة الجبن والصغار.

وفي آخر المجلد الأول من كتاب المتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ما معناه لا أحد أخسر صفقة، وأكثر ضعة من رجل يتسم بسمة الدين والصلاح، وهو في واقعه قد باع دينه للشيطان بالرفعة عند العوام والعيش على فتاتهم وأوساخهم... وما تملق لهم أحد إلا وأعطاهم من نفسه ودينه، وعلمه وعقله أكثر مما أخذ من مال واحترام.

وفي المجلد الأول من (في ظلال نهج البلاغة) قلت في تفسير «ومنهم من طلب الدنيا بعمل الآخرة»: يشير الإمام(ع) بهذا إلى المرائين الذين يحتلبون الدنيا بالدين!. ولست أشك في أن المومس التي تبيع جسدها، وتعيش على فرجها أشرف من المرائي الذي يتاجر بالدين، وأقرب منه إلى الله.. انها تاجرت بمخرج البول، وتاجر هو بقدس الأقداس الذي تستميت الأنبياء والأولياء في سبيله.. وأيضاً هي لا تغش ولا تكذب في مهنتها وتجارتها، وتظهر للناس عارية، ولا تطلب الإجلال والإحترام من أحد، بل تشعر بضعتها واحتقار الناس لها، أما المرائي الذي يتاجر بالدين فقد خدع ونافق في مظهره والستر على عيوبه، ومع هذا يطلب من الناس الاحترام والتقدير!.

السكينة

السكينة صفة للنفس والقلب، قال سبحانه **(هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين)** (٤ ــ الفتح). وقال: **(يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية)** (٢٧ ــ الفجر). السكينة السكون، ومعناه الهدوء والقرار إلا أن كلمة (السكينة) تُعطي هذا المعنى، وتوحي أيضاً بالسبب الموجب للهدوء والقرار، وهو الأمن والأمان، والرضا والاطمئنان، أما الأسباب الموجبة للسكينة فهي كالآتي:

اليأس

١ ــ اليأس، قال الإمام أمير المؤمنين(ع): «اليأس احدى الراحتين». ولكنه مع هذه الراحة لا يوصف من حيث هو بخير أو بشرّ، بل يختلف تبعاً للمأيوس منه، فإن يئس المرء مما في أيدي الناس ثقةً بالله وبالجد والسعي، يكون اليأس، وهذي هي الحال، خيراً وفضيلة، وان يئس من روح الله ورحمته ــ نستعيذ بالله يكون ذلك شراً ورذيلة.

وفي نهج البلاغة: «الغنى الأكبر اليأس مما في أيدي الناس».

واليائس من الناس هو الذي يتكل على الله وكد اليمين وعرق الجبين. وأيضاً في نهج البلاغة: «الفقيه كل الفقيه من لم يُقنّط الناس من رحمة الله، ولم يوئسهم من روح الله، ولم يؤمنهم من مكر الله). وفي سفينة البحار عن النبي(ص) أن رجلاً أقسم بأن الله سبحانه لا يغفر لفلان!. فقال الله، عظمت كلمته: لقد غفرت لفلان، وأحبطت عملك بقولك: لا أغفر لفلان.

ولا أدري كيف تجرأ هذا وأمثاله أن يخلعوا ما فيهم من لؤم ورجز على إرادة الله ــ تعالى علواً كبيراً ــ وأي فرق بين هؤلاء وبين الذين جعلوا لله صاحبة وولداً!.

القناعة

٢ ــ القناعة، قال الإمام(ع): «كفى بالقناعة ملكاً... القناعة مال لا يفنى». والمراد بالملك هنا الرضا بما قسم وحصل.. ورُوي أن رجلاً من خدمة الملك قال لسقراط حين رآه يأكل الحشيش: لو خدمت الملك ما احتجت هذا الحشيش. فقال له سقراط: وأنت لو أكلت الحشيش ما احتجت إلى خدمة الملك. وكتب إليه آخر يعيبه بمأكله، فكتب في جوابه: أنت تعيش لتأكل، وأنا آكل لأعيش.

وما من شك أن القانع أبعد الناس عن الحسد والمطامع كما هو المفروض من خُلقه وإلا لم يكن من القانعين، والوقاية من داء الحسد والطمع سكينة وعافية، قال الإمام(ع): «صحة الجسد من قلة الحسد» أما الطمع فصاحبه طول حياته هائم وحائر: كيف يجمع ويدخر.

وقالوا في الفرق بين الغبطة والحسد: ان الغبطة أن تتمنى لنفسك مثل ما عند صاحبك من نعمة دون أن تزول عنه، والحسد أن تتمنى زوال النعمة عنه وإن لم يصل إليك منها شيء.. ومعنى هذا أن الحاسد لا يطمع في أن يساوي الرفيع في مكانته، والغني في ثروته، والعالم في معرفته، وإنما يريد أن يهوي الرفيع إلى ضعته، والغني إلى بؤسه، والعارف إلى جهله!.

وهنا معدن اللؤم والخسة، والخبث والدناءة. وهناك رجل وادع ومسالم للناس، كل الناس، يتمنى الخير لك ولهم، تود هلاكه والتنكيل به لا لشيء إلا لأن الله آتاه من فضله جزاء لجهده وشكره!. نافسه في الخير ان كنت رجلاً، فان التسابق والتنافس في الخير خير، قال رسول الله(ص): «المؤمن يغبط ولا يحسد، والمنافق يحسد ولا يغبط». وقال سبحانه: **(وفي ذلك فليتنافس المتنافسون)** (٢٦ ــ المطففين).

ومن الدروس التي ألقيت علينا في النجف الأشرف قول المبعوث لتتميم مكارم الأخلاق: «إذا حسدت فلا تبغ».

وسمعنا وقرأنا في شرحه أن الله سبحانه لا ينهى عما يدور في خاطر الإنسان من ميول هوجاء وأفكار سوداء لأن ذلك تكليف بما لا يطاق، وأنما ينهاه عن الاسترسال مع هذه الميول والافكار، ويأمره بالكف عن آثارها، وأن يتكلف الصبر عليها، ويتجاهلها حتى كأنها لم تكن.

الايمان

٣ ــ الإيمان، وقبل الإشارة إلى ثمره وأثره نمهد بالفرق بين المؤمن والملحد بلا تطويل وتحليل.. يعتقد الملحد بأن الطبيعة العمياء ألقت به في هذا الوجود من غير قصد أو هدف، وأنه غير مسئول عن شيء أمام أية قوة أو سلطة فوق الكون والبشر، بل لا مبرر لوجوده على الإطلاق، وأن قائده ورائده معدته وكسوته، وبيته وزوجته، لا يقع عليه أي عبء إلا أن يعمل من أجل ذلك، ويترك الناس وما يشتهون.. وبكلمة إن الإنسان في نظر الملحد هو الحيوان الملزم بالعمل لحياته في هذه الدنيا ومعاشه ولا واجبات وراء ذلك ومسئوليات حيث

يذهب بالموت إلى فناء أبدي، لا بعث ولا ثواب على حسنة ولا عقاب على سيئة!.

أما المؤمن فيعتقد بأن الله القدير العليم والغني الحكيم هو الذي خلقه وأوجده لغاية تسمو به عن اللغو والعبث، وهي أن يعطي الإنسان لهذا الكون قيمته، ويظهر حقيقته، واودع فيه كل الطاقات المؤهلات لهذه المهمة، وبها كرّمه سبحانه وفضّله على كثير من خلقه، وخصه بشريعة كاملة وافية، يعمل في ضوئها لبلوغ الغاية من وجوده، وتُعدّه لعالم الأبد والخلود، للملك الدائم، والنعيم القائم إن هو امتثل وأطاع، ولعذاب الحميم ان تمرد وعاند. وبكلمة إن المؤمن يعتصم بقائد أعلى لا يحيد به عن صراط الخير والنجاة إن أسلس القياد والزمام لمولاه، ومن هنا كان المؤمن على بصيرة من أمره وبينة من مصيره، لا قلق ولا ضياع، بل هدوء وسكينة في كل حالاته وأطواره بنص القرآن الكريم: **(أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه)** (٢٢ ــ المجادلة). (ان الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً إلا المصلين) (٢٢ ــ المعارج) والمراد بالمصلين هنا المؤمنون المعتصمون بالله أبداً ودائماً في السراء والضراء.

أما الملحد فهو في غربة وحيرة، لأنه ــ كما هو الفرض عنده ــ قد انتهى بتفكيره إلى أن الوجود لا معنى له، وان الإنسان قُذف فيه صدفة وعبثاً!. وعليه فإلى أي شيء يطمئن الملحد ويلجأ؟.

وقرأت الكثير عن صفات التائه الحائر، وأول ما تبادر إلى ذهني أنها صفات من كفر وألحد، ومن تلك الصفات (أنه سجين نفسه يبحث عن مكان في هذه الحياة فلا يجده، فيحز الألم في نفسه، ويتعاطى المخدرات أو الانتحار ــ مجلة عالم الفكر، العدد الأول من المجلد الأول ص ١٦). وفي صفحة ٣٦ وما بعدها من هذه المجلة قال البير كامي: ((أن الانتحار يعني بكل بساطة الاعتراف بأن الحياة لا تستحق أن تعاش)). وفي مجلة العربي العدد ١٩١ ص ٢٠: ((ذهب كثير من علماء النفس والاجتماع إلى أن أغلب المشكلات التي يعانيها الناس أفراداً وجماعات ــ ترجع إلى احساس الفرد بعدم الإنتماء (أي إلى دين وعقيدة) وشعوره بالحيرة والضياع)).

هذي هي بالذات حياة الملحد في احساسه وبينه وبين نفسه: اهتزار واضطراب، وغربة وحيرة، وفراغ وضياع، والعلاج الوحيد سموم تخدّر أو انتحار يدمّر، أما حياة المؤمن مع نفسه فسلم وانسجام، وراحة واطمئنان.

من أصول المناظرة

للمناظرة أصول، منها أن يلتزم المناظر صفة التجرد، ويقف موقف الحياد، لا يتعصب ولا يتحامل أو يبالغ ويهوّل، ولا يغش ويضلل أو يستجيب لميل أو هوى، ولا يتقصد المباهاة وعرض العضلات أو يتخذ من نفسه معصوماً (الراد عليه راد على الله) أو أستاذاً يلقي الدروس على تلاميذه.

وان قال قائل: هذا محال ومجرد خيال. ومن الذي يستطيع أن ينسلخ من ذاته وعاطفته، وحبه وكراهيته؟. قلنا في جوابه أجل، لا أحد يستطيع أن لا يحب ولا يكره، وإن حرص وبالغ،

ولكن في مقدوره وطاقته أن يزم عطفه وهواه، ولا ينطلق معه من غير فكر وروية تماماً كمن يقهر طبعه على ترك الأكل أو الجنس ــ وهو أقدر الناس عليه وأحوجهم إليه ــ لغاية تدعو إلى ذلك، وكالذي يبتلع غيظه تحلماً لا حلماً أو يخمد حسده بدينه وعقله.

ومنها أن يكون المناظر على علم بالقضية التي يناقشها ويناظرها لأن الجهل لا يكون مصدراً للعلم، قال فيلسوف يوناني قديم: مناظرة العالم بالجهل كمناظرة الجاهل بالعلم. وقال قوم نوح لنبيهم وهو يحاورهم: **(إنا لنراك في ظلال مبين)** (٦٠ ــ الأعراف) وقال قوم هود لهود (إنا لنراك في سفاهة) (٦٦ ــ الأعراف) وقال مشركو مكة لنبي العقل والعدل والرحمة: **(يا أيها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون)** (٦ ــ الحجر). ولا برهان بعد هذا الكلام إلا الصواعق أو الحسام.

أنا والمناظرة

ومنذ أكثر من خمسين عاماً ــ وبالضبط من سنة ١٩٢٥م ــ وأنا مع المجادلات والمناظرات دراسة وتدريساً وقراءة وكتابة ومذاكرة.. درست النحو والمنطق والمعاني والبيان في الكتب القديمة، ثم الفقه وأصول الفقه، وكلها متخمة بـــ (ان قلت قلت) وكان الأستاذ، ألبسه الله من ثياب الجنان، لا يكتفي بنقاش الماتن والشارح والمحشي والمعلق حتى يجهد نفسه، ويعصر فكره، ويضيف إلى نقاشهم كل ما يمر بخياله لا لشيء إلا ليدلي بدلوه بين دلاء العلماء.. ووعاء العلم لا يضيق بما جعل فيه خاصة علم النجفيين والأزهريين.

ثم تركت الأستاذ والنجف إلى لبنان، ولكن بقيت في دنيا النقاش والحوار في الكتب

والأسفار فقهاً وأصولاً وفلسفة وكلاماً، مطالعة وتأليفاً، ووقفت طويلاً مع المشككين من شباب العصر، والمتعصبين من خصوم الشيعة، والخائنين من عملاء الصهيونية والاستعمار.. وانتهى المطاف بشعوري وإحساسي إلى التقدير والاحترام لمن يجادلني ويناظرني إذا تجاوب عقلي مع حجته ودليله، أو تجاوب عقله مع حجتي ودليلي، أو اضطرني إلى المراجعة واعادة النظر فيما كنت قد ارتضيته وآمنت به، وإلا شفيت غيظي منه بتجاهلي له.

ومن لا يبتغي من النقاش إلا الظهور وعرض العضلات فهو بالوحش أشبه، ومن يقطع الطريق على صاحبه بكلام تافه وباهت مثل هذا فهو أحمق، ولماذا هو مخطئ وغيره مصيب، وكل ما يجري على أحدهما يجري على الآخر مع العلم بأن كلاً منهما من أولاد الذي أكل من الشجرة المعلومة؟. قيل لأينشتين: إن الفيلسوف الفلاني يرفض نظريتك. قال: هو على حق لأن النسبية العامة لا تعرف على حقيقتها إلا بعد سنوات. وهذا هو منطق العلماء حقاً وصدقاً، وشأن الأقوياء الواثقين من أنفسهم.

وكفى بربك عالماً وهادياً، فلقد قال سبحانه للذين اتخذوا مع الله إلهاً آخر: هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين. وقال عن الذين يعبدون العديد من الآلهة: لولا يأتون عليهم بسلطان بيّن.. وهذا هو الأسلوب العلمي والوحيد في كل المناقشات التي تهدف إلى تسوية الخلافات بصورة سلمية، أما فلتات اللسان أثناء الجدال والنقاش فهي تماماً كتناطح الثيران.

وضمني مجلس مع جماعة من الاخوان، فطرح أحدهم للبحث مسألة فقهية، وما إن أبدى شيخ من الشيوخ رأيه حتى تصدى له شيخ آخر وقال: هذا خطأ!. فأجابه صاحب الرأي: لو كنت

من أهل العلم بكتاب الله لقلت كما قال سبحانه: (هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) (١١ ــ البقرة).

وجرت مذاكرة علمية في مجلس ثان، وأصر أحدنا على رأيه، فقال له عالم متمكن: المرجو أن تراجع المسألة من جديد، وتعيد فيها النظر. فقال له صاحبه: سأفعل لأن قولك هذا هو قول الحق والفصل.

وبعد، فان الجدال والنقاش محك للإنسان في جبلته وأخلاقه كما أنه المختبر لعلمه وعقله.. ولكن العالم أحوج إلى الأخلاق من الجاهل إلى العلم، فمهما انحرف أهل الجهل في سلوكهم

فهم أيسر وأهون على الإنسانية مليون مرة من أصحاب الأدمغة الذين اخترعوا ويخترعون أسلحة الفناء والإبادة.

الصفح

كل إنسان يشعر بالمقت والكراهية لمن أساء إليه بطبيعة الحال، ولكن الغيظ إذا استمر تفاقم وارتد أثره على صاحبه المعتدى عليه لا على المعتدي حيث يقلق راحته، وينغّص عيشه، ويذهب بتوازنه، ومعنى هذا أنه قد أساء إلى نفسه بنفسه.. ولا سبيل للخلاص من هذا الشعور المدمر إلا التناسي والصفح، لأنه إن أعلن الحرب على المسيء ولم ينتصف منه لعجزه، عظم الخطب، واتسع الخرق، وشاع الفشل، وتشجع المسيء، وشمت العدو، وعتب الصديق.

وان انتصر عليه فاتته فضيلة الصفح والحلم، بعد أن سنحت الفرصة لها ولم ينتهزها. وروي أن فيثاغورس الفيلسوف الكبير أساء إليه خادمه فضحك، ولما سئل عن ذلك قال: لقد مهد لي السبيل إلى الصبر والحلم. وقال الإمام أمير المؤمنين(ع): «متى أشفي غيظي إذا غضبت؟ أحين أعجز عن الانتقام؟ فيقال لي: لو صبرت، أو حين أقدر فيقال لي: لو غفرت». وأيضاً قال: إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه.

وقال سبحانه: **(وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فان الله غفور رحيم)** (٤ ــ التغابن) والمراد واحد من العفو والصفح والمغفرة، والقصد من هذا الترادف، التوكيد والترغيب والتنبيه إلى أن الله تعالى يرحم من رحم ويعفو عمن عفا.. وليس الصفح عن المسيء بالأمر اليسير على أبناء آدم إلا أن يكون ذا عقل كبير، وخلق عظيم.. والعديد من الفلاسفة وعلماء النفس يعتبرون الصفح والتسامح أساساً من أسس الحياة الاجتماعية تماماً كالتضامن والتعاون. والبديهة تشهد بهذه الحقيقة.

المعاملة

اشتهر عن الرسول الأعظم(ص) أنه قال: «الدين المعاملة» وإذا عطفنا على قوله هذا حديث (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) ساغ لنا أن نقول: مكارم الأخلاق هي المعاملة، ويكون معنى الحديثين معاً أنه لا دين ولا أخلاق لمن أساء أو يسيء في معاملته مع أي إنسان كان ويكون.

وقد شاهدنا بالحس والعيان أن الصدق والوفاء رصيد ضخم وثروة كبرى في الحياة الدنيا قبل الآخرة، فكم من صادق مخلص سعت إليه الرياسة دون ان يسعى اليها، وتغلب على أنداده وحساده، وأصبح له صوت مسموع بطيب السريرة وحسن السيرة والعديد من تجار الشرق

والغرب يتجنبون الغش والخيانة، ويلتزمون النصح والأمانة لا لشيء إلا لأنهما متجر رابح.

وقد يقول معترض: ان هذا ليس من الأخلاق في شيء لأن صاحب الاخلاق الكريمة يتصرف بوحي من قلبه وضميره لا بدافع من جيبه ومعدته.

الجواب:

أجل، ليس ذلك من الأخلاق بالنسبة إلى هذا التاجر بالخصوص، ولكن النصح في المعاملة حسن وراجح في ذاته، والغش قبيح ومكروه بالطبع، والمفروض أن هذا التاجر صدق ولم يخدع، فيخرج، وهذي حاله، عن العهدة والمسئولية، ولذا لا يجد في صدره أي حرج من قول قائل: أنت تتاجر بالصدق، بل قد يعلن ذلك صراحة عن نفسه ولا يستحي منه.

وبعد، فان المعاملة الحسنة هي كل شيء ديناً وأخلاقاً، ودنيا وآخرة، أما من يعامل الناس بالغش والكذب والخداع فهو أخزى من الخزي لأنه في صورة إنسان وهو في سلوكه وتصرفه ضد الله والإنسانية، هو مزيج من الغدر والاغتيال، والمكر والاحتيال، ومن كانت هذه حقيقته فعاقبته إلى وبال لا محالة.

التفكير في الرأس واليد

قال الإمام أمير المؤمنين(ع) في وصيته لولده الإمام الحسن (ع): «من كانت مطيته الليل والنهار فانه يسار به وان كان وافقاً، ويقطع المسافة وان كان مقيماً وادعاً» وفي الخطبة ١٨٦ من خطب النهج: «ما أسرع الساعات في اليوم، وأسرع الأيام في الشهر، وأسرع الشهور في السنة، وأسرع السنين في العمر».

ومعنى هذا أن العمر هو الساعات، وما من شك أنه لا شيء أغلى من العمر وأثمن، ولو كان يباع لاشتراه أهل الثراء بكل ثمن.. ولا غرابة في ذلك فكلنا يحب الحياة، ومكان الغرابة أن يفرط أحدنا في ساعات عمره، ثم يحرص على فلسه وقرشه!.. ومن الحكم البالغة: «الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما». لو بحثنا عن السر لفشل الفاشلين في هذه

الحياة لألفيناه الكسل وعدم الصبر على الأتعاب والصعاب.

ان الحياة تتطلب الحركة بطبيعتها، والإنسان الحي بعزمه وثباته أقوى مخلوق على الحركة والعمل، يقهر الصعاب بارادته وعقله، ويبني الحضارات بنشاطه وعضلاته، ويتقبل القيم والمثل الإنسانية بضميره وفطرته، أما الرجل الساكن الجامد فيتخاذل ويتكاسل، ويتكلف الثرثرة في انتحال الأعذار، ويلقي التبعة والمسئولية على الحظ والأقدار.

وبعد، فلا جدوى من العلم والعقل ما لم تتحرك اليد وتعمل، ومتى عملت شقت الطريق إلى الفوز والنجاح، والعمل يفتح آفاقاً جديدة إلى علوم كثيرة ومفيدة. وقرأت من جملة ما قرأت: «ان التجربة لتشهد بأن اليد ذاتها عاقلة حاسة ملهمة، وليس من النادر أن يقال عن بعض أصحاب المهارات انهم يملكون الذكاء في أطراف أصابعهم.. إن ثمة أناساً كثيرين قادرون على التفكير في أيديهم»(١).

وقيل: ان هذا يختص بالفن والرسم فقط.. وما من شك أنه أكثر انطباقاً على الفن وخاصة الرسم، ولكن يصح أيضاً أن يكون كناية أو اشارة إلى الصلة الوثيقة ين العلم والعمل، وانها تماماً كالصلة بين العين والرؤية (أنظر فصل حول الأخلاق فقرة علم الأخلاق منه نظري ومنه عملي من هذا الكتاب).

وعلى أية حال ومقال فان الحجر الجامد خير من العاطل المهمل، لأن الحجر لا يستهلك شيئاً، وقد ينتفع به، أما الكسول المخنث فانه يستهلك ولا ينتج، وينتفع ولا ينفع اطلاقاً، ومن كان كذلك فموته خير من حياته، وعدمه خير من وجوده.

من أخلاق أهل البيت(عليهم السلام)

دين الله واحد

أجل، دين الله سبحانه واحد بأصوله وأخلاقه لسبب واضح وبسيط، وهو أن مصدره واحد: **(وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون)** (٢٥ ــ الأنبياء). وهذا الدين الواحد الذي أرسل به جميع أنبيائه من لدن آدم إلى محمد(ص) هو الإسلام بنص القرآن الكريم: **(ان الدين عند الله الإسلام)** (١٩ ــ آل عمران).. **(ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه)** (٨٥ ــ آل عمران).

وقال عن ابراهيم ويعقوب: **(ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن وإلا وأنتم مسلمون)** (١٣٣ ــ البقرة).

وقال عن يوسف: **(أنت وليّي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً)** (١٠١ ــ يوسف).

وعن موسى: **(وقال موسى يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين)** (٨٤ ــ يونس).

وعن أمة عيسى: **(وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد باننا مسلمون)** (١١١ ــ المائدة).

وقال سبحانه: **(فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين)** (٩٧ ــ البقرة).

هذا من كتاب الله، وفي معناه من سنة رسول الله(ص): «إنّا معاشر الأنبياء ديننا واحد... الأنبياء أخوة من علات، أبوهم واحد وأمهاتهم شتّى». وقال: «ان مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وجمّله إلا موضع لبنة، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له ويقولون: هلاّ وُضعت هذه اللبنة فأنا اللبنة؟ أنا خاتم النبيين».

وقريب من هذا حديث «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» لأن معنى خاتم النبيين أنه لا نبي بعده، وأيضاً لا شيء بعد أن يكمل الشيء ويتم. وبينا السبب الموجب لختم النبوة بمحمد(ص) في الجزء الخامس من تفسير الكاشف ص ٢٢٥ وفي الجزء الأول من (في ظلال نهج البلاغة) ص ٣٥٤.

الإسلام دين الفطرة والحياة

تكلموا كثيراً عن حقيقة الإسلام وفضله، ووضع المسلمون وغير المسلمين من المنصفين في ذلك العديد من الكتب والأسفار، وكانوا لنا قدوة صالحة، فأسهمنا بشيء من التبيان والبيان، وندع هنا كل ما قلنا وقالوا في تحديد الإسلام أو رسمه، ونقتصر على قوله تعالى في كتابه حيث حدد الإسلام بآيتين كريمتين، تنصّان بوضوح على أن الإسلام هو (دين الفطرة والحياة).

وأولى الآيتين ذكرت الفطرة بحروفها، وهي: **(فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر**

الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم) (٣٠ ــ الروم). و (ذلك) تشير إلى دين الفطرة التي طبع عليها الإنسان من حيث هو إنسان يصنع نفسه، ويبت في أمر مصيره وعاقبته عن عقل ووعي.

وأيضا ذكرت الآية الثانية الحياة بالحرف، وهي: (يا ايها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) (٢٤ ــ الأنفال). وإذا جمعنا بين آية الحياة وآية الفطرة وعطفناهما معاً على قوله تعالى: (ان الدين عند الله الإسلام) يكون المعنى المحصل من مجموع الآيات الثلاث أن الإسلام هو دين الفطرة والحياة.

الإيمان والعمل الصالح

وتسأل: قد يصعب على الفهم أن يحدد بالضبط المعنى الحقيقي لكلمة الفطرة والحياة، لأنها من المعاني الكلية الغامضة، يفسرها كلٌّ تبعاً لميوله ورغبته، فهل هناك آية تُعرف الإسلام بما هو أبين وأوضح؟

الجواب:

أولاً ان المعنى المراد هنا واضح، وهو أن كل فرد سليم في مداركه، ومستقيم في أهدافه يتمنى بطبعه وفطرته أن يحيا حياة طيبة تتوافر فيها حاجاته، وتصان حقوقه في شتى الميادين، والإسلام بشريعته وأحكامها يضمن له ذلك بالكامل إذا التزم بالإسلام، ولم يفرط في شيء منه وإلا فلا يلومن إلا نفسه.

ثانياً ان كل الآيات التي قرنت الإيمان بالعمل الصالح هي تحديد للإسلام، وما أكثرها في كتاب الله، نذكر منها هذه الآية، لأنها اوضح من غيرها كمقياس للخُلق الكريم: **(ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية)** (٧ ــ البينة). لأنهم بالإيمان نزهوا الخالق عن الشرك وأنفسهم عن الخضوع لغيره، أما العمل الصالح النافع فهو الركن والأساس للحياة المثلى ديناً وآخرة، وكلما حقق الإنسان المزيد من هذا العمل ارتفع شأناً، وازداد كمالاً.

أخلاق أهل البيت

ليس للأئمة الأطهار(ع) رأي أو مذهب، ولا فلسفة ومبدأ يطبقون عليه أقوالهم وأحكامهم في

الأخلاق وغير الأخلاق.. أبداً لا شيء عندهم إلا كتاب الله وسنة نبيه.. أما غيرهم فعنده الخلاف في التفسير والتأويل، وفي الخبر السليم والسقيم، وفي التخصيص والتعميم.. غيرهم يقول: نظرت واجتهدت، وقست واستحسنت، وأهل البيت يقولون: ليس لنا من شيء وانما ننقل عن جدنا عن جبريل عن الباري تماماً كما قال جدهم(ص): وانما أنا نذير مبين. والفرق أن النبي(ص) لسان الله وبيانه وهم رواة عن جدهم النبي مع العصمة عن الافتراء والخطأ.

سأل سائل الإمام الصادق(ع) عن مسألة، وبعد أن أجابه عنها قال الرجل: ارأيت إن كان كذا وكذا؟ فقال له الإمام: مه، ما أجبتك فيه من شيء فهو عن رسول الله(ص). لسنا من ارأيت في شيء. وتكرر هذا المعنى في أقوال أهل البيت في أساليب شتى منها: «كل شيء مردود إلى الكتاب والسنة، وكل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف.. من ترك كتاب الله وقول نبيه فقد كفر. ما حدثناكم عن شي فعن جدنا رسول الله نحدث.. من عمل برأيه إن أصاب لم يؤجر، وان أخطأ كذب على الله ورسوله.. لا تقبلوا علينا إلا ما وافق الكتاب والسنة، فان لكلامنا حقيقة، وعليه نور فما لا حقيقة له، ولا نور عليه فذلك قول الشيطان».

هذا هو النهج الموثوق والمأمون لأنه إلهي بحت، ولو سار عليه المسلمون بعد رسول الله(ص) لما تفرقوا شيعاً، بل كانوا أمة واحدة، ونفساً واحدة، وصيحة واحدة ضد أعداء الإسلام وأعدائهم.

وبعد، فان الغرض الأول من كل ما تقدم هو التأكيد والتركيز على أن أخلاق أهل البيت(ع) هي أخلاق القرآن.. وفيما يلي نذكر كلمات في مبادئ الاخلاق مما رواه الرواة عن أهل البيت، ترشد القارئ إلى السلوك الأمثل في حياته، بالإضافة إلى ما يجد في قراءتها من متعة تستهويه وتجذبه.

العاقل

يثق أهل البيت(ع) بالعقل أقوى ثقة لأنه الدليل الأول الذي تنتهي إليه كل الدلالات والعلامات حتى التجربة والمشاهدة فانها لا تُقبل إلا من عاقل، بل لولا العقل لا علم بشيء على الإطلاق حتى بالخالق وعظمته، وبأي شيء نستدل على وجود الله؟ وكيف يخاطبنا بقوله سبحانه: **(ألست بربكم)** (١٧٢ ــ الأعراف) اذا لم يهبنا العقل أولاً وقبل كل شيء؟ قال الإمام الكاظم(ع): «ان الله تعالى أكمل للناس الحجة بالعقول.. وقد جعل العقل دليلاً

على معرفته)).

وهكذا لا يكمل شيء في الإنسان إلا بالعقل، قال الإمام الصادق(ع): ((من كان عاقلاً كان له دين.. وأكمل الناس عقلاً أحسنهم أخلاقاً)).

والشاهد العدل على هذه الصلة الوثيقة بين العقل والدين أن الكثير من الجاهلين المؤمنين بالله يقيمون له تمثالاً من حجر او خشب أو يجعلون له صاحبة وولداً.. إلى غير ذلك من الأساطير. تعالى الله علواً كبيراً.

أما صلة العقل بالأخلاق فهي تماماً كصلته بالدين لأن الدين رأس الأخلاق وأكرمها، وقد يكون الإنسان جاحداً غير مؤمن، ومع ذلك يتحلى ويتصف بخصلة من خصال الخير كالحلم أو السخاء فيلتقي بهذه الخلة مع الدين على صعيد واحد، أما المؤمن الكامل فكل خلاله وخصاله خير وفضيلة تنسجم مع دينه وإيمانه وعقله، ولا يناقض نفسه بنفسه، وإذا بدرت منه سيئة ساءته، واعترف بها نادماً آسفاً لأن العصمة لأهلها. قال الرسول الأعظم(ص): من تاب من الذنب كمن لا ذنب له.. ومن رأى أنه مسيء فهو محسن. وقال الإمام(ع): سيئة تسوءك خير من حسنة تعجبك.

والعاقل وحده هو الذي يؤنب نفسه، ويلومها على الإساءة، ويعترف بخطئها. قال الإمام(ع): الحدة ضرب من الجنون لأن صاحبها يندم، فان لم يندم فجنونه مستحكم.

وبعد، فان الهدف الأول من الدين والعقل والأخلاق، أن يفعل الإنسان أحسن ما يستطيع. والفرق أن العقل هو الأصل والأساس حيث لا دين ولا أخلاق بلا عقل، والعقل أعم وأشمل منهما حيث لا علم بلا عقل، وقد يكون أعلم العلماء بلا خُلق ودين، بل يتغلغل العقل في كل جانب من حياة الناس اليومية مع أن الكثير منها ضد الدين والأخلاق.. وقد يبني بعض الناس المعابد، وينفقون الملايين باسم الدين، ويعبئون الجيوش للدفاع عنه بزعمهم، وهم في واقعهم حرب على الدين والإنسانية! وفي كتاب كيف يحيا الإنسان؟ لمؤلفه (لين يوتانج): ((يستخدمون السفن الحربية في التبشير بالنصرانية وانجيلها)) يقول: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر. وقال الشاعر شاكياً للسيد المسيح من (أمته):

كثرت عليه باسمك الآلام ... يا حامل الآلام عن هذا الورى

كل الناس أحرار

أن مذهب أهل البيت(ع) أن الإنسان مخير لا مسير، وعلى هذا فالكل يحتكم إلى العقل والوحي. فقد جاء في أصول الكافي عن أهل البيت أن الله، تقدست مشيئته قال: ((يا ابن آدم بمشيئتي كنت أنت الذي تشاء)).

وفي الجزء الأول من روضة الكافي أن الإمام أمير المؤمنين قال: ((إن آدم لم يلد عبداً ولا أمة، ان الناس كلهم أحرار)). وفي نهج البلاغة: ((لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً)).

وما من شك أن القول بحرية الإنسان ليس فتحاً في الفلسفة، ولا هو منقبة لقائله لأن الحرية كالتنفس ثابتة بحكم الطبيعة وقانونها لا بجعل جاعل وتشريع مشرع حيث لا إنسانية بلا حرية، ولولاها لعجز الإنسان عن أدنى الأشياء. وتحدثنا عن ذلك مطولاً في العديد من كتبنا، ولعل أنفع ما كتبناه في هذا الموضوع فصل فلسفة الاختيار من كتاب فلسفة التوحيد والولاية.

وكنا في غنى عن هذه الإشارة هنا لولا أن خصوم الإسلام قد طعنوا به ونعتوه بدين الجبر والقهر، واستدلوا بمذهب الأشعري وأتباعه من السنة القائل بأن كل ما يفعله الإنسان فهو مكتوب عليه، ومقدر بإرادة الله منذ البداية!. ومعنى هذا أنه لا أخلاق ولا خير ولا شر من الأساس لأن سلوك الإنسان وجميع أفعاله أشبه بالثمرة على الشجرة والجريان في الماء.. ومن أنصف وعرف أن أهل البيت هم أئمة الإسلام وترجمان القرآن، لا يحتج بجبري وأشعري.

واعتذر الشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه دستور الأخلاق عن الأشاعرة وقال: إنهم يريدون من سلب الحرية عن الإنسان في عالم الإمكان لا في عالم الوقوف أي أنه تعالى قادر على ذلك ولكنه لم يفعل (انظر ص ٦٦ وما بعدها من الكتاب المذكور). أما الشيخ الدكتور محمد البهي الأزهري فقال في رسالة الإسلام لدار التقريب العدد الأول من السنة الثامنة ص ٦٣: ((ان القرآن والسنة يثبتان حرية الإنسان، أما القول بأنه مسير لا مخير فهو من تأويل ضعفاء المسلمين أو أصحاب الغرض منهم أو من غيرهم)).

الكلام

روى صاحب سفينة البحار عن إمام المؤمنين وسيد الساجدين أنه سئل عن الكلام

والسكوت، أيهما أفضل؟ فقال: ((لكل واحد منهما آفات، فاذا سلما من الآفات فالكلام أفضل من السكوت لأن الله جل وعز ما بعث الأنبياء والأوصياء بالسكوت، انما بعثهم بالكلام، ولا استحقت الجنة بالسكوت، ولا استوجبت ولاية الله بالسكوت، ولا توقيت النار بالسكوت, كل ذلك بالكلام. انك تصف السكوت بالكلام، ولا تصف الكلام بالسكوت)).

وأولاً وقبل كل شيء نشير إلى هذه البديهة: كل شيء يأتي في وقته، ويوضع في محله اللائق به فهو خير وحسن وحكمة وتدبير، وكل شيء يتجاوز حده إلى غيره فهو سفاهة وجهالة.. ومثال الأول قول الإمام أمير المؤمنين(ع): الغدر بأهل الغدر وفاء عند الله. ومثال الثاني قوله: الوفاء لأهل الغدر غدر عند الله.

هذا من حيث الفكرة والقاعدة العامة الشاملة للكلام وغير الكلام سكوتاً كان أو أي شيء، أما الحديث عن الكلام بصرف النظر عن السكوت، وعن السكوت بصرف النظر عن الكلام، فان كلاً منهما لا يوصف بخير أو شر من حيث هو، بل يختلف تبعاً لثماره وآثاره التي تختلف هي بدورها تبعاً للمقامات والحالات، فقد يكون السكوت شراً كالسكوت عن الحق حيث وصف الرسول الأعظم الساكت عنه بالشيطان الأخرس، وقد يكون خيراً كالذّي يسكت عن كلمة خبيثة كيلا يسمع كلمات. وأيضاً يكون الكلام خيراً إن أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس، كما في الآية١١٤ من سورة النساء، ويكون شراً إن يكن الكلام كذباً أو غيبة أو شتماً أو لغواً. قال أفلاطون: ((الخسيس من كثر كلامه فيما لا ينفع)). ويصدق هذا كل الصدق على العديد من الذين يتطفلون على المنابر في هذا العصر حيث يدورون ويلفون ويسرفون في الكلام من غير طائل، ويتبسطون في السخف إلى أبعد حد!.

هذا بالنسبة إلى الكلام في ذاته والسكوت في ذاته، أما المقارنة والمفاضلة بينهما كما هو موضوع السؤال والجواب فان الكلام أفضل، ما في ذلك ريب، كما قال الإمام(ع) ونعطف على ما قال.

أولاً أن الكتب والأسفار وما يدرس في المعاهد والجامعات ويدور في الأسواق والشوارع، كل ذلك وغير ذلك كلام وبيان، وهل توجد حياة اجتماعية بلا تفاهم وتخاطب؟.

ثانياً ان التخاطب والحوار يوقظ الفكر، ويفتح له آفاقاً جديدة كالتحليل في المختبر، خاصة إذا كان الحوار بين أهل العلم والفهم.. ونقول هذا عن حسٍ وتجربة.

وأخيراً هذه الرواية عن الإمام جعفر الصادق(ع): ((لقد تجلى الله تعالى لعباده في كلامه،

ولكن لا تبصرون)). (أنظر كتاب عوارف المعارف لعمر السهروردي ص ١٦٥). ومراد الإمام أن عظمة الله سبحانه تجلت في كلامه المعجز تماماً كما تجلت في الكون ومن فيه وما فيه.

الصفقة الخاسرة

قال الإمام أمير المؤمنين(ع) في حكمة ٤٢٤ من حكم النهج: أخسر الناس صفقة، وأخيبهم سعياً رجل أخلق بدنه في طلب ماله، ولم تساعده المقادير على ارادته.

وللفيلسوف الألماني الشهير شبنهور كلام منقول عن كتابه حكمة الحياة كأنه يشرح هذه الحكمة العلوية الخالدة، قال: ((اننا حتى إذا نجحنا في تكوين ثروة ضخمة فاننا قلما نفطن إلى عوامل التغيير التي يدخلها الزمن علينا.. وآية ذلك أن الأموال التي نجمعها على حساب صحتنا وراحتنا أو التي سهرنا الليالي الطوال في سبيل الحصول عليها، قد تجيئنا بعد فوات الأوان، فلا تعود تنفعنا بشيء، وعندئذ لا نلبث أن نتحقق من أننا قد أضنينا نفوسنا في سبيل الآخرين ممن لا يعرفون قيمة هذه الثروة)).

وكلنا يشعر من أعماقه أن ما زاد عن نفقته وحاجته من المال فهو لغيره لا محالة، ومع هذا يحرص الكثير منا على المزيد، ويسعى له جاهداً، ويناضل كادحاً!. فهل يكمن السر في نفس المال أو في داخل الإنسان وأعماقه؟.

وما من شك أن السر يكمن فيهما معاً تماماً كجمال الحسناء وغريزة الجنس، ولكن المال بما هو في ذاته على وتيرة واحدة سواء أنسبته إلى طامع أم إلى قانع، لأنه رسم على كاغد أو من حجر جامد وانما الفرق والتفاوت في الاتجاهات والغايات، فمن الناس من لا يبتغي من المال إلا حفظ البقاء وسد الحاجة واليأس مما في أيدي الناس، فيقتنع بما يحقق هذه الغاية، ومنهم من يطلب المال للجاه والمباهاة.. ولا يقف عند حد معين، ومثله من إذا تحققت له رغبة من مال أو جاه تجددت له رغبة أخرى. وقد صور ذلك الرسول الأعظم(ص) أجمع وأبلغ تصوير حيث قال: لو كان لابن آدم جبلان من ذهب لتمنى لهما ثالثاً الخ.

وقال رسل: لا هدف لإنسان الولايات المتحدة من المال إلا أن ينتج المال مالاً وكفى. وآخر ما قرأت عن هذا الإنسان مقالاً كتبه الدكتور فؤاد زكريا ونشرته مجلة العربي في العدد ٢١٢، جاء فيه:

«من الخبرات التي صدمتني للوهلة الأولى في أمريكا أن المجتمع لا يقيم وزناً كبيراً لرجل العلم، بل المثل الأعلى عند الأمريكي العادي هو رجل المال والأعمال الناجح. وهذا هو النمط الذي يحتل القمة في تقديرهم واحترامهم، أما العلماء والأساتذة فلا يلقون من الناس تقديراً كبيراً، بل ربما أحس الناس نحوهم بنوع من السخرية الخفية».

سل تفقهاً لا تعنتاً

سأل سائل الإمام أمير المؤمنين(ع) عن معضلة، فقال له: «سل تفقهاً ولا تسل تعنتاً، فان الجاهل المتعلم شبيه بالعالم، والعام المتعسف شبيه بالجاهل المتعنت».

تذكرت هذه الحكمة الخالدة في يومي هذا: ٢٥ من ذي القعدة سنة ١٣٩٦هـ حيث سألني شاب في قمّ يوحي مظهره بأنه من طلاب الحوزة الدينية، أما مخبرة فيعرف من قراءة هذه السطور، وكان سؤاله حول الحكمة من حكم ثبت بالوحي وضرورة الدين والمذهب.

فقلت له: القرآن الكريم نص على الحكم، وسكت عن علته أو حكمته، وعلينا أن نتعبد ولا نتفلسف، قال: كيف؟ أنا أريد أفهم، قلت: في النص كل الفهم وغنى عن غيره، إن كنت من المسلمين حقاً، قال: أنا مسلم، قلت: المسلم يستسلم للضرورة الحاكمة والآية القائمة والرواية المسلمة حتى ولو جهل الحكمة يقول: آمنت ما دام من عند الله.. ومن قال بلسان المقال أو الأفعال: لا أؤمن بأحكام الله إلاّ إذا علمت بالسبب الموجب للتحليل والتحريم ــ فما هو من المسلمين في شيء لأنه قد جعل من نفسه مشرعاً في مقابل الله ورسوله من حيث يريد أو لا يريد.

وقال سبحانه: (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة) والإيمان بالغيب كما يعم ويشمل الإيمان بالجن والملائكة أيضاً يشمل ويعم الجهل بعلل الأحكام والشرائع الغائبة عن أفهامنا.. هذا، إلى أن الرأي يخطى ويصيب، والوحي معصوم عن الخطأ، فكيف نعلل الوحي بالرأي، ونجعله دليلاً؟ وهذا الشاب المعمم يأبى إلا أن يعكس الآية والحقيقة، ويجعل الدليل مدلولاً، والمدلول دليلاً!. ولما أعيتني المحاول لقنته درساً ينتفع به، ان كان له عقل وقلب.

الهوامش:

(١) في كتاب الإنسان ذلك المجهول للدكتور أليكسيس كاريل: (كل جزء من الجسم يعرف واجباته الحالية

والآتية، ويعمل على ضوء معرفته لهذا الجسم.. فالجسم بما فيه يدرك كل ما هو قريب وبعيد) أي ما يطلب منه قريباً كان المطلوب أم بعيدا.